

مرکز انتشارات

علم الأصول

تاريخاً وتطوراً

علي الفاضل القائيني النجفي

بسم الله الرحمن الرحيم

علم الأصول

مرکز انتشارات دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیّهٔ قم؛ ۲۶

مسلسل انتشار؛ ۱۰۶۶

شابك ۸ ـ ۳۲۱ ـ ۴۲۴ ـ ۹۶۴

ISBN 964 - 424 - 321 - 8





علي الفاضل القائيني النجفي

فهرست نویسی پیش از انتشار : مرکز انتشارات دفتر تبلیغات اسلامی

الفاضل القائيني النجفي، علي، ١٣٢٦ـ

علم الأصول تاريخاً و تطوّراً / علي الفاضل القائيني النجفي. ـ قم: مكتب الإعلام الإسلامي، مركز النشر، ١٣٧٦.

٢١٢ ص. ـ (دفتر تبليغات اسلامی حوزهٔ علميّهٔ قم، مرکز انتشارات؛ ٢٦)

کتابنامه؛ ص [٢١١] ـ ٢١٢؛ همچنین به صورت زیرنویس.

١. اصول فقه شیعه ـ تاریخ. الف. دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علميّهٔ قم، مرکز انتشارات. ب. عنوان.

٨ع ٢ف / ١٤٨ BP ٢٩٧/٣٦

دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم
مركز انتشارات

علم الأصول تاريخاً و تطوّراً

المؤلّف: علي الفاضل القائيني النجفي

الناشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي

المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي

الطبعة: الثانية / ١٤١٨ق، ١٣٧٦ش

الكمية: ١٥٠٠

السعر: ٤٨٠ تومان

حقوق الطبع محفوظة للناشر

قم، شارع شهداء (صفائية)، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي،
ص ب: ٩١٧، هاتف: ٧ـ ٧٤٢١٥٥، فاكس: ٧٤٢١٥٤، توزيع: ٧٤٣٤٢٦

Printed in the Islamic Republic of Iran

فهرس الموضوعات

كلمة المؤلف	١١
القسم الاول	١٣
الفصل الاول في الامور العامة	١٥
تعريف علم الاصول	١٧
الادلة:	١٧
القرآن	١٧
السنة	١٨
الاجماع	١٨
العقل	١٨
ارتباط علم الاصول وعلم الفقه	١٩
مقدمات عملية الاستنباط	١٩
علم النحو، تفسير القرآن، علم المنطق، علم الحديث، علم الرجال، علم الاصول.	٢٠
اولاً القرآن الكريم، ذكر قسم من كتب آيات الاحكام	٢٠
ثانياً السنة، السنة تنحصر باحاديث الرسول، اوتشمل روايات اهل البيت(ع)؟	٢٣
ثالثاً الاجماع	٢٤
رابعاً العقل	٢٥
خامساً في امور اخرى تقع في طريق الاستنباط	٢٥
الفصل الثاني	٢٧
الاجتهاد في عصر الائمة(ع)	٢٩

الادلة العقلية ٣١
الادلة النقلية ٣٣
روايات الادلة النقلية: ٣٤
الاجتهاد، ٣٥
التقليد وشرائط من يصح تقليده ٣٥
وجوب الرّد الى الكتاب والسنّة واخذ الاحكام منها، وحجيّة الظواهر والعموم ٣٦
جواز العمل بالعام والمطلق ونحوهما، وجواز التفريع على الاصول الكليّة ٣٧
اصل البراءة ٣٧
اصالة الحل في المشتبه مع عدم العلم ٣٨
حجيّة خبر الواحد الثقة ٣٩
جواز نقل الحديث بالمعنى ٣٩
عدم جواز التكليف بما لا يطاق ٣٩
وجوب الاجتناب عن الشبهة المحصورة ٤٠
الاستصحاب ٤٠
عدم جواز العمل بالقياس والرأي ٤٢
التعادل والترجيح بين الاخبار المتعارضة ٤٢
كلام السيد الصدر في ابطال الزعم بتقدم اهل السنة
في الاجتهاد على الشيعة ٤٣

الفصل الثالث ٤٧
الزمامة الدينية للفقهاء ٤٩
عملية الاستنباط عند الاصوليين والاخباريين ٥٠
الفتوى في الصدر الاول ٥٢
كلام مع الشهيد الصدر ٥٥
كلام المحدث الجزائري ٥٦
العوامل التي اذّت الى حدوث الفكرة الاخبارية ٥٨

الفصل الرابع ٦١

موقف الشيعة من القياس والاستحسان ٦٣

القسم الثاني ٦٥

الفصل الاول	٦٧
تمهيد، موجز المباحث في المدارس الاربعة	٦٩
المدرسة الاولى	٧٢
علماء الاصول في المدرسة الاولى	٧٢
المعاهد العلمية:	٧٤
مدرسة المدينة المنوّرة	٧٤
ملامح المعهد الثقافي للمدينة المنوّرة	٧٧
مدرسة الكوفة	٨٢
ملامح مدرسة الكوفة	٨٣
مدرسة قم	٨٤
قم في العصر الحديث	٨٨
مميزات مدرسة قم	٩٠
الفصل الثاني	٩٣
المدرسة الثانية	٩٥
المبحث الاول: اهم علماء الاصول في هذه المدرسة	٩٥
السيد المرتضى وعدم عمله بالخبر الواحد	١٠٨
ملامح المدرسة الثانية	١١٦
المبحث الثاني: اهم الكتب الاصولية	١١٧
المبحث الثالث: المعاهد العلمية	١١٩
مدرسة بغداد	١١٩
ملامح مدرسة بغداد	١٢١
الفصل الثالث	١٢٥
المدرسة الثالثة	١٢٥
المبحث الاول اهم رجال هذه المدرسة:	١٢٧
الشيخ الطوسي	١٢٧
ابن ادريس الحلي	١٣٦
المحقق الحلي	١٣٧
العلامة الحلي	١٣٨
فخر المحققين	١٤٠

الشهيد الاول	١٤١
الشهيد الثاني	١٤٤
العلامة البهائى العاملي	١٤٥
صاحب المعالم	١٤٦
النزعة الاخبارية	١٤٨
الوحيد البهبهاني يصوّر الصراع مع الازمة الاخبارية	١٤٩
البحث الاصولي في الازمة الاخبارية	١٥٠
الفاضل التوني	١٥١
المحقق الخوانسارى	١٥١
سلطان العلماء	١٥٢
المحقق الشيرواني	١٥٢
ظواهر وملامح المدرسة الثالثة	١٥٣
المبحث الثاني اهم الكتب الاصولية في هذه المدرسة	١٥٥
المبحث الثالث اهم المعاهد العلمية في المدرسة الثالثة	١٥٩
مدرسة النجف الاشرف	١٥٩
ملامح مدرسة النجف الاشرف	١٦١
مدرسة الحلة	١٦٢
ملامح مدرسة الحلة	١٦٣
مدرسة المشهد الرضوى في خراسان	١٦٣
الفصل الرابع	١٦٥
المدرسة الرابعة	١٦٥
المبحث الاول : اهم رجال هذه المدرسة	١٦٨
مقاومة الوحيد البهبهاني للازمة الاخبارية	١٦٨
عوامل انتصار المحقق البهبهاني على النزعة الاخبارية	١٦٩
الدور الاول	١٧٠
السيد مهدى بحر العلوم	١٧٠
كاشف الغطاء	١٧١
اسد الله التستري	١٧٢
المرزا القمى	١٧٣
سيد على صاحب الرياض	١٧٤

الدور الثاني ١٧٤
محمد تقي الاصفهاني ١٧٤
محمد حسن الاصفهاني ١٧٥
شريف العلماء المازندراني ١٧٥
ملا احمد النراقي ١٧٦
السيد ابراهيم القزويني ١٧٧
محمد ابراهيم الكلباسي ١٧٨
محمد حسن صاحب الجواهر النجفي ١٧٨
السيد محسن الاعرجي ١٧٩
الدور الثالث ١٧٩
المحقق الانصاري ١٧٩
تلامذة المحقق الانصاري ١٨٦
مرزا حسن الشيرازي ١٨٦
مرزا ابوالقاسم كلانتر ١٨٨
مرزا حبيب الله الرشتي ١٨٩
محمد حسن الآشتياني ١٩٠
الآخوند الخراساني ١٩٢
مروّجو مدرسة المحقق الانصاري ١٩٤
مرزا حسين النائيني ١٩٤
آغا ضياء العراقي ١٩٥
محمد حسين الاصفهاني الكمپاني ١٩٦
المبحث الثاني: اهم الكتب الاصولية في هذه المدرسة ١٩٧
المبحث الثالث: اهم المعاهد العلمية في هذه المدرسة ٢٠٤
مدرسة كربلاء ٢٠٤
مدرسة اصفهان ٢٠٤
الخاتمة ٢٠٧
فوائد عامة ٢٠٧
اصول الفقه ٢٠٧
الحاشية ٢٠٨
التقريرات ٢٠٩
كلمة الختام ٢١٠
المصادر ٢١١

كلمة المؤلف

انّ أصحابنا الإمامية في سالف الزمان كانوا يسعون في بسط العلوم الاسلامية في أجواء المجتمع عن طريق التدريس والتأليف والمحاورات وغيرها من طرق التعليم والنشر.

ولقد تقدّموا تقدّماً كبيراً في مختلف ميادين العلم بحيث انّهم توصّلوا الى أشياء لم يسبقهم إليها أحد،فبلغوا بتطوّر علومهم أعلى الدرجات.

والباحث في هذا المجال بعد التحقيق والدراسة الشاملة لكلّ الجوانب يعطي النصفة من نفسه، و يعترف بمدى هذا الجهد العظيم الذي بذله علماؤنا الإمامية في هذا الميدان.

وكان سبب هذا الجهد المتواصل من أصحابنا، و بذل جميع طاقاتهم لإحساسهم بحاجة المجتمع الاسلامي الى هذه العلوم، وكلّما أحسّوا بظهور بعض العلوم بذلوا الجهد والعناء في سبيل تحصيل ذلك.

والعامل المهم في هذا المجال وحصول هذه الثقافة العظيمة التي لم يسبق لها مثيل في العالم، هو: مجيء الإسلام وتصميم أبنائه على الوصول الى مجتمع انساني، و بناء ثقافة جديدة في جميع الجهات، ولم يكتف بارشاد أبنائه فقط.

بل تعدّى ذلك الى سدّ حاجة المجتمع في جميع المجالات العلمية كالهندسية والطّبيّة وغيرها.

وبما انّ الحصول على علم الطبّ ومسائله يتوقّف على دراسة هذا العلم، لذا فانّنا نرى الشريعة قدجعلت تحصيل هذه العلوم فرضاً كفائيّاً على أبناء الاسلام.

إذ بدون وجود هذه العلوم لم يكن ممكناً الوصول الى النظام الكامل، الذي هو أمنية الاسلام وهدفه.

فقد علم ممّا ذكر: انّ العلوم الاسلامية هي مايتوقّف عليها حفظ النظام، ومايوجب تقدّم المجتمع الاسلامي.

ومن أجل ذلك وجدت الثقافة الاسلامية في مختلف العصور، وكانت هذه العلوم موضع اهتمام ورعاية أبناء الاسلام، ولونظرنا الى ماجاء في التعلّم والتعليم من الترغيب والفضيلة، لوجدنا انّ الاسلام قدارتفع بهذه المسألة حتى عدّها من الفرائض: فقدحثّ الاسلام أبناءه على طلب العلم بشتىٰ الوسائل ومهماكانت المشقّات، كمشقة السفر الى البلاد البعيدة وغير ذلك.

فهاهو الرسول الأكرم «ص» يُطالبنا بأحاديثه الشريفة في هذا الباب فيقول: «أطلب العلم ولوبالصين» و يقول: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة».

وممّا يمتاز به الاسلام السماح لأبنائه في تحصيل مايحتاجون إليه من العلوم بصرف النظر عن مصادر تلك العلوم من جهة كونها اسلامية أو غيرها.

ولذا نرىٰ انّ الثقافة الاسلامية قدأخذت من الثقافات الأخرىٰ واستخدمتها، دونما مَسٍّ باستقلال الثقافة الاسلامية، بل على العكس أضفَت الثقافة الاسلامية صبغتها على ماأخذته من الثقافات الأخرىٰ، وعكست صورتها على جميع مااستخدمه أبناء الاسلام من الثقافات القائمة آنذاك كالثقافة الهنديّة واليونانيّة والإيرانيّة وغيرها.

ولذا نجد انّ المحقّقين المنصفين في الشرق والغرب قداعترفوا بأنّ الثقافة الاسلامية تُعدّ من أوسع الثقافات العالمية القائمة.

ونحن ماقمنا بهذا البحث إلاّ لدراسة جانب من الثقافة الاسلامية التي قامت على أكتاف أصحابنا من علماء المذهب الإمامي ذلك هو «علم أصول الفقه»، وبما انّ بحث ودراسة جميع العلوم الاسلامية يحتاج الى لجان متعددة تصبّ فيها طاقات كثيرة ومختلفة.

لذا اختصرنا في دراستنا هذه على علم أصول الفقه من بين تلك العلوم الجمّة، وفي هذه الحلقة من البحث نقدّم:

١ ـ نشوء هذا العلم وظروف تأسيسه.

٢ ـ المدارس الكبيرة وأعظم الشخصيات المعروفة الذين كان لهم دور في تطوير هذا العلم، وقدأرجأنا دراسة تطوّر مباني هذا العلم الى الحلقة الثانية إن شاء الله.

وبناءاً على قلة الذين بحثوا في هذا الموضوع ودرسه فقد تحمّلنا صعوبة هذا البحث مستمدّين من الله العون والتوفيق.

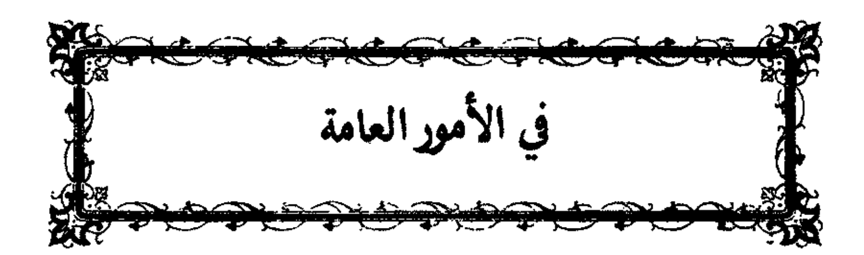
قم المقدّسة: علي الفاضل القائيني النجفي

٢٧ رجب ١٤٠٣هـ

القسم الاول

نشأة علم الاصول
و
ظروف تأسيسه

الفصل الأول



في الأمور العامة

- تعريف علم الأصول
- الأدلة
- ارتباط علم الأصول وعلم الفقه
- في مقدمات عملية الاستنباط
- تفصيل الأدلة



الأمور العامة

ولابدّ لنا قبل البحث أن نذكر أموراً:

الأمر الأوّل تعريف علم الأصول:

عرّف علم الأصول بأنَّه: «العلم بالقواعد الممهّدة لاستنباط الأحكام الشرعية».

وغايته:

هي القدرة على استنباط الأحكام الشرعية عن مداركها المعيّنة.

وموضوعه:

الأدلّة الأربعة، أو مايقع في طريق الاستنباط.

الأمر الثاني:

والآن و بعد أن تعرفنا على علم أصول الفقه وانّه هوالذي يوصلنا الى استنباط الحكم الشرعي من أدلته التفصيلية لابدّ أن نتعرف على ماهية تلك الأدلة وهي عند الشيعة:

١ ـ القرآن الكريم:

و يعبّر عنه بـ«الكتاب» وهو الدستور الإلهي، وقدجاءت فيه جملة من أمّهات الأحكام.

٢ ـ السنّة:

وهي عبارة:

١ ـ أوامر المعصوم ونواهيه، وتعليماته التي فاه بها.

٢ ـ أفعاله وأعماله التي قام بها، والتي تشعر بإباحتها، إلاّ إذا أتىٰ بها بعنوان الوجوب أو الإستحباب، فتدلّ على وجوب ذلك العمل أو استحبابه، مالم يكن ماأتىٰ به من خصائصه كنوافل الليل ونحوها.

٣ ـ تقريراته التي أقرّبها على عمل من أصحابه بمحضر ومنظر منه.

٣ ـ الإجماع:

فاذا لم يجد من أراد الظفر بحكم، ولم يحصّل بغيته في ظواهر الكتاب، ولم يتمكّن من الوصول إليه عن طريق السنّة، فانَّ وجد انَّ الفقهاء قداتّفقوا على فتوىٰ واحدة في ذلك الحكم وجب عليه الأخذ بإجماعهم، إمّا لأنَّ الأمّة لا تتفق على الخطأ، أو لأنَّ اجماعهم يكشف عن قول المعصوم.

٤ ـ العقل:

. فاذا لم يحصّل الطالب، أو المجتهد بغيته في الكتاب، ولاالسنة، ولم يكن هناك اجماع للأصحاب في المسألة، يصل الأمر وتعيين الوظيفة بمايقتضيه العقل من الأصول العملية.

مثلاً إذا لم يعثر على حكم التدخين في الكتاب والسنة والإجماع، فلابدّ من الرجوع الى حكم العقل الذي يحكم «بقبح العقاب من دون بيان» فتكون النتيجة: ترخيص التدخين في الشريعة، لعدم وصول بيان في هذا الموضوع من قبل الشارع في الكتاب والسنة ولم يقم فيه اجماع، فعليه يحكم العقل بإباحة التدخين، و براءة ذمة المكلّف من الحرمة.

فاتّضح من هذا أنَّ عملية استنباط واستخراج الحكم الشرعي إنّما تكون من هذه المصادر الأربعة، أعني: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، وسنتكلّم عن كلّ من هذه المصادر بتفصيل أكثر إن شاء الله.

* * *

الأمر الثالث: انَّ علم أصول الفقه له ارتباط عميق مع «علم الفقه»، والنسبة الموجودة بينهما نسبة المقدمة الى ذي المقدمة، فهو بالنسبة للفقه كالمنطق بالنسبة الى الفلسفة.

ولأجل هذه الرابطة العميقة بين علم الأصول وعلم الفقه يعبّر عن هذا العلم بـ«أصول الفقه»، أي انَّ علم الأصول يعدّ بمثابة الأسس والأركان لعلم الفقه.

فعلم الفقه إذاً:

في اللغة: الفهم، واصطلاحاً: هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلّتها التفصيلية.

وأخذ الكلمة «الفرعية» في هذا التعريف لحصر البحث وخروج الأصول الاعتقادية عن دائرة موضوع الفقه.

وتحصيل العلم بالأحكام الشرعية له طرق وأسباب خاصة سوف نبحث فيها.

الأمر الرابع: انَّ الفقيه هو الذي يحصل له العلم بالأحكام الشرعية بواسطة عملية الاستنباط، و بذل طاقته من الأدلة والمنابع الخاصة، وهذه العملية تتوقّف على تحصيل مقدمات وهي:

١ ـ علم النحو، والصرف، واللغة، والمعاني والبيان، والبديع،

وذلك انَّ القرآن والحديث باللغة العربية و بدون الاحاطة والعلم بهذه المواد المذكورة لايمكن استخراج الحكم والاستفادة من القرآن والحديث.

٢ ـ تفسير القرآن الكريم. نظراً الى انَّ الفقيه يريد الرجوع الى القرآن المجيد واستنباط الحكم الإلهي منه فلابدّ أن يكون عالماً ولوعلى نحو الإجمال بعلوم القرآن والتفسير.

٣ ـ علم المنطق، كلّ علم استخدم فيه الاستدلال لاثبات مسائله لابدّ لطالبه من التضلّع والعلم بالقواعد المنطقية حتى يتمكّن من الوصول الى هدفه والحصول على مايبتغيه من ذلك العلم.

٤ ـ علم الحديث، فالفقيه لابدَّ من أن يكون عارفاً بأقسام الحديث من الصحيح والضعيف وغيرهما من الأحوال التي يبحثُها هذا العلم.

٥ ـ علم الرّجال، وهذا العلم يتناول رجال سند الحديث وشهادات أصحاب كتب الرجال لهؤلاء بالوثاقة، أو عدمها لتحديد امكانية الاعتماد عليهم في صحة الروايات التي رووها عن المعصومين عليهم السلام.

فعلم الحديث يتناول الراوي من جهة كونه عدلاً، إمامياً، أو ثقة، أو ضعيف، أو مجهول، ومالى ذلك من أحوال الراوي.

٦ ـ علم الأصول، وهو أهم مايحتاج إليه الفقيه في عملية استنباط واستخراج الحكم الشرعي من الأدلة، وهذا العلم يبيّن لنا كيفية الاستنباط واخراج الحكم من المصادر التي سنبحثُها.

ولأجل أهميّة عمليـة استنباط واستخراج الحكم الشرعي من المنابع والأدلة سنرسم لك صورة واضحة لكلّ من هذه الأدلة.

أولاً: القرآن الكريم

القرآن الكريم وهو أوّل مصدر لعملية الاستنباط وتحصيل الحكم الشرعي، ولايعني هذا انَّ جميع الآيات القرآنية عبارة عن أحكام شرعية، وإنَّما قسم منها (حوالي خمسمائة آية من ستة آلاف وستمائة وستين آية على المشهور).

ولقد اجتهد أصحابنا و بذلوا طاقتهم في تفسير هذه الآيات، ولهم كتب وتصانيف تختصّ بهذه الآيات، و يعبّر عنها بـ«آيات الأحكام» وقدتفنّن المؤلفون في دراسة هذه الآيات، وأشهر الأساليب المتبعة في تفسير آيات الأحكام أسلوبان:

١ ـ ترتيب الآيات حسب السور الواردة في القرآن الكريم من سورة البقرة الى آخره.

٢ ـ ترتيبها بحسب الأبواب الفقهية المتّبعة في تصانيف الفقهاء (من كتاب الطهارة الى كتاب الدّيات).

أوّل من ألّف وصنّف في «آيات الأحكام» أو فقه القرآن هو محمدبن السائب الكلبي كما قال السيد الصدر في تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام[١].

و يؤيّد كلام السيد الصدر قول ابن النديم في الفهرست عند ذكره للكتب المؤلفة في أحكام القرآن مالفظه:

كتاب أحكام القرآن للكلبي، رواه عن ابن عبّاس[٢]

وهذا لايتفق وماأورده السيوطي في كتابه «الأوائل»: من انّ الإمام الشافعي هو أوّل من صنّف كتاباً في آيات الأحكام، فانّ محمدبن السائب الكلبي توفي في سنة (١٤٦) هجرية كما سنرىٰ بينما نجد انّ الإمام الشافعي قدتوفي سنة (٢٠٤) هجرية، وكان له من العمر (٥٤) سنة.

وذكر في طبقات النحاة أوّل من كتب في أحكام القرآن هو القاسم بن أصبغ بن محمدبن يوسف البياني القرطبي الأندلسي الأخباري اللغوي المتوفى (٣٠٤)هـ عن ثلاث وسبعين سنة[٣].

وأيّاً ماكان فهو متأخّر عن محمدبن السائب، اللهم إلاّ أن يريد أوّل من صنّف في هذا من علماء السنة والجماعة، وذلك لاينافي لما ذكرنا من تقدّم أصحابنا الإمامية في ذلك.

وقد ألّف وصنّف من علماء الشيعة في فقه القرآن جمّ غفير، وسنتعرّض فيمايلي الى أهمّ من كتب في ذلك:

١ ـ أبو النضر محمدبن السائب الكلبي المتوفىٰ (١٤٦)هـ وكان من أصحاب الإمام أبي جعفر الباقر، والإمام أبي عبدالله الصادق عليهما السلام.

٢ ـ أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشر بن زيدبن أدرك بن بهمن الخراساني البلخي ثمّ

١ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام/٣٢١.

٢ ـ فهرست ابن النديم/٥٧.

٣ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام/٣٢١.

الرازي المتوفى (١٥٠).

٣ ـ أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي الكوفي المتوفى (٢٠٦) وكان كأبيه من أصحاب الصادقين عليهما السلام.

٤ ـ الوزير أبو الحسن عبّاد بن عبّاس بن عبّاد الطالقاني المتوفى (٣٨٥).

٥ ـ ابنه الوزير كافي الكفاة الصاحب اسماعيل بن عبّاد المتوفى (٣٨٥).

٦ ـ قطب الدين أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي المتوفى (٥٧٣).

٧ ـ أبو الحسن محمد بن الحسين بن الحسن البيهقي النيشابوري الكيدري المتوفى بعد (٥٧٦).

٨ ـ فخر الدين أحمد بن عبدالله بن سعيد بن المتوّج البحراني المتوفى بعد (٧٧١).

٩ ـ أبو عبدالله المقداد بن عبدالله بن محمد بن الحسين بن محمد السيوري الأسدي الحلي النجفي المتوفى (٨٢٦).

١٠ ـ جمال الدين أحمد بن عبدالله بن محمد بن الحسن بن المتوّج البحراني المتوفى بعد (٨٣٦).

١١ ـ ناصر بن جمال الدين أحمد المتوفى حدّ (٨٦٠).

١٢ ـ كمال الدين حسن بن شمس الدين محمد الاسترابادي النجفي المتوفىٰ حد (٩٠٠).

١٣ ـ شرف الدين علي بن محمد الشهفينكي المتوفى (٩٠٧).

١٤ ـ أحمد بن محمد المحقق الأردبيلي النجفي المتوفى (٩٩٣).

١٥ ـ أبو الفتح بن الأمير مخدوم بن الأمير شمس الدين محمد الحسيني المتوفىٰ سنة (٩٨٦).

١٦ ـ شجاع الدين محمود بن علي الحسيني المرعشي المازندراني توفي زمن السلطان طهماسب الأول الصفوي.

١٧ ـ مرزا محمد بن علي بن ابراهيم الحسيني الإسترابادي المتوفىٰ سنة (١٠٢٦).

١٨ ـ رفيع الدين محمد الصدر بن شجاع الدين الحسيني المرعشي المتوفىٰ سنة (١٠٣٤).

١٩ ـ محمد اليزدي الشهير بشاه قاضي المتوفىٰ حد (١٠٤٠).

٢٠ ـ محمد بن الحسين العاملي المتوفىٰ حد (١٠٨٠).

٢١ ـ محمد سعيد بن سراج الدين قاسم الطباطبائي القهبائي المتوفىٰ سنة (١٠٩٢).

٢٢ ـ محمد بن علي بن حيدر الموسوي العاملي المكّي المتوفىٰ سنة (١١٣٩).

٢٣ ـ المرزا محمد ابراهيم الشهير بالمرزا ابراهيما الحسيني التبريزي المتوفىٰ سنة (١١٤٩).

٢٤ ـ أحمد بن اسماعيل الجزائري المتوفىٰ سنة (١١٥٠).

٢٥ ـ ملاّ محمد جعفر بن سيف الدين الاسترابادي الشهير بشريعتمدار المتوفىٰ سنة (١٢٦٣).

٢٦ ـ علي بن ملاّ محمد جعفر الاسترابادي الشريعتمداري المتوفىٰ سنة (١٣١٥).

٢٧ ـ محمد ثقة الاسلام بن فضل الله الساروي المتوفىٰ سنة (١٣٤٢).

٢٨ ـ محمد مهدي البنابي المراغي الحائري المتوفىٰ سنة (١٣٤٥).

٢٩ ـ محمد باقر بن محمد حسن القايني البيرجندي المتوفىٰ سنة (١٣٥٢).[١]

١ ـ ولمزيد الاطلاع فليراجع كتاب الذريعة ٤ : ٢٣١.

ثانياً السنة:

وهي عبارة عن قول وفعل وتقرير النبي أو الإمام.

فلوثبت من طريق الأحاديث ان حكماً بيّنه النبي أو الإمام، أو حصل لنا العلم بأن المعصوم فعل شيئاً، أو أتىٰ بعمل. أو ثبت انَّ عملاً أتىٰ به أحد أصحابه في مرئى ومسمع منع ولم يردع ويمنع عنه فان عدم ردعه عن ذلك العمل إمضاء له.

ولاخلاف بين طوائف المسلمين في حجّيّة السنة، انّما حصل الخلاف في أمرين:

الأمر الأوّل ـ هل السنة هي الروايات المنقولة عن النبي «ص» ولم تشمل روايات أئمة أهل البيت «ع» ؟ أو انَّ السنة تشمل ذلك أيضاً ؟

ذهب أهل السنة والجماعة الى حجيّة السنة النبوية فقط، وامّا الشيعة فيعتبرون أقوال الأئمة «ع»، وأفعالهم، وتقريراتهم امتداداً للسنّة النبوية المطهّرة في عملية الاستنباط، وذلك استناداً الى روايات وردت عن الرسول «ص» ولم ينفرد الشيعة بروايتها، وإنّما ذكرت في مجاميع أهل السنة أيضاً مثل قوله «ص»: انّي مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن تضلّوا ماتمسّكتم بهما، وانّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض[١].

الأمر الثاني ـ هل انَّ حجيّة السنة والعمل بها يتوقّف على ماكان قطعي الصدور من قول وفعل وتقرير المعصوم؟ أم انَّ الحجيّة تتعدّىٰ الى أبعد من ذلك فتشمل ماكان ظنّي الصدور وخبر الواحد؟ وإذا كانت الحجية تتوقّف على الروايات القطعية فكيف تكون حال المسلمين ونحن نعلم انَّ الروايات المقطوع بصدورها عنهم «ع» قليلة جداً ؟

فقد ذهب أبوحنيفة الى عدم الاعتماد على الأحاديث في الاستنباط إلاّ على سبعة عشر حديثاً، بينما ذهب جماعة الى الاعتماد حتى على الضعيف في الأحاديث.

وغير خفيّ على المرء مابين هذين المذهبين من تناقض واضح. وأمّا الشيعة

١ ـ صحيح مسلم ٤: فضائل علي «ع» الحديث ٣٦ـ٣٧، ومسند أحمد ٣: ١٧.

فقداقتصروا في الاعتماد على الأحاديث الصحيحة والموثقة، ومعنى الصحيحة: الأحاديث التي صدرت عن راوٍ عدلٍ إماميّ.

ومعنى الموثقة: الأحاديث التي صدرت عن راوٍ ثقة وإن لم يكن إمامياً.

وهنا يبرز دور علم الرجال الذي يبحث في أحوال رواة الحديث من جرح وتعديل، وسائر الأقوال التي وردت فيهم.

ولايختص هذا العلم بالشيعة فقط، بل لأهل السنّة فيه كتب وتصانيف كثيرة.

وإن كان بين الشيعة جماعة تسمّىٰ بـ«الأخباريين» وهم يعتمدون على الأحاديث المروية في الكتب الأربعة:

١ ـ الكافي: لأبي جعفر محمدبن يعقوب الكليني المتوفىٰ سنة (٣٢٨)هـ.

٢ ـ من لايحضره الفقيه: لأبي جعفر محمدبن علي بن بابويه القمي المتوفىٰ سنة (٣٨١).

٣ ـ تهذيب الأحكام.

٤ ـ كتاب الاستبصار: كلاهما لأبي جعفر محمدبن الحسن الطوسي المتوفىٰ سنة(٤٦٠)هـ.

وفي موضع آخر سوف نتكلّم عن هؤلاء العلماء بتفصيل أكثر.

ثالثاً الإجماع:

الإجماع هو اتّفاق آراء علماء الاسلام في مسألة.

وعند الشيعة الاجماع ليس حجّة بنفسه، وإنّما بلحاظ كونه كاشفاً عن رأي المعصوم ورضاه.

وعند أهل السنة فان الإجماع حجّة بنفسه، فلوانَّ علماء المسلمين أجمعوا على مسألة من المسائل في عصر من العصور كان اجماعهم حجّة، وهو في قوة الحكم الإلهي الذي لاتجوز تخطئته.

رابعاً العقل:

والعقل عبارة: عن قوة في النفس معدّة لقبول العلم والإدراك، ولذا قيل: انّه نور روحاني تدرك النفس به العلوم الضرورية النظرية. فلوكان للعقل حكم قطعي في مسألة فهذا الحكم يكون حجة، لحجيّة مدركات العقل، وهو مرجعاً علمياً عند فقدان الدليل، و يكون حكم العقل حكماً شرعياً مستنبطاً.

خامساً في امور أخرى تقع في طريق الاستنباط:

ذكر علماء الأصول في مقام تحديد موضوع علم الأصول انّ موضوعه الأدلة الأربعة: الكتاب والسنّة والإجماع والعقل.

اعترض على ذلك: بأنّ الأدلة الأربعة ليست عنواناً جامعاً لجميع موضوعات مسائل علم الأصول، فمثلاً مسائل الاستلزامات موضوعها الحكم، إذ يقال مثلاً: انّ الحكم بالوجوب على شيء هل يستلزم تحريم ضده أو لا؟.

ومسائل حجيّة الإمارات الظنيّة كثيراً مايكون موضوعها الذي يبحث عن حجيّة شيء خارج عن الأدلة الأربعة، كالشهرة، وخبر الواحد.

ومسائل الأصول العملية موضوعها الشك في التكليف على أنحائه، وهو أجنبي عن الأدلة الأربعة أيضاً.

ولذا عدل المحقّق الخراساني عن تعريف المشهور وقال: انّ موضوع علم الأصول هو الكلي المنطبق على موضوعات مسائله المتشتّة لاخصوص الأدلة الأربعة...[1]

وقال الشهيد السيد الصدر: انّ موضوع علم الأصول هو كلّ مايترتّب أن يكون دليلاً وعنصراً مشتركاً في عملية استنباط الحكم الشرعي والاستدلال عليه، والبحث في كلّ مسألة أصولية، إنّما يتناول شيئاً ممّا يترتب أن يكون كذلك، و يتّجه الى

١ ـ كفاية الأصول ١:٦.

تحقيق دليليّته والاستدلال عليها اثباتاً ونفياً، فالبحث في حجية الظهور أو خبر الواحد أو الشهرة بحث في دليليتها، والبحث في أنَّ الحكم بالوجوب على شيء هل يستلزم تحريم ضدّه بحث في دليليته الحكم بوجوب شيء على حرمة الضدّ، ومسائل الأصول العملية يبحث فيها عن دليليته الشك وعدم البيان على المعذرية، وهكذا...

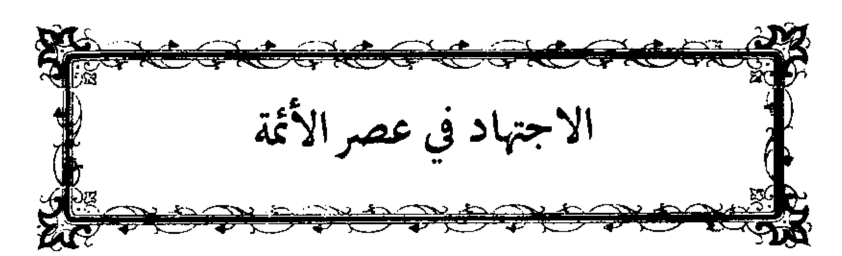
فصح انَّ موضوع علم الأصول هو الأدلة المشتركة في الاستدلال الفقهي، والبحث الأصولي يدور دائماً حول دليليتها[1].

و بعد أن تعرّفنا على الأدلة التي تستخدم في عملية الاستنباط فتأدّي الى مايعرف لدينا بالاجتهاد، لابدَّ أن نتكلّم شيئاً عن الاجتهاد من حيث تاريخه وأهميته.

يبرز السؤال التالي هل انَّ فقهاء الإمامية أخذوا يستفيدون من هذه الأدلة بعد عصر الأئمة «ع» ؟، أو انَّهم كانوا يستفيدون منها مع وجود الأئمة «ع» ؟، والفصل التالي كفيل ببيان هذه المسألة.

١ ـ دروس في علم الأصول الحلقة الثانية/ ١٠ـ١١.

الفصل الثاني



الاجتهاد في عصر الأئمة

- في الأدلة العقلية
- في الأدلة النقلية
- روايات الأدلة النقلية
- كلام السيد الصدر



الاجتهاد في عصر الأئمة «ع»:

إنَّ أكثر الباحثين تصوّروا: انَّ الاجتهاد الذي هو عبارة عن التفريع ورد الفروع على الأصول، ومعنى ذلك انَّ الفقيه يستنبط حكماً فرعياً من قاعدة عامة (أصل من أصول الفقه) فمثلاً انَّ المجتهد الذي يقول باعتبار حجيّة خبر الثقة أصلاً من أصول الفقه من جهة ومن جهة أخرى ورد خبر الثقة ناصاً على انَّ البسملة جزء من كلّ سورة، فعلى هذا المجتهد في مثل هذه الحال ان يعتبر البسملة جزءاً من كلّ سورة بناءاً على الأصل الذي اعتبره.

إنَّ هؤلاء الباحثين تصوّروا بأنَّ الاجتهاد بهذا المعنى أمر حادث لم يكن في عصر الأئمة «ع»، وانَّ عملية الاجتهاد عند الشيعة قدوجدت بعد انقضاء عصر الأئمة «ع».

وإنَّ عملية الاجتهاد كانت ثابتة حتى في عهد الرسول عند أهل السنة، فكان الصحابة عند الحاجة يجتهدون في عصر الرسول.

قال المحقق الشيخ آغابزرك الطهراني: بل ذكر في بعض التواريخ وجزم به المقريزي: «انَّ العشرة المبشّرة كانوا يجتهدون، و يفتون في حياة النبي «ص» ...

وعلى كلّ حال فلاشبهة في أنَّ الأصحاب صاروا مرجعاً للأحكام الدينية بعد وفاته ونفروا الى أطراف البلاد الاسلامية، ونزلوا بها لتعليم القرآن والأحكام.

قال المقريزي: انَّ الأصحاب تفرّقوا بعد رحلة النبي «ص» الى البلاد. و بقي بعضهم في المدينة مع أبي بكر، فكان أبو بكر يقضي بما كان عنده من الكتاب والسنة، فان لم يكن عنده شيء سأل من بحضرته من الأصحاب، فان لم يكن عندهم شيء اجتهدوا في الحكم[١].

ومن الأسباب التي يذكرها القائلون بأنَّ عملية الاجتهاد مختصة بأهل السنة وإنَّ الشيعة لم يكن لديهم اجتهاد مادام أئمتهم بينهم: انَّ الشيعة لم يكونوا بحاجة الى الاجتهاد لوجود أئمتهم بين ظهرانيهم، ومعنى ذلك انَّهم إذا احتاجوا الى مسألة أو حكم شرعي أخذوها مباشرة عن الأئمة «ع» إلاَّ إذا تعذّر الوصول الى الإمام فعندئذ يضطرّون الى اللجوء الى الأصول العلمية لاستنباط الحكم الشرعي منها، ومع القدرة لتحصيل العلم بالحكم الشرعي بواسطة السؤال عن الأئمة «ع» ماهي الحاجة الى الاجتهاد في تحصيل الأحكام الشرعية؟

سواء قلنا انَّ الاجتهاد عبارة عن: التفريع وردّ الفروع الى الأصول، كما مثلناه، أو قلنا انَّ الاجتهاد هو بمعنى القياس والرأي كما تذهب اليه أهل السنة.

ومن أولئك الذين يزعمون بتأخّر الشيعة في الرجوع الى الاجتهاد الدكتور «مستر چارلز آدامس» قال: لو أردنا أن نفهم لماذا تأخّر الشيعة في عملية الاجتهاد عن أهل السنة لسنا بحاجة الى أن نذهب بعيداً في هذه المسألة، انَّ الشيعة لم يحتاجوا الى الرجوع الى «أصول الفقه» مع وجود الأئمة فيما بينهم، ولم يستعينوا في حلّ مشاكلهم بعملية الاجتهاد، لكن بعد غيبة الامام الثاني عشر «ع» تغيّرت الفكرة الشيعية، والتجأت الى الاجتهاد ومراجعة الأدلة[٢].

وذهب الى هذا الزعم أيضاً الاستاذ محمود الشهابي[٣]. وقد تابعه في هذه الفكرة بعض المتأخرين.

١ ـ تاريخ حصر الاجتهاد/٩٠، والخطط المقريزية ٢: ٣٣٢.
٢ ـ هزاره شيخ طوسي ٢: ٢٧.
٣ ـ تقريرات الأصول/٤٣.

ولقد عقدنا هذا الفصل من أجل تزييف هذا الزعم وابطال حجج زاعميه، وهو ينقسم الى مبحثين:

المبحث الأول في الأدلة العقلية.

المبحث الثاني في الأدلة النقلية.

الأول في ألأدلة العقلية:

أ ـ انَّ الفكرة التي تزعم بأنَّ باب العلم كان مفتوحاً في عصر الأئمة، ومعه لم تكن حاجة الى الاجتهاد والفتوى ـ: انَّ الأئمة كانوا غالباً يعيشون في «المدينة المنورة» المعهد الثقافي الاسلامي الذي وضع حجره الأساس الرسول الأعظم «ص» فكان يتيسّر للشيعة القاطنين هناك الوصول الى أئمتهم و يأخذوا عنهم الأحكام، وامّا بقية الشيعة الذين كانوا يعيشون في البلدان المختلفة كالعراق وخراسان... فكيف كانوا يتلقّون الأحكام الشرعية، وعن أيّ طريق كانوا يأخذونها عن الأئمة «ع»؟ ولأجل ذلك كانوا يراجعون تلامذة الأئمة وأصحابهم، ورواة الحديث عنهم، أو الذي حضر مدة عند الامام واستنار من مجلسه الشريف، حتى كان لبعض أصحاب الأئمة كتباً ورسائل كانت تحتوي على ماسمعه من الأئمة.

وبما انَّ المسائل الشرعية كان يتكرر السؤال عنها فكان رواة الحديث يعرفون حكمها لعلمهم بالجواب الصادر عن الأئمة حول تلك الأسئلة.

وتارة تكون المسائل التي يرجع الشيعة فيها الى الرواة وأصحاب الأئمة من المسائل المستحدثة التي لم يسبق لهم معرفة حكمها، فكان عليهم البحث عن حكم هذه المسائل المشكلة.

والتاريخ يذكر لنا: انَّ الشيعة في العراق وخراسان، وسائر البلدان كانوا يجمعون أسئلتهم و يرسلونها مع الحجاج، وكان الجواب قدلايصل اليهم إلاَّ بعد ستة أشهر أو سنة.

ب ـ في حال كون الأئمة «ع» في السجن وتحت المراقبة والاقامة الجبرية لفترات

من الزمن، فالامام الصادق «ع» كان فترة من الزمن تحت المراقبة الشديدة في زمن المنصور، وفي هذه المدة لم تسنح الفرصة لأحد أن يزور الامام أو يصاحبه، حتى انّه أراد أحد أن يسأل الامام «ع» مسئلة فاحتال، بأن جعل نفسه بياعاً للخيار، وتحت هذا العنوان دخل بيت الامام وسأل مشكلته.

وهكذا الامام موسى بن جعفر«ع» كان طيلة سنوات في سجن البصرة و بغداد، حتى انّه قضى نحبه واستشهد في السجن.

ونحن نتساءل هنا، ألم تكن تعرض للشيعة مسائل طيلة هذه الفترات؟ وكيف كانوا يعالجون مثل هذه المشاكل في حال عروضها مع عدم وجود الامام وعدم الحصول على جواب من الامام في هذه المسائل قبل حبسه أو مراقبته.

لاشك انّهم في هذه الحالة كانوا يلجؤوا الى شكل من أشكال الاجتهاد.

ج ـ انّ الروايات الواردة عن الأئمة «ع» فيها العام والخاص، والمطلق والمقيَّد، فلوكان الرواة ـ بمقتضى ماسيذكر في الأدلة النقلية ـ يفتون الناس لكان لزاماً عليهم أن يجمعوا بين هذه الروايات وأن يرفعوا التعارض الحاصل بينهما، أو يطرحوا بعضاً منها، وهذا العمل كان يحدث للرواة حتى في عصر الأئمة «ع» وليس منحصراً في عصرنا هذا فقط، وهذه العملية ليست إلاّ عملية «الاجتهاد والاستنباط».

د ـ انّ روايات العلاجية الواردة في علاج الأخبار المتعارضة مثل مارواه ابن أبي جمهور الأحسائي في «عوالي اللئالي» عن العلامة مرفوعة الى زرارة قال: سألت أبا جعفر«ع» فقلت: جعلت فداك يأتي عنكم الخبران والحديثان المتعارضان فأيّهما آخذ؟ فقال «ع»: يازرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر. فقلت: ياسيّدي انّهما معاً مشهوران مأثوران عنكم؟ فقال «ع»: خذ بمايقول أعدلهما عندك وأوثقهما في نفسك.

فقلت: انّهما معاً عدلان مرضيان موثقان؟

فقال «ع»: انظر ماوافق منها العامة فاتركه، وخذ بماخالف فانَّ الحقّ فيا

خالفهم . . .[١]

فهذه الرواية وغيرها ليست مقيدة بغير زمان الأئمة، بل هي مطلقة تشمل حتى عصر الأئمة.

واختصاص الروايات العلاجية الواردة في مورد تعارض الأخبار لعصر غير الأئمة تحتاج الى دليل خاص، ولم نجد ذلك، فتبقى الروايات على اطلاقها.

ومن هنا نعلم انَّ جانباً كبيراً من الاجتهاد يتوقّف على معالجة الروايات المتعارضة.

هـ ـ انَّ «علم الأصول» الذي يبتنى عليه الاجتهاد والاستنباط لم يكن أمراً حادثاً لدى الشيعة، فهو لم يُبتَكر بعد عصر الأئمة «ع» كما ذهب البعض الى ذلك، بل انَّ الأصحاب والرواة في عصر الأئمة «ع» كان لهم في علم الأصول رسائل وتأليفات في مختلف مسائل الأصول، كما سنذكر ذلك عن السيد الصدر (رحمه الله) في الدراسة عن «أول من صنّف في علم الأصول».

الثاني في الأدلة النقلية:

أ ـ انَّ التاريخ يشهد بأنَّ الأئمة «ع» كانوا يأمرون أكابر صحابتهم وتلامذتهم الذين كانوا يعلمون الأصول ومبادىء الفقه بأن يجلسوا في المسجد و يفتون الناس، ومن جهة أخرى كانوا يدعون الناس الى أخذ الفتيى من هؤلاء، بعد أن وضعوا لمن يتصدّى للإفتاء شروطاً معيّنة.

ونسوق فيمايلي بعض الروايات والحوادث التي تثبت ماندعيه:

١ ـ قال الامام الصادق «ع» لابان بن تغلب: اجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فانّي أحبّ أن يرى في شيعتي مثلك[٢].

٢ ـ ماروأه عبدالعزيز بن المهتدي عن الامام الرضا «ع» قال: سألته فقلت: انّي

١ ـ الرسائل للمحقق الأنصاري/٤٦٥.

٢ ـ جامع الرواة ١:٩.

لأأقدر على لقائك في كلّ وقت، فعمّن آخذ معالم ديني؟ فقال «ع»: خذ عن يونس بن عبدالرحمن[١].

٣ ـ رواية علي بن المسيّب الهمداني عن الامام الرضا «ع» قال: قلت للرضا«ع» شقتي بعيدة ولست أصل إليك في كلّ وقت، فمن آخذ عنه معالم ديني؟ قال«ع»: زكريابن آدم المأمون على الدين والدنيا[٢].

٤ ـ روى الكليني عن الصادق«ع»... ينظران الى من كان منكم قدروى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوه حكماً...[٣].

أ ـ روى الطبرسي في الاحتجاج عن أبي محمدبن الحسن العسكري«ع»... فأمّا مَن كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه...[٤]

ب ـ الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت«ع» في أصول الفقه.

روايات الأدلة النقلية:

ورأيت اتماماً للفائدة أن أعقد في هذا الكتاب مبحثاً خاصاً بماأُثِرَعن أهل البيت«ع» في أصول الفقه لكي يكون ذلك بين يدي الباحثين الأجلاء والقرّاء الكرام دليلاً على تقدّم الشيعة في علم الأصول.

حتى انَّ أصحابنا دوّنوا ماأثرعن أئمة أهل البيت في كتب خاصة لهم: كالشيخ محمدبن الحسن بن الحرّ العاملي مؤلّف «وسائل الشيعة» فانّه ألّف كتاباً في القواعد الكلية المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أصولية كانت أو فقهية سماه «الفصول المهمة في أصول الأئمة». وكذلك السيد هاشم بن زين العابدين الخوانساري

١ ـ رجال النجاشي/٣١١، مع العلم بأن يونس مع المصنفين في أصول الفقه راجع تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام/٣١٠-٣١١.
٢ ـ جامع الرواة ١: ٣٣٠.
٣ـ أصول الكافي ١: ٦٧ح١.
٤ ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٥-٣٨٦.

الاصفهاني كتب «أصول آل الرسول الأصلية».

وجمع المحقّق الفيض الكاشي محمد محسن كتاباً سمّاه «الأصول الأصلية» المستفادة من الكتاب والسنة.

وفي هذا المجال يقول الشهيد الصدر:

ولانشك في انَّ بذرة التفكير الأصولي وجدت لدى فقهاء أصحاب الأئمة «ع» منذ أيّام الصادقين عليهما السلام على مستوى تفكيرهم الفقهي، ومن الشواهد التاريخية على ذلك ماترويه كتب الحديث من أسئلة ترتبط بجملة من العناصر المشتركة في عملية الاستنباط وجّهها عدد من الرواة الى الامام الصادق «ع» وغيره من الأئمة «ع» وتلقوا جوابها منهم.

فانَّ تلك الأسئلة تكشف عن وجود بذرة التفكير الأصولي عندهم واتجاههم الى وضع القواعد العامة، وتحديد العناصر المشتركة، و يعزز ذلك انَّ بعض أصحاب الأئمة «ع» ألّفوا رسائل في بعض المسائل الأصولية، كهشام بن الحكم من أصحاب الامام الصادق «ع» الذي ألّف رسالة في الألفاظ [١].

الاجتهاد:

روى الكليني... عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبدالله «ع» عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دَين أو ميراث...

قال «ع»: ينظران الى مَن كان منكم قدروى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوه حكماً... [٢]

التقليد وشرائط من يصحّ تقليده:

في احتجاج الطبرسي عن أبو محمد بن علي العسكري «ع» - في قوله تعالى: «ومنهم أمّيّون لايعلمون الكتاب...» -:

١ - المعالم الجديدة /٤٧.

٢ - أصول الكافي ١:٦٧ ح ١٠.

فامّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه... [١]

وجوب الردّ الى الكتاب والسنة وأخذ الأحكام منهما، وحجّيّة الظواهر والعموم:

مارواه الكليني... عن أبي جعفر((ع)): انَّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً يحتاج إليه الأمّة إلاَّ أنزله في كتابه و بيّنه لرسوله((ص))... [٢]

وقول الصادق((ع)): مامِن أمر يختلف فيه إثنان إلاَّ وله أصل في كتاب الله عزّوجلَّ ولكن لا تبلغه عقول الرجال[٣].

وقول الكاظم((ع)): كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه((ص)) [٤]

وروى الكليني... قال: سمعت أبا عبدالله((ع)) يقول: كلّ شيء مردود الى الكتاب والسنة... [٥]

وفي حديث آخر عنه((ع)): من خالف كتاب الله وسنة محمد((ص)) فقدكفر [٦]

وروى الكليني... عن أبي جعفر الباقر((ع)) قال: كلّ مَن تعدّى السنّة ردّ الى السنّة [٧]

وروى الطوسي... قال: قلت لأبي عبدالله((ع)) عثرت فانقطع ظفري فجعلت على اصبعي مرارة فكيف أصنع بالوضوء؟

فقال: يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله، قال الله تعالى: ((ماجعل عليكم في الدين من حرج)) [٨]

فانَّ استدلال الامام بالآية تدلّ على حجيّة ظواهر الكتاب والعمل بعموم

١ ـ أعيان الشيعة ١:٣٨٥-٣٨٦.
٢ ـ أصول الكافي ١:٥٩ ح٢.
٣ ـ أصول الكافي ١:٦٠ ح٦.
٤ ـ أصول الكافي ١:٦٢ ح١٠.
٥ ـ أصول الكافي ١:٦٩ ح٣.
٦ ـ أصول الكافي ١:٧٠ ح٦.
٧. أصول الكافي ١:٧١ ح١١.
٨. أعيان الشيعة ١:٣٨٧.

الآيات.

جواز العمل بالعام والمطلق ونحوهما، وجواز التفريع على الأصول الكليّة

روى ابن ادريس... عن أبي عبدالله«ع» قال: إنّما علينا أن نلقي إليكم الأصول وعليكم التفريع[١]

وروي أيضاً من كتاب أحمدبن محمدبن أبي نصر، عن الرضا«ع» قال: علينا القاء الأصول وعليكم التفريع[٢].

أصل البرائة:

ذكر الصدوق عن الصادق«ع»: كلّ شيء مطلق حتى يرد فيه نهي[٣]

وروي في الخصال... عن أبي عبدالله«ع» قال: قال النبي«ص»: وضع عن أمّتي ستة أشياء وعدَّ منها: مالايعلمون[٤]

وروى الكليني في الكافي... عن أبي عبدالله«ع» قال: ماحجب الله علمه عن العباد فهو موضوع عنهم[٥]

وعن أبيه... قال: قال أبوعبدالله«ع»: من عمل بماعلم كفي مالم يعلم[٦]

وروى الطوسي... عن أبي عبدالله«ع» في حديث من أحرم في قيصه قال: أيّ رجل ركب أمراً بجهالة فلاشيء عليه[٧]

وروى الكليني... عن أبي عبدالله«ع» قال: انَّ الله احتجّ على الناس بماآتاهم وعرّفهم[٨]

١ ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٧.
٢ ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٧.
٣ ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٨.
٤ ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٨.
٥ ـ أصول الكافي ١: ١٦٤ ح٣.
٦ ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٨.
٧. أعيان الشيعة ١: ٣٨٨.
٨. أصول الكافي ١: ١٦٢ ح١.

وعن محمدبن يحيى... عن أبي عبدالله«ع» قال: ليس لله على خلقه أن يعرفوا وللخلق على الله أن يعرّفهم ولله على الخلق إذا عرّفهم أن يقبلوا...[١]

أصالة الحلّ في المشتبه مع عدم العلم:

روى الصدوق والطوسي... عن أبي عبدالله«ع» قال: كلّ شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال حتى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه[٢]

وعن أحمدبن محمد الكوفي... عن أبي عبدالله«ع» في «الجبن» قال: كلّ شيء لك حلال حتى يجيئك شاهدان انّ فيه ميتة[٣]

وعن علي بن ابراهيم... عن مسعدةبن صدقة، عن أبي عبدالله«ع» قال: سمعته يقول: كلّ شيء هو لك حلال حتى تعلم الحرام بعينه فتدعه من قبل نفسك وذلك مثل الثوب يكون عليك قداشتريته وهو سرقة، أو المملوك يكون عندك ولعلّه حرّ قدباع نفسه، أو خدع فبيع قهراً، أو امرأة تحتك وهي أختك، ورضيعتك، والأشياء كلّها على هذا حتى يستبين لك غير ذلك، أو تقوم به البيّنة[٤]

ومارواه أحمدبن أبي عبدالله البرقي في «المحاسن»... قال سألت أبا جعفر«ع» عن «الجبن»؟ وقلت: أخبرني رُؤى انّه يجعل فيه الميتة؟ فقال: أمن أجل واحد يجعل فيه الميتة حرّم في جميع الأرضين؟ إذا علمت انّه ميتة فلا تأكله، وإن لم تعلم فاشتر وبع...[٥]

وعن اليقطيني... قال كنت عند أبي حعفر«ع» فسأله رجل عن الجبن، فقال أبو جعفر«ع»: سأخبرك عن الجبن وغيره، كلّ شيء فيه الحلال والحرام فهو لك حلال حتى تعرف الحرام بعينه فتدعه[٦]

١ـ أصول الكافي ١: ١٦٤ ح١.
٢ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٩.
٣ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٩..
٤ـ أعيان الشيعة ١: ٣٨٩.
٥ـ أعيان الشيعة ١: ٨٩.
٦ـ أعيان الشيعة ١: ١٩٠

حجيّة خبر الواحد الثقة:

روى الكليني... عن أبي الحسن«ع» قال سألته وقلت: من أعامل؟ وعمّن آخذ؟ وقول من أقبل؟

فقال: العمري ثقتي فماأدّى إليك عنّي، فعنّي يؤدّي، وماقال لك عنّي، فعنّي يقول...[1]

و بالاسناد، عن أحمدبن اسحق، انّه سأل أبا محمد«ع» عن مثل ذلك

فقال: العمري وابنه ثقتان فماأدّيا إليك عنّي، فعنّي يؤدّيان، وماقالا لك فعنّي يقولان...[2]

وروى الكشّي في كتاب الرجال... عن الرضا«ع» قال: قلت لاأكاد أصل إليك أسألك عمّاأحتاج إليه من معالم ديني، أفيونس بن عبدالرحمن ثقة آخذ عنه ماأحتاج إليه من معالم ديني؟ قال: نعم...[3]

جواز نقل الحديث بالمعنى:

روى الكليني... قال: قلت لأبي عبدالله«ع» أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص؟ قال: إن كنت تريد معانيه فلابأس[4]

عدم جواز التكليف بمالايطاق:

روى الكليني... عن أبي عبدالله«ع» قال: إنَّ الله أكرم من أن يكلّف الناس مالايطيقون...[5]

١ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٠.
٢ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٠.
٣ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٠.
٤ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩١.
٥ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩١.

و بالاسناد عن علي بن الحكم... عن أبي عبدالله«ع» في حديث قال: وماأمروا إلاَّ بدون سعتهم، وكلّ شيء أمر الناس به فهم يسعون له، وكلّ شيء لايسعون له فهو موضوع عنهم [١]

وروى الطوسي... قال سألته عن المريض لايستطيع الجلوس...؟ قال: ولن يكلّفه الله مالاطاقة له به... [٢]

وجوب الاجتناب عن الشبهة المحصورة:

روى الكليني... قال: سألت أبا عبدالله«ع» عن رجل معه إناآن فيهما ماء وقع في أحدهما قذر لايدري أيّهما هو؟ وليس يقدر على ماء غيره؟ قال: يهريقهما جميعاً و يتيمّم... [٣]

الاستصحاب:

روى الصدوق... انّه سأل أبا عبدالله«ع» عن رجل يجد في إنائه فأرة وقدتوضأ من ذلك الإناء مراراً، أو اغتسل منه، أو غسل ثيابه؟

فقال: إن كان رآها في الإناء فعليه أن يغسل ثيابه، و يغسل كلّ ماأصابه ذلك الماء، و يعيد الوضوء والصلاة، وإن كان إنّما رآها بعدما فرغ من ذلك وفعله فلايمس من الماء شيئاً، وليس عليه شيء، لأنّه لايعلم متى سقطت فيه، ثمّ قال: لعلّه ان يكون إنّما سقطت فيه تلك الساعة التي رآها [٤]

وروى الطوسي... عن أبي عبدالله«ع» قال: الماء كلّه طاهر حتى يعلم انّه

١ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩١.
٢ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩١.
٣ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩١.
٤ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٢.

قذر... [١]

وروى الطوسي أيضاً... عن زرارة قال: قلت له الرجل ينام وهو على وضوء يوجب الخفقة والخفقان عليه الوضوء؟ قال يازرارة: قدتنام العين ولاينام القلب والأذن، وإذا نامت العين والأذن والقلب وجب الوضوء

قلت: فان حرك الى جنبه شيء ولم يعلم به؟ قال: لاحتى يستيقن انَّه قدنام حتى يجيء من ذلك أمربين، وإلاَّ فانَّه على يقين من وضوئه، ولاينقض اليقين أبداً بالشك، وإنَّما ينقضه بيقين آخر [٢]

وروى الصدوق... انَّه قال للصادق «ع»: أجد الريح في بطني حتى أظنَّ انَّها قدخرجت؟ فقال: ليس عليك وضوء حتى تسمع الصوت، أو تجد الريح [٣]

وروى الكليني... قال: قال لي أبو عبدالله «ع»: إذا استيقنت انَّك قدأحدثت فتوضأ، وإيّاك ان تحدث وضوءاً أبداً حتى تستيقن انَّك قدأحدثت [٤]

وروى الطوسي... عن زرارة قال: قلت له أصاب ثوبي دم رعاف أو غيره، أو شيء من مني... فان ظننت انَّه قدأصابه ولم أتيقن ذلك فنظرت فلم أرشيئاً، ثمَّ صليت فرأيت فيه؟ قال: تغسله ولا تعيد الصلاة.

قلت: لم ذلك؟ قال: لأنَّك كنت على يقين من طهارتك، ثمَّ شككت، فليس ينبغي لك أن تنقض اليقين بالشّك أبداً، قلت: فهل عليَّ أن شككت في انه أصابه شيء أن أنظر فيه؟ قال: لا... [٥]

وباسناده عن محمدبن أحمد... عن أبي عبدالله «ع» في حديث قال: كلّ شيء نظيف حتى تعلم انَّه قذر، فإذا علمت، فقدقذر، ومالم تعلم فليس عليك شيء... [٦]

١ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٢.
٢ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٢-٣٩٣ ورسائل المحقق الأنصاري/٣٤١.
٣ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٣
٤ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٣.
٥ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٣.
٦ ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٣.

عدم جواز العمل بالقياس والرأي:

روى الكليني... قال سمعت أبا عبدالله«ع» يقول: انَّ أصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس، فلم تزدهم المقائيس من الحقّ إلاَّ بعداً، وانَّ دين الله لايصاب بالمقائيس [١]

وروى الكليني أيضاً... عن أبي الحسن موسى«ع» في حديث: مالكم وللقياس؟ إنَّما هلك من هلك من قبلكم بالقياس، ثمَّ قال: إذا جاءكم ماتعلمون فقولوا به، وإذا جاءكم مالا تعلمون فها ـوأهوى بيده الى فيهـ [٢]

(مناظرة الصادق«ع» مع أبي حنيفة في القياس)

روى الصدوق في علل الشرائع... قال دخلت أنا وأبوحنيفة على أبي عبدالله«ع» فقال: لأبي حنيفة أيّهما أعظم قتل النفس أو الزنا؟

فقال: قتل النفس.

قال: فانّ الله قدقبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلاَّ أربعة.

ثمَّ قال: أيّهما أعظم الصلاة أو الصوم؟

قال: الصلاة.

قال: فابال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فكيف يقوم لك القياس، فاتق الله ولا تقس.[٣]

التعادل والترجيح بين الأخبار المتعارضة:

مرفوعة زرارة التي ذكرناها بعنوان الدليل الخامس.

وجاء فيها الترجيح بالأعدلية، والأفقهية، والأشهرية، والأوثقية، وماخالف العامة..

١ـ أصول الكافي ١:٥٦ ح٧.
٢ـ أصول الكافي ١:٥٧ ح١٣.
٣ـ أعيان الشيعة ١:٣٩٤.

كلام السيد الصدر:

بعدما اثبتنابالأدلة السالفة انَّ الاجتهاد كان موجوداً في عصر المعصومين «ع» ولم يكن أمراً حادثاً بعد ذلك، نحب أن نشير الى الزعم القائل بأنَّ الشيعة متأخرين عن غيرهم في علم الأصول، وانَّ العامة سبقتهم بذلك، ولانريد أن نطيل في الردّ على هذا الزعم، بل نكتفي بما أورده سماحة العلامة أبو محمد السيد حسن الصدر حيث يقول: أوّل من أسّس أصول الفقه هو:

الامام أبو جعفر الباقر للعلوم عليه السلام، ثمَّ بعده ابنه الامام أبو عبدالله الصادق، وقدأمليا على أصحابهما قواعده، وجمعوا من ذلك مسائل رتّبها المتأخرون على ترتيب المصنفين فيه بروايات مسندة إليهما، متصلة الاسناد، وكتب مسائل الفقه[1] المروية عنهما موجودة بأيدينا الى هذا الوقت بحمد الله.

منها: كتاب «أصول آل الرسول» مرتّب على ترتيب مباحث أصول الفقه الدائر بين المتأخرين، جمعه السيد الشريف الموسوي هاشم بن زين العابدين الخوانساري الاصفهاني (رضي الله عنه) نحو عشرون ألف بيت كتابة[2]

ومنها: الأصول الأصلية للسيد العلامة المحدّث الشبري عبدالله بن محمد الرضا الحسيني الغروي، وهذا الكتاب من أحسن ماروي فيه أصول الفقه، يبلغ خمسة عشر ألف بيت[3]

١ ـ الظاهر انّه أراد مسائل أصول الفقه فعليه يكون هنا سقط.

٢ ـ «أصول آل الرسول» «ص» في استخراج أبواب الفقه من روايات أهل البيت «ع» لشيخ مشايخنا السيد ميرزا محمد هاشم بن ميرزا زين العابدين الموسوي الخوانساري المتوفى سنة (١٣١٨)، جمع فيه الأحاديث المأثورة عنهم «ع» في قواعد الفقه والأحكام، ورتّبها على مباحث أصول الفقه، قال في اجازته لشيخنا الشهير بشيخ الشريعة: قدجمعت فيه أزيد من أربعة آلاف حديث ممّا يتعلّق بأصول الفقه مع بيان وجه دلالتها على المقصود. الذريعة ٢:١٧٧. وكانت ولادة المؤلّف (١٢٣٥) كما جاء في «أحسن الوديعة» ١:١٤١.

٣ ـ جمع فيه المهمّات من المسائل الأصولية المنصوصة في الآيات والروايات، فمن الآيات مئة وأربع وثلاثون آية، ومن الروايات ألف وتسع مئة وثلاثة أحاديث، وتوفي المؤلف عام (١٢٤٢) الذريعة ٢:١٧٨.

منها: الفصول المهمة في أصول الأئمة للشيخ المحدث محمدبن الحسن بن علي بن الحر المشغري صاحب كتاب وسائل الشيعة،[١]

فقول الجلال السيوطي في كتاب الأوائل: أول من صنّف في أصول الفقه الشافعي بالإجماع في غير محلّه ان أراد التأسيس والابتكار، وان أراد المعنى المتعارف من التصنيف فقدتقدّم على الامام الشافعي في التأليف فيه هشام بن الحكم المتكلم المعروف من أصحاب أبي عبدالله الصادق كما ستعرف في الصحيفة الثانية.

أول من صنّف فيه:

الصحيفة الثانية في أول من صنّف في مسائل علم أصول الفقه فاعلم: انَّ أوّل من صنّف فيه:

هشام بن الحكم

هشام بن الحكم شيخ المتكلمين في الأصوليين الامامية، صنّف كتاب «الألفاظ ومباحثها» وهو أهم مباحث هذا العلم[٢].

ثمَّ يونس بن عبدالرحمن مولى آل يقطين صنّف كتاب «اختلاف الحديث ومسائله» وهو مبحث تعارض الحديثين، ومسائل التعادل والترجيح في الحديثين المتعارضين، رواه عن الامام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام[٣] ذكرهما أبو العبّاس «النجاشي» في كتاب «الرجال» والامام «الشافعي» متأخّر عنهما.

١ ـ يشتمل على القواعد الكلية المنصوصة في الأصولين، الذريعة ١٦:٢٤٥.

٢ـ أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي الشيباني المتوفى سنة (١٩٩). «الذريعة» ٢:٢٩١. قال النجاشي: وروى هشام عن أبي عبدالله وأبي الحسن موسى «ع» وكان ثقة في الروايات حسن التحقيق بهذا الأمر. الرجال/٣٠٥.

٣ـ يونس بن عبدالرحمن... كان وجهاً في أصحابنا متقدماً عظيم المنزلة ولد في أيّام هشام بن عبدالملك، ورأى جعفر بن محمد [illegible] بين الصفا والمروة ولم يرو عنه، وروى عن أبي الحسن موسى والرضا عليهما السلام، وكان الرضا «ع» يشير اليه في العلم والفتيا. رجال النجاشي/٣١١.

مشاهير أئمة علم أصول الفقه:

في مشاهير أئمة علم أصول الفقه الأوائل نذكرهم على طريق الفهرست والاشارة لأنَّ تراجمهم امّا انّها تقدّمت في الفصول المتقدمة، أو تأتي في الفصول الآتية، لأنا نذكر ترجمة الرجل في أوقع المواضع به، وأليق الأماكن المناسبة لذكره إذا كان ممّن يدخل في طبقات عديدة.

أبو سهل النوبختي:

منهم، أبو سهل النوبختي اسماعيل بن علي بن اسحاق بن أبي سهل الفضل بن نوبخت قال ابن النديم: من كبار الشيعة.

وقال النجاشي: كان شيخ المتكلمين من أصحابنا وذكر مصنفاته وعدّ منها: كتاب الخصوص والعموم[1] وهو من أهم مباحث علم أصول الفقه[2] ذكره ابن النديم في الفهرست وعدّ من مصنفاته كتاب ابطال القياس، وكتاب نقض اجتهاد الرأي على ابن الراوندي[3] وهما أيضاً مباحث علم أصول الفقه كما لايخفى على الخبير.

وأبو سهل ممّن لقى الامام أبا محمد الحسن العسكري عليه السلام وحضره عند وفاته، وكانت وفاة الامام سنة ستّين ومأتين فأبو سهل حينئذ من أهل القرن الثالث رضي الله تعالى عنه.

١ ـ قال المحقق أغابزرك الطهراني: ولد (٢٢٧) وتوفي (٣١١) الذريعة ٧:١٧٥.

٢ ـ الذريعة ١:٦٩.

٣ ـ الذريعة ٢٤:٢٨٥.

الحسن بن موسى النوبختي:

ومنهم: ابن أخته الحسن بن موسى النوبختي أبو محمد شيخ المتكلمين في الشيعة في عصره... له من الكتب في علم أصول الفقه كتاب «خبر الواحد والعمل به» وكتاب «الخصوص والعموم».

قال النجاشي: شيخنا المتكلم المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلثمائة و بعدهما.

وذكره ابن النديم في الفهرست ونصّ على تشيّعه وتشيّع كلّ آل نو بخت[1].

١ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام / ٣١٠-٣١١.

الفصل الثالث



في الزعامة الدينية والفتوىٰ

- الزعامة الدينية للفقهاء
- عملية الاستنباط عند الأصوليين والأخباريين
- الفتوىٰ في الصدر الأول

الزعامة الدينية للفقهاء:

الظاهر انَّ الزعامة الدينية للشيعة قدانتقلت الى الفقهاء بعد عصر الغيبة، اذ كانت قبل ذلك للمعصومين عليهم السلام، و بعد الغيبة الصغرى للحجة«ع» كانت ..غرائه المنتخبين من قبله.

ثمّ بعد ذلك انتقلت الزعامة الدينية للطائفة الجعفرية الى الفقهاء، وكان الذي نقلها هو الامام الثاني عشر«ع» حيث قال:

واٴمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا فانّهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله[1].

فصار الفقهاء المرجع الوحيد في عصر الغيبة لحلّ مشاكل الطائفة في أمورهم.

وكان المرجع بعد الغيبة الحسن بن علي النعماني، ثمّ من بعده محمدبن أحمدبن جنيد الاسكافي المتوفى سنة (٣٨١) صاحب كتاب تهذيب الشيعة، وكتاب الأحمدي.

١. وسائل الشيعة ١٠١:١٨.

ثمَّ من بعده الشيخ المفيد المتوفى سنة (٤١٣) وكان كتابه المقنعة مداراً للدراسة بين الفقهاء، وهو الذي علّق عليه الشيخ الطوسي، وسمّى تعليقه عليه بـ«التهذيب».

ثمَّ من بعده عَلَم الهدى علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة (٤٣٦).

ثمَّ من بعده الشيخ أبوجعفر محمدبن الحسن الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠).

وهكذا تعاقبوا مرجعاً بعد مرجع وزعيماً بعد زعيم الى يومنا هذا تغمَّد الله الماضين منهم وأدام الله الباقين.

عملية الاستنباط:

ذكرنا في الفصل السابق انَّ عملية الاستنباط ليست وليدة عصر مابعد الأئمة، وإنَّما كانت معاصرة لهم«ع» غير انَّ الحاجة إليها في عصر الأئمة لم تكن بالحجم الضخم الذي، أصبحت عليه في عصر الغيبة، حيث انَّ الأحكام الشرعية أصبحت جميعاً منوطة بالعلماء باعتبارهم قادرين على استنباط الأحكام الشرعية، ولذا فقداشتدت الحاجة الى عملية الاستنباط بشكل أكبر في عصر الغيبة، وقد كان أصحابنا يتوصلون الى الأحكام الشرعية بأحد طريقين، وقدآثرنا أن نفرد هذين الطريقين في فصل خاص انسجاماً مع منهجنا الذي سلكناه في هذا البحث.

طرق استنباط الحكم الشرعي:

أولاً طريقة الاستنباط عند أصحابنا الأصوليين، و يتمثّل هذا الطريق برجوعهم في معرفة الأحكام الشرعية الى الأدلة الأربعة: الكتاب والسنة والاجماع والعقل، وغيرها ممَّايقع في طريق استنباط الحكم الشرعي. وهذه المصادر تبتني عليها معرفة الحكم الشرعي، وعليها مدار الاستنباط والاجتهاد.

فطريقة أكثرية فقهاء الشيعة في استنباطهم للحكم الشرعي هي عبارة عن الرجوع للكتاب المجيد، وعند عدم معرفة الحكم الشرعي منه يرجعون للسنة المروية عن الرسول «ص» أو عن أئمة أهل البيت «ع» بسند معتبر، ورجوعهم الى الكتاب أو

السنة إنّما هو للعمل بنصوصها، أو ظواهرها ولا يأخذون بالسنة لوخالفت الكتاب، كما لايأخذون بسنة أئمة أهل البيت لوخالفت سنة الرسول «ع» الثابتة عندهم بطريق معتبر، وعند فقد ذلك كلّه يرجعون الى العقل الحاكم بالبرائة أو الاحتياط أو التخيير أو الاستصحاب عند من اعتبرها من باب العقل وإلاّ فمن اعتبرها من باب قيام الكتاب والسنة عليها فيكون رجوعه إليها من باب الرجوع الى الكتاب والسنة.

وأمّا الرجوع الى الاجماع فان كان من باب حصول الحدس برأي المعصوم «ع» من الاتفاق فهو من باب الرجوع للعقل، وإن كان من باب احراز دخول المعصوم في جملة المجمعين فهو من باب الرجوع الى السنة.

وتفصيل ذلك كلّه مسطور في كتب أصول الفقه.

والحاصل انّه لمّا وقعت الغيبة الكبرى للحجة المهدي «ع» سنة (٣٢٩) بوفاة علي بن محمد السري السفير الرابع للامام المهدي «ع» انحصر تحصيل الحكم الشرعي عند الشيعة بطريق فتوى فقهائهم وكان ذلك كما عرفت بأمر من الحجة «ع» على يد السفير الرابع عندما اقتربت وفاة الأخير، فرجعوا بعد ذلك الى فقهاء أهل البيت والطائفة وعند ذلك احتاج الفقهاء الى اعمال اجتهادهم في معرفة أحكام المسائل التي تعرض عليهم بردّها لأصولها الموجودة في الكتاب والسنة وماتقتضيه القواعد الشرعية والموازين العقلية، وتشخيص ماقام اجماع الشيعة عليه الى غير ذلك من عملية الاستنباط ومايتطلبه الاجتهاد.

فأوّل من انبرى لهذا العمل هو الحسن بن علي العمّاني شيخ فقهاء الشيعة والذي استجازه صاحب كامل الزيارة سنة (٣٢٩) وهي السنة التي وقعت فيها الغيبة الكبرى، وقدصنّف كتاب «المتمسك بحبل آل الرسول» وعاصر الكليني محمدبن يعقوب، وعلي بن بابو يه القمي.

ومن هنا تطوّرت عملية الاستنباط والاجتهاد من الأدلة والمصادر واتّسعت وقدرافق هذا التطوّر تطوّر آخر ذلك هو التطوّر الذي حصل في «علم أصول الفقه» حيث وقعت الدراسة فيه عن كيفية تحصيل الحكم الشرعي عن الأدلة واستنباطها.

بعدما كان الفقهاء في الصدر الأول يفتون في المسألة بلفظ الحديث بحذف اسناده

دون أن يذكروها بألفاظهم وآرائهم، وفيما سبق عن ذلك كانوا يفتون في المسألة بذكر الرواية باسنادها.

وأمّا في العصر الحاضر فتذكر الفتوى بلفظ رأي المجتهد.

ونذكر لك موجزاً من عملية الافتاء لأصحابنا في الصدر الأوّل فنقول:

الفتوى في الصدر الأول:

انّ عملية الفتوى بالحكم الشرعي قد تطوّرت عند الطائفة الجعفرية، فقد كان أصحاب الأئمة ورواة الحديث عنهم يفتون الناس بنقل نصّ الحديث لمن يستفتيهم، مثل زرارة بن أعين، و يونس بن عبدالرحمن، ومحمد بن مسلم، وأبي بصير، وابان بن تغلب، وجميل بن الدراج، ومحمد بن أبي عمير، والحسن بن علي بن فضال، وصفوان بن يحيىٰ وغيرهم من أصحابنا الامامية. ثمّ جاء دور تطوّر الفتوى، فأخذوا يفتون بنص الرواية من دون ذكر السند، ثمّ تطوّرت فأخذوا يفتون بما أدّى إليه اجتهادهم في حكم الواقعة الشرعية، بتعابيرهم الخاصة.

ثانياً طريقة الاستنباط عند أصحابنا الأخباريين:

بعدما عرفت كيفية عملية الاستنباط عند الأصوليين نعرض فيما يلي طريقة أصحابنا «الأخباريين» فنقول:

انّ هذه الجماعة لعدم عملهم بالأدلة الأربعة وانحصار عملهم بأصل واحد وهو الاخبار يسمون بـ«الاخباريين» و بعض منهم جوّز العمل بالكتاب أيضاً.

فهذه الجماعة لم تعمل بالأصول الأربعة بأجمعها، وطريقتهم في معرفة الأحكام، وعملية الاستنباط هي الرجوع الى الأخبار المروية في الكتب الأربعة، ولم يرجعوا الى الاجماع والعقل، بل وعند الكثير منهم عدم حجية الكتاب لاختصاص فهمه بمن نزل عليهم، وهم الرسول والأئمة «ع» فالمدار في العمل هي الأخبار المودعة في الكتب الأربعة: الكافي، ومَن لايحضره الفقيه، والتهذيب والاستبصار، وغيرها من الكتب المعتبرة، باعتبار انّ البيان للأحكام قد كمل بواسطة تلك الروايات، ولذا غاب الامام

الثاني عشر«ع» آخذين بظواهرها من دون فرق بين الصحيح منها و بين الضعيف، و بين الشاذ الذي لم يعمل به الأصحاب، و بين المشهور العمل به، و بين المرسل و بين المسند.

ومنعوا دراسة علم أصول الفقه باعتبار انّه طريق للاجتهاد، كما انّهم منعوا الاجتهاد وحرّموا العمل بالظنّ الحاصل بواسطة الاجتهاد.

وجعلوا الأصل في كلّ مايحتمل الوجوب هو الوجوب، وذلك للاحتياط في الشبهات وتمسّكوا بـ«أخيك دينك فاحتط لدينك» كما انّهم جعلوا الأصل الحرمة في كلّ مايحتمل الحرمة.

وتسمّى هذه الفرقة من الشيعة بـ«المحدثين والأخباريين».

والمؤسس لهذه المدرسة هو المرزا محمد أمين الاسترابادي المتوفى سنة (١٠٢٣) ونقح هذه الطريقة في كتابه «الفوائد المدنية».

قال السيد الشهيد محمد باقر الصدر في البحث عن الفكر الأخباري:

و يؤكد الاسترابادي في هذا الكتاب انّ العلوم البشرية على قسمين:

أحدهما العلم الذي يستمدّ قضاياه من الحس، والآخر العلم الذي لايقوم البحث فيه على أساس الحسّ ولايمكن اثبات نتائجه بالدليل الحسّي:

و يرى المحدث الاسترابادي انّ القسم الأول الرياضيات التي تستمدّ خيوطها الأساسية ـ في زعمه ـ من الحسّ.

وأمّا القسم الثاني فيمثل له ببحوث ماوراء الطبيعة التي تدرس قضايا بعيدة عن متناول الحسّ وحدوده، من قبيل تجرّد الروح، و بقاء النفس بعد البدن، وحدوث العالم.

وفي عقيدة المحدث الاسترابادي انّ القسم الأول من العلوم البشرية هو وحده الجدير بالثقة لأنّه يعتمد على الحسّ، فالرياضيات مثلاً تعتمد في النهاية على قضايا في متناول الحسّ، نظير ان (٢+٢=٤).

وأمّا القسم الثاني فلاقيمة له، ولايمكن الوثوق بالعقل في النتائج التي يصل إليها في هذا القسم لانقطاع صلته بالحسّ.

وهكـذا يخرج الاستـرابـادي من تحليله للمعرفة بجعل الحسّ معياراً أساسياً لتميز قيمة المعرفة ومدى امكان الوثوق بها.

ونحـن في هـذا الـضوء نلاحظ بوضوح اتجاهاً حسّياً في أفكار المحدث الاسترابادي يميـل بـه الى المـذهـب الحـسّي في نـظرية المعرفة القائل بأنَّ الحسّ هو أساس المعرفة، ولأجـل ذلـك يمكـنـنـا أن نـعـتبر الحركة الأخبارية في الفكر العلمي الاسلامي أحد المسارب منها الاتجاه الحسّي الى تراثنا الفكري.

وقد سبقت الأخبارية بماتمثل من اتجاه حسّي التيار الفلسفي الحسّي الذي نشأ في الـفلسفة الأوربية على يد «جون لوك» المتوفى سنة (١٧٠٤)م و«دانيد هيوم» المتوفىٰ سنة (١٧٧٦)م، فقدكانت وفاة الاسترابادي قبل وفاة «جون لوك» بمئة سنة تقريباً، ونـسـتـطـيع أن نعتبره معاصراً لـ«فرنسيس بيكون» المتوفىٰ سنة (١٦٢٦)م الذي مهّد للتيار الحسّي في الفلسفة الاوربية.

وعلى أيّ حـال فـهـنـاك الـتـقـاء فـكـري ملحوظ بين الحركة الفكرية الأخبارية والمـذاهـب الحـسيّة والتجريبية في الفلسفة الأوروبية، فقدشنَّت جميعاً حملة كبيرة ضدّ الـعـقـل، وألـغـت قـيـمـة أحـكامه إذا لم يستمدّها من الحسّ. وقدأدّت حركة المحدث الاسـتـرابـادي ضـدّ المـعـرفة العقلية المنفصلة عن الحس الى نفس النتائج التي سجّلتها الـفلسفات الحسّية في تاريخ الفكر الأوروبي، إذ وجدت نفسها في نهاية الشوط مدعوة بحكـم اتجاهـها الخاطىء الى معارضة كلّ الأدلة العقلية التي يستدلّ بها المؤمنون على وجود الله سبحانه، لأنَّها تندرج في نطاق المعرفة العقلية المنفصلة عن الحسّ.

فـنـحـن نجـد مـثـلاً محدثاً ـ كالسيد نعمة الله الجزائري ـ يطعن في تلك الأدلة بكلّ صـراحة وفقاً لاتجاهه الأخباري، كما نقل عنه الفقيه الشيخ يوسف البحراني في كتابه الـدرر الـنجفيّة، ولكن ذلك لم يؤد بالتفكير الأخباري الى الإلحاد كما أدّى بالفلسفات الحـسـيـة الأوروبـيـة، لاختلافهما في الظروف التي ساعدت على نشوء كلّ منهما، فانَّ الاتجـاهـات الحـسيّـة والـتـجـريبية في نظرية المعرفة قدتكوّنت في فجر العصر العلمي الحـديـث لخـدمـة الـتجربة وابراز أهميتها، فكان لديها الاستعداد لنفي كلّ معرفة عقلية منفصلة عن الحسّ.

وأمّا الحركة الأخبارية فكانت ذات دوافع دينية، وقداتهمت العقل لحساب الشرع لالحساب التجربة، فلم يكن من الممكن أن تؤدّي مقاومتها للعقل الى انكار الشريعة والدين.

ولهذا كانت الحركة الأخبارية تستبطن -في رأي كثير من ناقديها- تناقضاً، لأنّها شجبت العقل من ناحية لكي تخلي ميدان التشريع والفقه للبيان الشرعي، وظلّت من ناحية أخرى متمسكة به لاثبات عقائدها الدينية، لأنّ اثبات الصانع والدين لايمكن أن يكون عن طريق البيان الشرعي بل يجب أن يكون عن طريق العقل[1].

إنّ التناقض الذي أشار اليه السيد الشهيد بقوله: «ولهذا كانت الحركة الأخبارية تستبطن -في رأي كثير من ناقديها- تناقضاً».

الظاهر ينافي قول المحدث الاسترابادي فانّه يرى انحصار الدليل في غير الضروريات في السماع عن الشريعة، فالضروريات والأحكام البديهية العقلية لاتحتاج سماعها من الشرع بل العقل الفطري والحكم الضروري بنفسه دليلاً قاطعاً وإليك نصّ عبارة الأمين الاسترابادي:

إنّ العلوم النظرية قسمان: قسم ينتهي الى مادة هي قريبة من الإحساس، ومن هذا القسم علم الهندسة والحساب، وأكثر أبواب المنطق، وهذا القسم لايقع فيه الخلاف بين العلماء والخطأ في نتائج الأفكار، والسبب في ذلك انّ الخطأ في الفكر امّا من جهة الصورة أو من جهة المادة، والخطأ من جهة الصورة لايقع من العلماء لأنّ معرفة الصورة من الأمور الواضحة عند الأذهان المستقيمة، ولأنّهم عارفون بالقواعد المنطقية، وهي عاصمة عن الخطأ من جهة الصورة، والخطأ من جهة المادة لايتصوّر في هذا العلوم، لقرب المواد فيهما الى الإحساس.

وقسم ينتهي الى مادة هي بعيدة عن الإحساس، ومن هذا القسم الحكمة الإلهية والطبيعية، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، والمسائل النظرية الفقهية، و بعض القواعد المذكورة في كتب المنطق، كقولهم: الماهية لا تتركب من أمرين متساو يين،

١ - المعالم الجديدة /٤٣-٤٥.

وقولهم: نقيضا المتساو يين متساو ين، ومن ثمَّ وقع الاختلاف والمشاجرات بين الفلاسفة في الحكمة الإلهية والطبيعية، و بين علماء الاسلام في أصول الفقه، ومسائل الفقه، وعلم الكلام، وغير ذلك من غير فيصل، والسبب في ذلك انَّ القواعد المنطقية إنَّما هي عاصمة من الخطأ من جهة الصورة لامن جهة المادة، إذ أقصىٰ مايستفاد من المنطق في باب مواد الأقيسة تقسيم المواد على وجه كلي الى الأقسام، وليست في المنطق قاعدة بها يعلم انَّ كلَّ مادة مخصوصة داخلة في أيّ قسم من الأقسام، ومن المعلوم امتناع وضع قاعدة يكفل بذلك.

ثـمَّ قال: فان قلت: لافرق في ذلك بين العقليات والشرعيات، والشاهد على ذلك مانشاهد من كثرة الاختلافات الواقعة بين أهل الشرع في أصول الدين وفي الفروع الفقهية.

قلت: إنَّما نشأ ذلك من ضمّ مقدمة عقلية باطلة بالمقدمة النقليّة الظنيّة أو القطعية، ومن الموضحات لماذكرناه من انَّه ليس في المنطق قانون يعصم عن الخطأ في مادة الفكر انَّ المشائيين ادعوا البداهة في انَّ تفرّق ماء كوز الى كوزين اعدام لشخصه واحداث لشخصين آخرين، وعلى هذه المقدمة بنوا اثبات المهية الهيولىٰ، والاشراقيين ادّعوا البداهة في انَّه ليس اعداماً للشخص الأول وإنَّما انعدمت صفة من صفاته وهو الا تصال.

وأخذ ممَّا بناه من انحصار الدليل على السماع من الشرع في غير الضروريات هذه النتيجة: إن تمسكنا بكلامهم«ع» فقدعصمنا من الخطأ، وإن تمسّكنا بغيرهم فلم نعصم عنه[١].

وللمحدِّث الجزائري (قدس سره) كلاماً مفيداً و يعطينا صورة موجزة عن الفكرة الأخبارية، والعوامل التي أدّت الى نشوئها. قال:

إنَّ أكثر أصحابنا قدتبعوا جماعة من المخالفين من أهل الرأي والقياس ومن أهل الطبيعة والفلاسفة وغيرهم من الذين اعتمدوا على العقول واستدلالتها، وطرحوا

١ ـ الرسائل للشيخ الأنصاري في بحث حجية القطع.

ماجاءت به الأنبياء (عليهم السلام) حيث لم يأت على وفق عقولهم، حتى نقل انّ عيسى «ع» لمّادعا أفلاطون الى التصديق بماجاء به أجاب بأنّ عيسى رسول الى ضعفة العقول، وأمّا أنا وأمثالي فلسنا نحتاج في المعرفة الى ارسال الأنبياء.

والحاصل انّهم ماعتمدوا في شيء من أنوارهم إلاّ على العقل، فتابعهم بعض أصحابنا وان لم يعترفوا بالمتابعة، فقالوا: انّه إذا تعارض الدليل العقلي والنقلي طرحنا النقلي أو تأولناه بمايرجع الى العقل. ومن هنا تراهم في مسائل الأصول يذهبون الى أشياء كثيرة قدقامت الدلائل النقلية على خلافها، ولوجود ماتخيّلوا انّه دليل عقلي، كقولهم بنفي الاحباط في العمل تعويلاً على ماذكروه في محلّه من مقدمات لا تفيد ظنّاً فضلاً عن العلم، وسنذكرها إن شاءالله تعالى في أنوار القيامة، مع وجود الدلائل من الكتاب والسنة على أنّ الاحباط ـ الذي هو الموازنة بين الأعمال واسقاط المتقابلين وابقاء الرجحان ـ حقّ لاشك فيه ولا ريب يعتريه.

ومثل قولهم: انّ النبي«ص» لم يحصل له الاسهاء من الله تعالى في صلاة قط، تعويلاً على ماقالوه: من أنّه لوجاز السهو عليه في الصلاة لجاز عليه في الأحكام، مع وجود الدلائل الكثيرة من الأحاديث الصحاح والحسان والموثقات والضعفاء والمجاهيل على حصول مثل هذا الاسهاء، وعلل في تلك الروايات بأنّه رحمة للأمة، لئلاّيعير الناس بعضهم بعضاً بالسهو،...

وأمّا مسائل الفروع فمدارهم على طرح الدلائل النقلية والقول بماأدّت إليه الاستحسانات العقلية، وإذا عملوا بالدلائل النقلية يذكرون أولاً الدلائل العقلية ثمّ يجعلون دليل النقل مؤيداً وعاضداً إيّاها، فيكون المدار والأصل إنّما هو العقل.

وهذا منظور فيه، لأنّا نسألهم عن معنى الدليل العقلي الذي جعلوه أصلاً في الأصولين والفروع، فنقول: انّ أردتم ماكان مقبولاً عند عامة العقول، فلايثبت ولايبقى لكم دليل عقلي، وذلك كما تحققت انّ العقول مختلفة في مراتب الادراك وليس لها حدّ تقف عنده، فمن ثمّ ترىٰ كلاً من اللاحقين يتكلّم على دلائل السابقين و ينقضه و يأتي بدلائل أخرىٰ على ماذهب إليه، ولذلك لا ترىٰ دليلاً واحداً مقبولاً عند عامة العقلاء والأفاضل وإن كان المطلوب متّحداً؛ فانّ جماعة من المحققين قداعترفوا بأنّه

لم يتم دليل من الدلائل على اثبات الواجب، وذلك انَّ الدلائل التي ذكروها مبنيّة على ابطال التسلسل ولم يتم برهان على بطلانه، فاذا لم يتم دليل على هذا المطلب الجليل الذي توجهت الى الاستدلال عليه كافة الخلائق، فكيف يتم على غيره ممّا توجهت إليه آحاد المحقّقين؟ وإن كان المراد به ماكان مقبولاً بزعم المستدل به واعتقاده، فلايجوز لنا تكفير الحكماء والزنادقة ولا تفسيق المعتزلة والأشاعرة، ولاالطعن على من يذهب الى مذهب يخالف مانحن عليه، وذلك إنَّ أهل كلّ مذهب استندوا في تقوية ذلك المذهب الى دلائل كثيرة من العقل، وكانت مقبولة في عقولهم معلومة لهم، ولم يعارضها سوى دلائل العقل لأهل القول الآخر أو دلائل النقل، وكلاهما لايصلح للمعارضة لماقلتم، لأنَّ دليل النقل يجب تأويله، ودليل العقل لهذا الشخص لايكون حجّة على غيره، لأنَّ عنده مثله ويجب عليه العمل بذلك، مع انَّ الأصحاب (رضوان الله عليهم) ذهبوا الى تكفير الفلاسفة ومن يحذو حذوهم وتفسيق أكثر طوائف المسلمين، وماذاك إلاَّ لأنَّهم لم يقبلوا منهم تلك الدلائل ولم يعدوها من دلائل العقل[1].

أشار هذا المحدث الى العوامل التي أدّت الى حدوث الفكرة الاخبارية وهي كما يلي:

١ ـ متابعة أكثر علماء الشيعة لأهل الرأي والقياس وغيرهم من الذين اعتمدوا على العقول واستدلالاتها.

٢ ـ لازم هذا الاعتماد طرح ماجاءت به الشريعة حيث لم يأت على وفق عقولهم، وتأويله بمايرجع الى العقل.

٣ ـ انَّ مدار علمائنا في البحث كان على الدلائل العقلية، ويجعلون دليل النقل مؤيداً وعاضداً لدليل العقل. وصرَّح المحدّث المحقق الشيخ يوسف البحراني بحجية العقل الفطري الصحيح وحكم بمطابقته للشرع ومطابقة الشرع له، قال بعد ذكر كلام المحدّث الجزائري:

فان قلت: فعلى ماذكر من عدم الاعتماد على الدليل العقلي يلزم أن لايكون

١ ـ الأنوار النعمانية ٣: ١٢٩ـ١٣٢.

العقل معتبراً بوجه من الوجوه، مع انّه قداستفاضت الآيات القرآنية والأخبار المعصومية بالاعتماد على العقل والعمل على مايرجّحه، وانّه حجة من حجج الله سبحانه، كقوله تعالى: إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون[1] في غير موضع من الكتاب العزيز أي يعملون بمقتضى عقولهم (لآيات لقوم يتفكّرون)[2] (لآيات لأولي الألباب)[3]... الى غير ذلك من الآيات الدالة على مدح العمل بمقتضى العقل وذمّ عكسه. وفي الحديث عن أبي الحسن«ع» حين سئل: فما الحجّة على الخلق اليوم؟ قال: فقال«ع»: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدقه والكاذب على الله فيكذبه[4].

وفي آخر عن الصادق«ع» قال: حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد و بين الله العقل[5].

وفي آخر عن الكاظم«ع»: ياهشام انَّ لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول[6].

قلت: لاريب انَّ العقل الصحيح الفطري حجةمن حجج الله سبحانه، وسراج منير من جهته جلّ شأنه، وهو موافق للشرع، بل هو شرع من داخل كما انَّ ذلك شرع من خارج، لكن مالم تغيره غلبة الأوهام الفاسدة، وتتصرّف فيه العصبية أو حبّ الجاه أو نحوهما من الأغراض الكاسدة، وهو قديدرك الأشياء قبل ورود الشرع بها فيأتي الشرع مؤيداً له، وقدلايدركها قبله ويخفى عليه الوجه فيها فيأتي الشرع كاشفاً له ومبيّناً، وغاية ماتدلّ عليه هذه الأدلة مدح العقل الفطري الصحيح الخالي من شوائب الأوهام العاري عن كدورات العصبية، وانّه بهذا المعنى حجة الهية، لادراكه بصفاء نورانيته وأصل فطرته بعض الأمور التكليفية، وقبوله لمايجهل منها متى ورد عليه الشرع بها، وهو أعمّ من أن يكون بادراكه ذلك أولاً أو قبوله لها ثانياً كما عرفت.

١ ـ سورة الرعد(١٣):٥.
٢ ـ سورة الرعد(١٣):٤.
٣ ـ سورة آل عمران(٣):١٨٨.
٤ ـ الكافي كتاب العقل والجهل ح ٢٠.
٥ ـ الكافي كتاب العقل والجهل ح ٢٢.
٦ ـ الكافي كتاب العقل والجهل ح ١٢.

ولاريب انَّ الأحكام الفقهية من عبادات وغيرها كلّها توقيفية تحتاج الى السماع من حافظ الشريعة، ولهذا قداستفاضت الأخبار.. بالنهي عن القول في الأحكام الشرعية بغير سماع منهم «عليهم السلام» وعلم صادر عنهم «صلوات الله عليهم» ووجوب التوقّف والاحتياط مع عدم تيسر طريق العلم ووجوب الردّ إليهم في جملة منها، وماذاك إلاّ لقصور العقل المذكور عن الاطلاع على أغوارها واحجامه عن التلجج في لجج بحارها، بل لوتمَّ للعقل الاستقلال بذلك لبطل ارسال الرسل وانزال الكتب، ومن ثمّ تواترت الأخبار ناعية على أصحاب القياس بذلك.

(ثمَّ ذكر الأخبار الدالة على ذلك) الى أن قال:

الى غير ذلك من الأخبار ـ المتواترة معنى ـ الدالة على كون الشريعة توقيفية لامدخل للعقل في استنباط شيء من أحكامها بوجه... إلاَّ أنّه يبقى الكلام بالنسبة الى مايتوقّف على التوقيف.

فنقول: إن كان الدليل العقلي المتعلّق بذلك بديهيّاً ظاهر البداهة كقولهم: الواحد نصف الإثنين، فلاريب في صحة العمل به، والاَّ فان لم يعارضه دليل عقلي ولانقلي فكذلك، وإن عارضه دليل عقلي آخر، فان تأيّد أحدهما بنقلي كان الترجيح للمؤيد بالدليل النقلي وإلاّ فاشكال، وإن عارضه دليل نقلي، فان تأيد ذلك العقلي أيضاً بنقلي كان الترجيح للعقلي، إلاَّ انَّ هذا في الحقيقة تعارض في النقليات، وإلاَّ فالترجيح للنقلي، وفاقاً للسيد المحدث المتقدم ذكره (السيد الجزائري) وخلافاً للأكثر.

هذا بالنسبة الى العقلي بقول مطلق، امّا لوأريد به المعنى الأخص وهو الفطري الخالي من شواهب الأوهام الذي هو حجة من حجج الملك العلاّم وإن شذَّ وجوده بين الأنام ففي ترجيح النقلي عليه اشكال[1]؛ وقويت هذه الطريقة في القرن الحادي عشر والثاني عشر حتى أوائل الثالث عشر الهجري، ولكن الطريقة الأصولية تغلّبت عليها بمواقف الوحيد البهبهاني محمد باقر بن محمد أكمل المتوفى سنة (١٢٠٦).

ثمَّ تبعه تلميذه المحقق الكبير الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي المتوفى سنة (١٢٢٨).

١ ـ الحدائق الناضرة ١: ١٢٩-١٣٣.

الفصل الرابع



موقف الشيعة من القياس والاستحسان



موقف الشيعة من القياس والاستحسان

لقد وقف الشيعة من القياس والاستحسان موقفاً سلبياً، فهي لا تعمل بهما، ولا تعدهما من أصول الاستنباط والاجتهاد، بل أنكرتهما انكاراً شديداً، و بلغ انكار الأئمة«ع» للعمل بالقياس وعدم الأخذ بالرأي أن يقول الصادق«ع» لابان بن تغلب المتوفى سنة (١٤١): السنة إذا قيست محق الدين[١].

ووجه عدم العمل بالقياس والاستحسان لأنّهما لايثبتان حكماً ولاينفيان لأمرين:

الأول: انَّ الأحكام منوطة بعلل ومصالح محجوبة عنا في الغالب، فلوعرفنا مصلحة أو علة لحكم فلانعلم انَّ هذا هو العلة التامة لذلك الحكم، إذ لعلَّ وراء ستار الغيب مصالح وعللاً أخرى أيضاً لذلك الحكم، فلايكون ماعرفناه علة له، فكم في الشريعة من موضوعات متشابهة محكومة بأحكام مختلفة فكيف يقاس بعضها على بعض عند الجهل بالحكم؟.

الثاني: لورود النهي في ذلك عن أئمة أهل البيت«ع» مستفيضاً، ولكن يستشعر

١ ـ أصول الكافي ١:٥٧ ح ١٥.

من تعريفات القياس وتمثيلاته عند متأخّري القائلين بحجيّته انَّ بعض أنواعه هو منصوص العلة، وهذا عندنا حجة ثابتة ولكنه ليس هذا من القياس في شيء بل هو ممّا ثبت حكمه بالسنة، مثلاً لورد «حرمة الخمر» وعلّل انَّ هذه الحرمة هي لاسكارها، لدلّ على انَّ العلة التامة لحرمة الخمر هي الاسكار، فكلّ شيء يحصل منه الاسكار الذي هو علّة الحرمة ثبتت فيه الحرمة لوجود علّتها فيه.

ورأيت كلاماً في وجه عدم عمل الشيعة بالقياس لابأس بذكره وإليك نصّ العبارة: لاتعمل الشيعة بالقياس وأنكرته أشدّ الإنكار، لأنَّ الدين قدكمل أيام الرسول، إلاَّ انَّ القسم الكثير منه قدأودعه الرسول عند الأئمة، امّا لعدم الابتلاء بالوقائع المحكومة به في ذلك العصر، أو لعدم المصلحة في اظهاره في ذلك الوقت، والى زمن الغيبة الصغرى قدكمل ظهوره وتمّ اخراجه، و بعضهم يرى بانَّ بعض أحكام الأشياء اقتضت المصلحة اخفاءها الى زمن ظهور الحجة(ع)، أو بانَّ وقائعها لا توجد إلاَّ ذلك الوقت، وعند ظهوره يظهر تلك الأحكام[1].

١ ـ أدوار علم الفقه وأطواره لكاشف الغطاء/١٢٦.

القسم الثاني

تطور علم اصول الفقه



الفصل الأول



- أهم علماء الأصول
- أهم المعاهد العلمية

تمهيد:

لأجل سهولة البحث والدراسة، وسرعة الوصول الى النتيجة ونيلها ذكرنا تاريخ علم الأصول في اطار مدارس أربعة، وإن كانت هذه المدارس هي المدارس الكبرى حيث تندرج تحت كلّ واحدة من هذه المدارس مدارس صغيرة متعددة، وقد أعرضنا عن ذكرها تيسيراً للبحث، لأنَّ حدود البحث والدراسة كلّما كانت محدّدة ومعيّنة كانت أكثر نفعاً وأسهل في ضبطها وتسجيلها في الخاطر.

المدرسة الأولى، أو مدرسة ماقبل التأليف:

انَّ بذرة الفكرة الأصولية قدوجدت لدى فقهاء أصحاب الأئمة«ع» منذ أيام الصادقين«ع»، ومن الشواهد التاريخية على هذا الزعم الروايات المروية في كتب الحديث التي لها ارتباط تام بجملة من العناصر المشتركة في عملية الاستنباط، وذكرنا جملة منها في فصل «الاجتهاد في عصر الأئمة» في الأدلة النقلية.

و يعزز ذلك انَّ بعض أصحاب الأئمة كان لهم كتب وتأليفات في مسائل أصول الفقه كهشام بن الحكم و يونس بن عبدالرحمن.

المدرسة الثانية، أو بداية عصر التأليف:

ووصفنا هذه المرحلة بأنّها مرحلة بداية عصر التأليف لأن أصحابنا قد بدأوا يصنّفون في هذا العلم، وإن كانت هذه المصنّفات ابتدائية غير متطورة، علاوة على أنّها لم تكن تفي بالغرض المطلوب في هذا العلم.

وكان المعلم في هذه المدرسة أو المؤسس لها هو ابن عقيل، وابن جنيد، وأبو منصور الصرام، وابن داود، والشيخ المفيد، والسيد المرتضى.

وكان نتيجة هذا الجهد العظيم وثمراته حدوث المدرسة الآتية.

المدرسة الثالثة:

ونعني بهذه المرحلة: المرحلة التي تقدّم وازدهر فيها هذا العلم وإن لم يصل به هذا التقدّم الى الصورة النهائية.

في هذا العصر ازدهر هذا العلم ونمى على يد الشيخ الطوسي، والشيخ سديد الدين الحمصي، وابن ادريس، والمحقق، والعلامة الحلي، والشهيد الأوّل.

المدرسة الرابعة:

ونقصد بهذه المرحلة: المرحلة التي بلغ فيها هذا العلم شوطاً ممتازاً بحيث انّه وصل الى الصورة التي نراه عليها في أيّامنا هذه.

وكان ذلك بصرف جهود جبّارة، وعناية كبيرة على يد الوحيد البهبهاني، وفي هذه المرحلة أخذ هذا العلم ينمو و يتطوّر حتى وصل الى درجة رفيعة ومرتبة سامية، وكان هذا التطوّر والتكامل نتيجة سير ثلاثة مراحل تعاقبت بعد الوحيد البهبهاني.

١ ـ المرحلة الأولى، أو الدورة الابتدائية:

وحصل هذا التطوّر في هذه المرحلة على يد تلامذة الوحيد البهبهاني وهم:
السيد مهدي الطباطبائي بحر العلوم.
والشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي.
والمرزا أبو القاسم الجيلاني القمي.
والسيد علي صاحب الرياض.
والشيخ أسد الله التستري.

٢ ـ المرحلة الثانية، أو الدورة المتوسطة:

وحصل التقدّم في هذه المرحلة على متخرجي أساتذة المرحلة الأولى. وهم:
الشيخ محمد تقي بن عبدالرحيم الاصفهاني.
وشريف العلماء المازندراني.
والسيد محسن الأعرجي الكاظمي.
وملا أحمد النراقي الكاشاني.
والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر النجفي.

٣ ـ المرحلة الأخيرة، أو الدورة النهائية:

وحصلت هذه المرحلة على يد تلامذة المرحلة السابقة، وكان هذا التقدّم والتطوّر العظيم على يد المؤسس الشيخ مرتضى الأنصاري «رحمه الله» الذي انتهى بهذا العلم الى درجة عظيمة بحيث لم يسبقه سابق ولم يصل اليه لاحق، فقدبلغ بالعلم والتحقيق ذروته النهائية وكماله السامي، الا وقداغترف من ينبوع هذا العالم الكبير، وسيظلّ هذا الينبوع فيّاضاً الى ماشاء الله.

فيكون هذا المحقق أكبر من تخرّج في تلك المدارس الثلاث، وكان ثمرتها الثمينة، والدرة اليتيمة، وفي هذه المرحلة نمى وظهر رجال عباقرة، وكان لهم دور عظيم في تعريف مدرسة الشيخ الأنصاري وتطوير مبانيه العلمية منهم:

السيد مرزا حسن الشيرازي المجدد.

والمحقق الشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الآخوند».

والمحقق المرزا حسين النائيني.

والمحقق الشيخ ضياء الدين العراقي.

والمحقق الشيخ محمد حسين الاصفهاني المعروف بـ«الكمپاني».

المدرسة الأولى:

إنَّ علم الأصول في هذه المرحلة كانت قواعده بالأكثر روايات ولم تكن بحسب التعبيرات والاصطلاح الذي هو المعمول في المدارس المتأخرة.

ومازال تكثر روايات هذا العلم في عصر الصادقين عليهما السلام، حيث أمليا على أصحابهما قواعده، حتى انَّ بعض علمائنا تصدّى لجمع تلك الروايات المروية في أصول الفقه في كتب ورسائل، ذكرنا بعضاً منها في مباحث متقدمة.

كما انَّه ذكرنا قسماً من تلك الروايات المروية في مباحث أصول الفقه، ولأجل أن نتعرّف على معالم المدرسة الأولى نذكر:

أولاً علماء الأصول في المدرسة الأولى:

ومن أصحاب الأئمة«ع» الذين كان لهم تأليف في أصول الفقه:

هشام بن الحكم:

شيخ المتكلمين في الأصوليين الامامية، صنَّف كتاب الألفاظ ومباحثها، وهو أهم مباحث هذا العلم، توفي سنة (١٩٩).

قال النجاشي: روى هشام عن أبي عبدالله، وأبي الحسن موسى «ع»، وكان ثقة في الروايات، حسن التحقيق بهذا الأمر[١].

يونس بن عبدالرحمن:

مولى آل يقطين، صنّف كتاب «إختلاف الحديث ومسائله» وهو مبحث تعارض الحديثين، ومسائل التعادل والتراجيح في الحديثين المتعارضين، رواه عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم «ع»، وكان الإمام الرضا «ع» يشير إليه في العلم والفتيى[٢].

أبوسهل النوبختي اسماعيل بن علي:

قال النجاشي: كان شيخ المتكلمين من أصحابنا، وذكر مصنفاته، وعدَّ منها: كتاب الخصوص والعموم، وهو من أهم مباحث علم أصول الفقه. ذكره ابن النديم في الفهرست وعدَّ من مصنفاته كتاب ابطال القياس، وكتاب نقض اجتهاد الرأي على ابن الراوندي، وهما أيضاً من مباحث علم أصول الفقه.

وأبوسهل ممَّن لقي الامام أبا محمد الحسن العسكري «ع»، وحضر عند وفاته، كانت وفاة الامام سنة ستين ومايتين.[٣]

الحسن بن موسى النوبختي:

شيخ المتكلمين في الشيعة في عصره، له من الكتب في علم أصول الفقه كتاب «خبر الواحد والعمل به» وكتاب «الخصوص والعموم».

قال النجاشي: شيخنا المتكلم المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلمائة و بعدها،

١ ـ رجال النجاشي /٣٠٥.
٢ ـ رجال النجاشي /٣١١.
٣ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام /٣١٠ـ٣١١.

وذكره ابن النديم في الفهرست، ونصّ على تشيّعه وتشيّع كلّ آل نوبخت[١].

أهم المعاهد العلمية للمدرسة الأولى:

والمقصود من دراسة المعاهد والمراكز العلمية في كلّ مدرسة تلك المعاهد التي تكوّنت في مختلف الأقطار الاسلامية لتكون مركزاً لتدريس العلم ونشره، وكان أكثر النتاج العلمي والثقافي منبعثاً منها، ولم ننكر حقّ المعاهد الصغيرة للدراسات الاسلامية التي كانت ولا تزال منتشرة في البلدان المختلفة، بل نقصد بدراسة المعاهد الكبرى التي تعتبر أمّهات المعاهد الصغرى أو التابعة لها بسبب أثرها العلمي وانتاجها في تاريخ الثقافة والفكر الامامي، وأهم المعاهد التي ترعرعت فيها المدرسة الأولى هي:

١ ـ المدينة المنورة.
٢ ـ الكوفة.
٣ ـ قم.

المدينة المنورة:

المدينة المنورة وهي التي وُضع فيها الحجر الأساس لبناء الحكومة الاسلامية على يد الرسول الأعظم«ص» عندما هاجر اليها من مكة المكرمة بعد ذلك الاضطهاد الذي قاساه هو وأصحابه فيها.

فاجتمع حول النبي في هذه البلدة الصغيرة أصحابه والموالين له من المهاجرين والأنصار، فكان المعلم الأول والأب الروحي في هذه الجامعة الرسول نفسه، لأنّه إنّما بعث الى الناس ليعلّمهم و يذكّرهم و يزكّي نفوسهم.

وكان المتعلمون في هذه المدرسة على يد رسول الاسلام من أمثال علي بن

١ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام / ٣١٠-٣١١.

أبيطالب«ع» وسلمان وأبوذر وغيرهم، الذي أخذوا تعاليم الاسلام من يد النبيّ، وكانوا دعاة الاسلام المخلصين، والأسوة الحسنة للأجيال عبر التاريخ في سلوكهم الانساني وعملهم البطولي في سبيل نشر تعاليم الاسلام في الأرض، و بثّ الحياة في المجتمع.

و بعد وفاة الرسول أخذ أئمة أهل البيت وعلى رأسهم علي بن أبي طالب«ع» يقودون الحركة الفكرية المتوخّاة من معلّمهم الروحي نبيّ الاسلام«ص» و بثّها في مختلف أقطار العالم الاسلامي، فكان انطلاق هذه الحركة يتمثّل في فقهاء أهل البيت وأئمة المسلمين من المدينة المنوّرة.

و بلغ هذا الإزدهار والنتاج الفكري غايته في عهد الإمامين الباقر والصادق«ع»، إذ انفسح لهم المجال وارتفعت عنهم المراقبة والضغط بسبب الحرب القائمة بين بني العباس و بني أميّة، فكان المجال يساعد على تربية جيل وتثقيفه لحمل الرسالة الإلهية، وتبليغها للأمة في البلدان الاسلامية، فكانت المدينة المنورة، مزدهرة في عصر الصادقين«ع»، وكان طلاّب العلم والوفود تتوجه من الأقطار الاسلامية الى كسب المعارف واغتراف العلوم إليها.

فكان مسجد النبيّ تنتظم فيه حلقات الدروس، كما انَّ بيوت الأئمة«ع» كانت بمثابة الجامعات تشتمل على جوانب مختلفة من العلوم الاسلامية من التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والحكم والآداب و... فكان رجال العلم وحملة الحديث ورواته من مختلف الطبقات ينتهلون و يغترفون من هذه المناهل العذبة الطيّبة النقيّة.

قال ابن حجر في الامام الصادق«ع»:

نقل الناس عنه من العلوم ماسارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر: كيحيى بن سعيد، وابن جريح، ومالك والسفيانَيْن، وأبي حنيفة وشعبة[1].

وللسيد هاشم معروف الحسيني حديث حول جامعة أهل البيت في المدينة وسبب

١ ـ الصواعق المحرقة /١٩٩.

تكوينها حيث يقول: لقد عاش الامام الصادق مع أبيه الباقر((ع)) مؤسس جامعة أهل البيت نحواً من خمس وثلاثين عاماً أدرك منها في مطلع شبابه بوادر الانحلال الذي كان يهدد دولة الأمويين بالانهيار، وفي تلك الفترة وماتلاها من الفترات رافق تلك الحلقات العلمية التي كانت في مسجد المدينة وخارجه باشراف أبيه الباقر((ع))، وتتألّف كما تؤكد المصادر الموثوقة من مئات الطلاّب والعلماء من مختلف البلاد الاسلامية. وهو الى جانب أبيه يلقّنه من علوم الدين وأسرار الكون وغير ذلك ممّا ورثه عن آبائه عن النبي((ص)).

وظلّ الى جانب أبيه الباقر الى آخر نفس من حياته ومدرسة الفقه والحديث والعلوم الاسلامية توالي نشاطها في مختلف المواضيع فيما يخدم مصلحة الاسلام الى أن وافته المنيّة سنة (١١٤)هـ، فاستقلّ الصادق بالزعامة الدينية، والمسلمون يتطلّعون اليه من كلّ الجهات، هذا والدولة الأموية تسير بخطا سريعة الى الفناء، والانتفاضات الشعبية هنا وهناك تحقق الانتصار تلو الانتصار...

فكان من الطبيعي والحال هذه أن يوفّروا للامام الصادق((ع)) في تلك الفترة كلّ أسباب الهدوء والاستقرار، وأن يتابع هو مسيرة أبيه الباقر((ع)) من حيث انتهى، لاسيّما وانَّ طلاب العلم والمحدثين والذين يريدون أن يناظروا في العقائد ويحملوا الأفكار التي تتعارض مع أصول الاسلام قدانتشروا في مختلف المناطق وأصبحوا يتوافدون الى المدينة من كلّ الجهات، حتى اجتمع عنده قرابة أربعة آلاف طالب، عدا أولئك الذين كانوا يقصدونه للمناظرة في مختلف المواضيع.

وحول التكتّل الهائل الغريب وعكوف روّاد العلم حول الصادقين يقول:

ولعلّ من جملة الأسباب التي تكمن وراء ذلك التكتّل حول الامامين الباقر والصادق((ع)) هو انَّ الأمويين وقفوا من آثار أهل البيت وفقههم موقفاً بلغ أقصى حدود الشدّة والصرامة.

و بلغ الحال ببعض الفقهاء اذا اضطرَّ أن يسند الحديث الى مصدره، فان كان عن علي((ع)) يقول: قال أبو زينب، فقدجاء في تاريخ حسن البصري لأبي الفرج بن الجوزي انَّه كان اذا أراد أن يحدث عن علي((ع)) يقول: قال أبو زينب، و يتحاشى أن

يذكره باسمه خوفاً من الأمويين وأعوانهم...

وبلغ من حرص الأمويين على طمس آثار أهل البيت وفقههم أن رفعوا من شأن بعض الفقهاء وتركوا لهم أمر الافتاء وبيان الأحكام كسليمان بن موسى الأشدق المتوفى سنة (١١٩) وعبدالله بن ذكوان المتوفى سنة (١٣٠) أحد مواليهم وراوي أحاديث أبي هريرة، ونافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار الذي كان ملازماً لقصورهم وقدفرضوه على المدينة، ومكحول مولى بني هذيل، وأبي حازم بن دينار الأعرج . رلى بني مخزوم، وسليمان بن طرخان، واسماعيل بن خالد البجلي، وعكرمة مولى ابن عباس، وابن شهاب الزهري، وغير هؤلاء من علماء الموالي الذين قرّبوهم وفتحوا لهم صدورهم وخزائنهم، ولم يسمحوا لأحد أن يحدّث عن أهل البيت، أو يسند لعلي ولغيره من ولده رأياً في الفقه أو في غيره من المواضيع الاسلامية، مماسبب ضيقاً وإحراجاً لكثير من الفقهاء الذين كانوا لايرون لفقه علي وأبنائه بديلاً...

ولمّا أتيح للامامين الباقر والصادق«ع» أن يحدّثا عنه وعن الرسول«ص» وينشروا فقهه وآثار الاسلام توافد العلماء وطلاّب العلم عليهما في مدينة الرسول «ص» من كلّ جانب ومكان، لاسيّما وقدشهد عصرهما نهضة علمية شملت جميع أطراف الدولة، وصراعاً عقائدياً كانت وراءه أيدٍ خفيّة تحاول تشويه أصول الاسلام وتحريفها بمايسيء الى الاسلام ولايخدم إلاّ أعداءه...

ومهما كان الحال فلقد تتابعت الوفود من جميع المدن والقرى على جامعة أهل البيت ونشطت الحركة العلمية في عهد الامام الصادق«ع» الى أبعد الحدود بعد أن زالت الحواجز التي كانت تحول بين الناس وبينهم[1].

ملامح المعهد الثقافي للمدينة المنورة:

النتاج العلمي الحاصل في الفترة الخاصة من عصر الرسول الى عصر الصادقين«ع» كان بصورة بدائية ولم تتبلور مسائله بالشكل الذي حصل على يد

١ ـ سيرة الأئمة الإثنى عشر ق ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٥.

تلامذة الأئمة في الكوفة، عندما حصل الخلاف في مسألة القياس والاستحسان والرأي، ومسائل الصلاة والوضوء والحج و... فتبلورت المفاهيم واتّضحت نقاط الإلتقاء والاختلاف بين مذهب أهل البيت والمذاهب الأخرى و بخاصة في أيّام أبي الحسن الرضا«ع»، ومع ذلك كلّه كانت من ثمار مدرسة المدينة الأصول والجوامع الحديثية والتي ألّفها أصحاب الصادقين«ع» والصحيفة السجادية للامام زين العابدين«ع»، و بروز شخصيات عظيمة بين أصحاب الصادقين كابان بن تغلب بن رياح أبو سعيد البكري الذي عاصر ثلاثة من أئمة الشيعة وأخذ عنهم، السجّاد والباقر والصادق«ع».

ونصّ المؤلفون في علمي الدراية والرجال: انّه روى عن الامامين الباقر والصادق«ع» أكثر من ثلاثين ألف حديث في مختلف المواضيع وأكثرها في الفقه... وقد عدّ له ابن النديم في الفهرست ثلاثة كتب، كتاب في القراءات، وكتاب في معاني القرآن، وكتاب في أصول الحديث على مذهب الشيعة.

ومن تلامذة الامام الباقر زرارة بن أعين، وكان مرجعاً في الفقه والرواية على مذهب أهل البيت«ع» وفيه يقول الامام الصادق«ع»: لولا زرارة لظننت انّ أحاديث أبي ستذهب[١].

وقال عليه السلام: رحم الله زرارة بن أعين لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي[٢].

وقال«ع» فيه وفي جماعة من أصحابه منهم: أبو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم و يزيد بن معاوية العجلي: لولا هؤلاء ماكان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفّاظ الدين وأمناء أبي«ع» على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا، والسابقون إلينا في الآخرة[٣].

١ ـ رجال الكشي /١١٣.
٢ ـ رجال الكشي /١٣٦.
٣ ـ رجال الكشي /١٣٧.

وهو أحد الستة من أصحاب أبي جعفر الباقر الذين أجمع الرواة على صحة ماصدر عنهم [١].

ومن أعيان تلامذة الامام الصادق«ع» محمدبن مسلم الثقفي، وفيه وفي زرارة ومحمدبن علي بن النعمان الملقّب بمؤمن الطاق و يزيد العجلي يقول الامام الصادق«ع»: أربعة أحبّ الناس إليَّ أحياءاً وأمواتاً [٢].

وكان محمدبن مسلم يقول: ماشجر في رأيي شيء إلاّ سألت عنه أبا جعفر الباقر«ع»، حتّى سألته عن ثلاثين ألف حديث، وسألت ولده أبا عبدالله«ع» عن ستةعشر ألف حديث [٣]. ومنهم محمدبن علي بن النعمان الملقّب بـ«مؤمن الطاق» فقدنصّ أبو العباس النجاشي انَّه أخذ العلم عن ثلاثة من الأئمة، علي بن الحسين، ومحمدبن علي، وجعفر بن محمد [٤].

ومنهم بريد العجلي، وقدنصّ المؤلفون في أحوال الرواة على أنَّه كان من البارزين بين أصحاب الامام الباقر«ع» ولازم الصادق بعد وفاة أبيه [٥] كما هو الحال في كثير من أصحابه الذين امتدت بهم الحياة، وأدركوا شطراً من حياته، و بعضهم بقي الى عهد الامام الكاظم«ع» وروى عنه أيضاً.

ومنهم جابر الجعفي الذي روى عن الامام الباقر«ع». [٦]

ومنهم الفضيل بن يسار، وأبو بصير الأسدي، وعبدالله بن مسكان، وابان بن عثمان الأحمر، وحريز بن عبدالله، وعبدالله بن جندب، وعلي بن النعمان، وصفوان الجمّال، الى غير ذلك من المئآت الذين تخرَّجوا من مدرسة أهل البيت وأخذوا الفقه والحديث عن الإمامين الباقر والصادق«ع» وألَّفوا ممّا سمعوه منهما عشرات الكتب كما نصّت على ذلك المؤلفات التي تحدثت عن تاريخهم وآثارهم.

١ ـ رجال الكشي /٢٣٨.
٢ ـ رجال الكشي /٢٤٠.
٣ ـ رجال الكشي /١٦٧.
٤ ـ رجال النجاشي /٢٢٨.
٥ ـ رجال النجاشي /٨١.
٦ ـ رجال النجاشي /٩٣.

وفي عدد رواد العلم والرواة في عصر الصادقين يقول الأستاذ معروف:

و بلغ عدد المنتمين إليها أربعة آلاف كما احصاهم أبو العباس أحمدبن عقدة المتوفى سنة (٢٣٠) في كتاب مستقل، وأيّده الشيخ نجم الدين في المعتبر، وأدرك منهم الحسن بن علي الوشاء وكان من أصحاب الرضا«ع» تسعمائة شيخ كانوا يجتمعون في مسجد الكوفة يحدّثون عن جعفر بن محمد و يتدارسون فقهه، وذلك بعد أكثر من عشرين عاماً مضت على وفاة الامام الصادق«ع»...

وقال المحقق في المعتبر: انَّ الذين برزوا من تلامذته ألّفوا من أحاديثه وأجوبة مسائله أربعمائة كتاب عرفت بعد عصره بـ«الأصول»، وقداعتمدها المحمّدون الثلاثة الكليني والصدوق والطوسي في كتبهم الأربعة الكافي ومن لايحضره الفقيه والتهذيب والاستبصار.

كما تنص المؤلفات الشيعية في أحوال الرجال انَّ أصحاب الامامين الباقر والصادق«ع» قدألّفوا في مختلف المواضيع أكثر من أربعة آلاف كتاب، ولوافترضنا انَّ هذا العدد مبالغ فيه وليس ذلك ببعيد، فمّالاشك فيه بأنّهم تركوا بالاضافة الى الأصول الأربعمائة مئات الكتب في الحديث والفقه وغيرهما من المواضيع الاسلامية، كما يرشد الى ذلك تأكيد الامام الصادق«ع» بكتابة ماكان يلقيه عليهم خوفاً من النسيان والزيادة والنقصان...

وهنا يرتسم سؤالاً في الذهن وهو ان صحَّ ذلك فأين هذا التراث؟ يجيب عن هذا السؤال قائلاً:

امَّا أين ذهبت تلك المؤلفات الشيعية؟ فالتاريخ قدأهمل مصيرها كما أهمله المؤلفون في أحوال الرجال وآثارهم، و بلاشك فلقدبقي الكثير منها الى القرنين الرابع والخامس، واعتمد عليها أصحاب الكتب الأربعة في مجاميعهم كما ذكرنا.

وقدأتلف أكثرها السلاجقة والتتر والأيّوبيّون وغيرهم من الغزاة في جملة ماأتلفوه من مكتبة الوزير سابور، ومكتبة الطوسي في بغداد، ومكتبة القصر الفاطمي في القاهرة، هذا بالاضافة الى ماتلف من مكتبة محمدبن عمير التي دفنها في التراب خوفاً من الرشيد، وكان قدحبسه الرشيد وصادر جميع أمواله، ولمّاخرج من سجنه وجدها

بالية، وكانت تشتمل على مئات الكتب لأصحاب الإمامين الصادق والباقر«ع».

ثمَّ أسرد كلاماً في تأييد وجود قسماً من تلك الأصول والكتب مع ذلك الاضطهاد فقال:

و يظهر من سرائر محمدبن ادريس العجلي المتأخر عن الشيخ الطوسي انّه كان يحتفظ ببعض تلك المؤلفات، وانَّه في السرائر أخذ منها بلاواسطة حيث قال: فمن ذلك ماأورده موسى بن بكير الواسطي في كتابه عن حمران بن أعين الشيباني، و بعد أن أورد جملة من الكتاب المذكور قال: ومن ذلك مااستطرفناه من كتاب معاو يةبن عمار، وقدأخذ منه بعض الأحاديث في أحكام الحج والصلاة، ثمَّ قال: ومن ذلك مااستطرفناه من كتاب أحمدبن محمد أبي نصر البزنطي، كما أخذ من كتاب لابان بن تغلب، ومن كتاب لجميل بن دراج، وللسياري، وللبزنطي، ولحريز بن عبدالله السجستاني، وللحسن بن محبوب السراد، ولعبدالله بن بكير وغيرهم...

و يظهر من الشهيد في الذكرى، والكفعمي في مصباحه انَّ بعض تلك المؤلفات التي تركها أصحاب الأئمة «ع» كانت عندهما، كما نصّ على ذلك الحرّ العاملي في الفائدة السادسة التي ألحقها في المجلد الثالث من الوسائل الطبعة القديمة...[١]

ومن ملامح مدرسة الامام الصادق«ع» الطابع الخاص بها والذي تمتاز به من سائر المدارس للمذاهب الأخرى ألاوهو استقلالها الروحي وعدم خضوعها للنظام الحاكم وللسلطات الموجودة، و بذلك لم يكن لهم طريق في التدخل في شؤون مدرسته، ولا تزال هذه الميزة باقية ومحفوظة في كل المدارس الشيعية، ولأجل ذلك ترى انَّ هذه المعاهد وزعماءها في طول التاريخ وقفوا أمام السلطات الفاسدة، ولم يتنازلوا لهم، وكانت هذه الميزة سبباً لبقاء هذه المدرسة واحتفاظها بطابعها الخاص بها.

١ ـ سيرة الأئمة الإثنى عشر ق ٢/ ٢٥٥ـ٢٥٧.

مدرسة الكوفة:

بعدما كانت المدينة المنورة جامعة أهل البيت، ففي أُخريات حياة الامام الصادق«ع» انتقلت هذه المدرسة الى الكوفة.

فاتخذت الكوفة فكرة الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية، وأصبحت هذه البلدة والمدرسة المتكونة فيها أساساً لبناء التراث الفكري الشيعي.

فبعد ماتكلّلت جهود الإمامين الباقر والصادق«ع» بالنجاح حين كوّنوا طبقة نيّرة من فقهاء الشيعة في المدينة المنورة، وكان لتلك الصحابة و بخاصة الكوفيين منهم أثر كبير في استنباط الأحكام وفي ترسيخ فكرة الاجتهاد بين الفقهاء، كما انَّ الاجتهاد أصبح من ذلك العهد من أشهر مميّزات الشيعة.

وكان من بين أصحاب الامام الصادق«ع» من فقهاء الشيعة كـ«ابان بن تغلب بن رباح الكوفي» نزيل كندة، روى عنه«ع» (٣٠٠٠٠) حديثاً، ومنهم محمدبن مسلم الكوفي روى عن الباقر (٤٠٠٠٠) حديثاً.

وقد صنّف الحافظ أبو العبّاس بن عقدة الهمداني الكوفي المتوفّى سنة (٣٣٣) كتاباً في أسماء الرجال الذين رووا الحديث عن الامام الصادق«ع»، فذكر ترجمة (٤٠٠٠) رجل[١].

بالاضافة الى خروج الفقهاء والمحدثين من الكوفة وجود البيوتات العلمية الكوفية في هذه البلدة، التي عرفت بانتسابها الى الامام الصادق«ع»، واشتهرت بالفقه والحديث كـ«بيت آل أعين» و بيت آل حيّان التغلبي، و بيت عطية، و بيت بني دراج وغيرهم من البيوتات العلمية الكوفية، التي عرفت بالتشيّع واشتهرت بالفقه والحديث[٢].

١ ـ تاريخ الكوفة للبراقي /٤٠٨.
٢ ـ تاريخ الكوفة للبراقي /٣٩٦ـ ٤٠٧.

وعظمت مدرسة الكوفة عندما كان الإمام الصادق فيها، فعكف حوله الفقهاء والرواة بحيث كان يصعب الوصول اليه، قال محمدبن معروف الهلالي: مضيت الى الحيرة الى جعفر بن محمد«ع» فما كان لي فيه حيلة من كثرة الناس فلمّا كان اليوم الرابع رآني فأدناني وتفرّق الناس عنه، ومضى يريد قبر أميرالمؤمنين«ع» فتبعته وكنت أسمع كلامه وأنا معه أمشي [1].

وكان مدة بقاء الامام الصادق في الكوفة في أيّام أبي العبّاس السّفّاح حوالي سنتين.

فكان الصادق«ع» في هذه الفترة ينشر أصول المذهب الشيعي، لعدم وجود معارضة قوية من قبل السلطات، فازدلفت إليه الشيعة من جميع الجوانب لتأخذ منه العلم، وترتوي من منهله العذب، وتروي عنه الأحاديث في مختلف العلوم.

ملامح مدرسة الكوفة:

انَّ مدرسة الكوفة التي وضعت بذرتها الأولى أيام أميرالمؤمنين علي«ع» ثمَّ في عصر الصادق«ع» و بعده أخذت تنمو وتزدهر، فكان من النتاج في مدرسة الكوفة نهج البلاغة الذي هو أعظم كتاب اسلامي بعد كتاب الله الشريف، القىٰ الامام أميرالمؤمنين علي«ع» معظم مواده من على منبر الكوفة، فهذا النتاج الفكري والأدبي الشيعي الأصيل ممّاقدمته مدرسة الكوفة.

كما انَّ الامام علي«ع» أملىٰ قواعد النحو على أبي الأسود الدؤلي في الكوفة، وكذا أنتجت لنا الكوفة الهاشميات الخالدات للكميت الأسدي الذي كانت الكوفة موطنه.

ومن ملامح مدرسة الكوفة أن أخرجت الفقهاء، والمحدثين الذين شاركوا في تدوين الأصول الحديثية والتراث الذي هو بين أيدي الامامية والمندرجة في المجاميع الشيعية، وفي هذا المجال يقول محمدبن عيسى القمي: خرجت الى الكوفة في طلب الحديث فلقيت بها الحسن بن علي الوشاء فسألته أن يخرج لي كتاب العلاءبن رزين

١ ـ مقدمة شرح اللمعة /٣٣.

القلا، وابان بن عثمان الأحمر فأخرجهما إليّ فقلت له: أحبّ أن تجيزهما لي فقال لي: يارحمك الله وماعجلتك أهب فاكتبهما وأسمع من بعد، فقلت: لاآمن الحدثان، فقال: لوعلمت انَّ هذا الحديث يكون له هذا الطلب لاستكثرت منه، فانّي أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلّ يقول حدّثني جعفر بن محمد[١].

مدرسة قم:

كانت بعض البلدان في ايران منذ عصر الأئمة لهم ولاء خاص الى أئمة أهل البيت، وكان من بين تلك البلدان «قم» فهي منذ أيّام الأئمة كانت بلدة شيعية، ومدينة كبيرة من أمّهات المدن الشيعية.

وقد وردت روايات في مدح قم وأهلها، وانّها عشّ آل محمد«ص» وقوله«ع»: انَّ البلايا مدفوعة عن قم وأهلها، وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على الخلائق، وذلك في زمان غيبة قائمنا الى ظهوره، ولولاذلك لساخت الأرض بأهلها[٢].

وورد في فضل قم وأهلها عن علي«ع»: سلام الله على أهل قم ورحمة الله على أهل قم سقى الله بلادهم الغيث وتنزل عليهم البركات، فيبدل سيئاتهم حسنات، هم أهل ركوع وخشوع وسجود، وقيام وصيام، هم الفقهاء العلماء، أهل الدين والولاية[٣].

وكانت قم من القرن الرابع الهجري مركزاً لشيوخ الحديث والفقهاء، قال العلامة في شرحه على من لايحضره الفقيه: انَّ في زمان علي بن الحسين بن موسى بن بابو يه المتوفى سنة (٣٢٩) كان في قم من المحدثين مائتا ألف رجل[٤].

ووصف قم الحسن بن محمد بن الحسن القمّي المتوفى سنة (٣٧٨) قال الباب السادس عشر في ذكر أسماء بعض علماء قم وشيء من تراجمهم وعدد الشيعة منهم ٢٦٦.

١ ـ رجال النجاشي /٢٨-٢٩.
٢ـ سفينة البحار ٢: ٤٤٥.
٣ـ مجالس المؤمنين /٨٤.
٤ ـ مقدمة من لايحضره الفقيه.

حتى انَّه ورد عن الأئمة«ع»: لولاالقمّيون لضاع الدين[١].

نشير الى أسماء بعض المحدثين والفقهاء اللامعين في قم:

١ ـ علي بن ابراهيم:

كان علي بن ابراهيم شيخ الكليني في الحديث، كان ثقة في الحديث ثبتاً معتمداً صحيح المذهب، سمع فأكثر، وصنّف كتباً، له قرب الأسناد، وكتاب الشرائع، وكتاب الحيض[٢].

٢ ـ الكليني:

محمدبن يعقوب المتوفّى (٣٢٩) كان معاصراً لعلي بن الحسين بن بابو يه القمّي والد الصدوق.

٣ ـ ابن قولو يه:

أبو القاسم جعفر بن محمدبن جعفر بن قولو يه (٢٨٥ـ٣٦٨).

كان من تلامذة الكليني والراو ين عنه، وأستاذ الشيخ المفيد قال عنه النجاشي: كان من ثقات أصحابنا وأجلائهم في الحديث والفقه، وكلّ مايوصف به الناس من جميل وفقه فهو فوقه، له كتب حسان[٣].

١ ـ سفينة البحار ٢:٤٤٦.

٢ ـ رجال النجاشي /١٩٧.

٣ ـ رجال النجاشي /٩٥.

٤ ـ آل بابو يه:

من بيوتات الفقه والحديث في قم ومن فقهاء الشيعة ومحدّثيهم.

فكان والد الصدوق علي بن الحسين بن بابو يه من رؤساء المذهب وفقهائهم، قال العلامة: شيخ القميين في عصرهم وفقيههم وثقتهم [١]، وولده محمد بن علي بن بابو يه من أعظم فقهاء الشيعة ومحدّثيهم وصاحب أحد المجاميع الأربعة للشيعة.

ومن الآثار الخالدة للشيعة حصيلة هذا المعهد الكبير تدو ين المجاميع الحديثية الموسعة كـ:

١ ـ الكافي، تأليف محمد بن يعقوب الكليني، فهذه الموسوعة الكبيرة المدونة في الأصول والفروع تعدّ من أعظم الآثار الباقية لدى الطائفة، فكان هذا الأثر الكبير مبكّراً في بابه في تبو يب الحديث وتنظيم أبواب الفقه والأصول.

يقول في مطلع الكتاب مؤلفه ثقة الاسلام الكليني: كتاب كاف يجمع من جميع فنون علم الدين مايكتفى به المتعلّم، و يرجع اليه المسترشد، و يأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به بالآثار الصحيحة عن الصادقين«ع» [٢].

قال المفيد في وصف كتاب الكافي: من أجلّ كتب الشيعة وأكثرها فائدة [٣].

وقال الشهيد الأول في اجازته لابن الخازن: كتاب الكافي في الحديث الذي لم يعمل مثله [٤].

وهذا السفر الجليل يعدّ أحد المجاميع الأربعة لفقه الشيعة و بناء الاجتهاد عليها.

٢ ـ من لايحضره الفقيه:

لمحمد بن علي بن بابو يه القمّي، فانّه بعد كتاب الكافي يكون المصدر الثاني

١ ـ الخلاصة /٩٤.

٢ ـ أصول الكافي ٨/١.

٣ـ تصحيح الاعتقاد /٢٧.

٤ ـ بحار الأنوار ٣:٦٧.

للاجتهاد والاستنباط لدى الامامية وثاني الجاميع الأربعة، ويحتوي هذا الكتاب على (خمسة آلاف وتسعمائة وثلاث وستون حديثاً).

وهنا نسجّل نصّاً يدلّ على عظمة الفقهاء والمحدّثين في ذلك العهد في مدينة قم.

قال الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة: أنفذ الشيخ حسين بن روح «رضي الله عنه» كتاب التأديب الى قم وكتب الى جماعة الفقهاء بها، وقال لهم: انظروا مافي هذا الكتاب، وانظروا فيه شيء يخالفكم [1].

فهذا النصّ يدلّ على مدى عظمة الفقهاء القاطنين في قم حيث يراجعها مثل حسين بن روح أحد النّواب الأربعة للامام المنتظر«ع».

هذا وكانت تحتفظ قم دائماً بوجود المدارس والعلماء فيها، وإن كان في بعض الأحيان يقلّ و يكثر ذلك، فهي في طول القرون المتمادية لم تخلوا من الفقهاء والعلماء، ومع ذلك قدجددت هذه الجامعة العلمية والدينية في القرن الرابع عشر على يد آية الله العظمى المرحوم الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي عام (١٣٤٠)، فأصبحت من ذلك الحين مركزاً علمياً ودينياً بعدما كانت في سالف الزمان فعادت من جديد، و يعظّم مدينة قم الشعب المسلم في ايران وغيرهم لقداستها حيث تحتضن في أرضها الطاهرة قبر السيدة فاطمة المعصومة بنت الامام موسى بن جعفر«ع».

وفي عصر السيد الراحل الإمام البروجردي الذي كان يحلّ في قم وكان زعيم الطائفة فعظم أمر هذا المركز العلمي الثقافي، وتوجّهت إليها أنظار قاطبة الشيعة من مختلف البلدان الاسلامية، لحلّ مشاكلهم الدينية والسياسية مع قائدهم، و بذلك خرجت قم عن كونها بلدة صغيرة الى عاصمة لجميع الشيعة في العالم.

إجتمع في هذا العصر آلاف من الطلبة لأخذ العلم منها، وأخذ يعلو أمر هذا المعهد الكبير و يعطي ثماره الى المجتمع الاسلامي، وهذه الجامعة العلمية الدينية تستقبل بكلّ حفاوة وإكبار الذين يريدون أخذ التعاليم الاسلامية من أيّ قطر من الأقطار، كما انَّ اليوم يجتمع فيها الطلبة من بلدان مختلفةفتخرج منها المئات من العلماء منذ عصر

١ـ الكنىٰ والألقاب ٣:٧٦.

تأسيسها في القرن الأخير الى هذا اليوم، كماتخرج منها الخطباء والوعّاظ والكتّاب، وفيها مراكز ومؤسسات كبيرة ذات امكانيات واسعة، لنشر الكتب وطبعها، كما انَّ هذه الجامعة ترسل المبلّغين والوعّاظ الى بلدان ايران وغيرها لنشر الأحكام وتبليغ الاسلام.

اضافة الى ذلك أصدرت هذه الجامعة الكتب العلمية المتنوعة في مختلف المجالات الاسلامية والموسوعات العلمية في الفقه والأصول، والفلسفة والكلام، والتفسير والحديث، والأدب والتاريخ، وعلم الرجال والدراية، والعلوم الاجتماعية والأخلاقية، كما انَّه تصدر المجلات الشهرية الى جميع البلدان داخل ايران وخارجه.

قم في العصر الحديث:

وتحوّلت مدينة قم العلمية في العصر الأخير الى مركزٍ قيادي وعلمي. وطالبت الحكومة بسنّ القوانين الاسلامية، وإلغاء المعاهدات الاستعمارية فلم تجبها السلطات الى مطالبها، فكان ذلك بداية للشورة الاسلامية في ايران بقيادة علماء الدين وفي طليعتهم الإمام الخميني[١] فبثّ روح الدعوة لإحياء القوانين الاسلامية في أجواء الملأ العلمي في جامعة قم وسرى منها الى سائر المعاهد الدينية والبلدان الاسلامية، فوقف هذا القائد والمرجع العظيم أمام الحكومة فعارضته بقساوة وشدّة حتى انها لجأت الى ضرب الشعب الذي ينادي بحقوقه الاسلامية وقتلهم وسجن الكثير من العلماء والأهالي المؤمنين، وفي هذه الأثناء ألقى الإمام القائد خُطَباً تاريخية ونشر المنشورات في توعية الشعب وافشاء المؤآمرات المتخذة من قبل البلاط الملكي، والحكومة التابعة للأجانب، فعندها ثار الشعب أمام السلطة الجائرة، وقتلت الآلاف من الأبرياء، وعندها قبض على إمام الأمة، وسجن مدة في طهران بعيداً عن الشعب، ولكن المواطنين المؤمنين بقيادة العلماء ورجال الدين، والضغط والاستنكار العالمي أوجبت اطلاق سراح القائد ورجوعه الى قم.

١ ـ للامام القائد ترجمة في الذريعة ٢٢: ١٥٢ لقد أجاد المحقق الطهراني في حق امام الأمة.

وكان الامام يقود الجماهير باتجاه اسقاط حكم الطواغيت وازالته واقامة حكومة اسلامية تستند الى كتاب الله والسنّة المطهّرة، وكانت الجماهير المسلمة في ايران وعلى رأسها علماء الدين وطلاّب العلوم الدينية تسير وراء القائد المقدام في سبيل تحقيق أهدافه.

ولكن السلطات المعادية للاسلام أيقنت بأنّه لن يخضع لارادتها فأبعدته بسبب دفاعه بقلمه ولسانه عن النواميس الإلهية، وكان ذلك عندما حدثت قضية معاهدة كاپتيولاسيون (مصونيت الخبراء الأمريكيين) في مجلس النّواب التي كانت سنداً لرقية الشعب المسلم الايراني، فقام الامام في محاربة هذه المعاهدة المؤلمة للاسلام والمسلمين، وألقىٰ ذلك الخطاب الهام والعالمي، فأحسّت السلطات الخطر على نظامها الجبّار، ولم تمض إلا ستة أيّام هاجموا بيته.

غير انَّ الشعب المسلم ظلّ يدافع عن قائده، و يطالب بارجاعه الى ايران، حتى كان قتل رئيس الحكومة يومذاك من أظهر هذا الاستنكار، فالتجأت الحكومة الى ابعاد القائد الى النجف الأشرف، و بقي هناك مايضاهي خمسة عشر عاماً، مستمراً على جهاده ضدّ الشاه العميل، وكان بين حين وآخر يلقي خطاباته في المناسبات الخاصة و يرسل المنشورات، وتوزّع في ايران.

ولـمّا نشرت بعض الأيادي العميلة مقالة أرادت بها الحطّ في قيمة الامام وتشو يه صفحته الناصعة اشتدت مقاومة الشعب المسلم وعلى رأسه رجال الدين ضدّ الشاه العميل.

وفي هذه الأثناء اضطرّ القائد الى مغادرة النجف الأشرف حيث انتقل الى فرنسا، حيث امتنعت جميع حكومات البلاد الاسلامية عن استقباله اكراماً للشاه المقبور.

فكان يواصل جهاده بشدة و يقود الشعب المسلم في ايران، وكان الشعب المسلم في ايران ينفّذ كلّ أوامر الامام القائد بحذافيرها مطالباً بعودة زعيمه من المنفىٰ، وكان يعبّر عن ذلك بالخروج في مظاهرات مليونية، مما اضطرّ الشاه الى الهرب من ايران خوفاً على نفسه.

واستقبل الشعب قائده العظيم استقبالاً لم يُرَ مِثله من قبل، وفي (٢٢ بهمن) سنة ١٣٥٧ش حيث سقط النظام الملكي و برأي من الشعب بنسبة (٩٩/١٥) بالمئة استقرَّ النظام الاسلامي بقيادة الإمام الخميني العظيم.

فأصبحت قم مركزاً قيادياً للأمة، وهي اليوم أعظم معهد دراسي للعلوم الاسلامية بعد اخراج العلماء من النجف الأشرف، كما أخبرعن ذلك الامام الصادق«ع» حيث قال: ستخلوا الكوفة من المؤمنين و تأرزعنها العلم كما يأرز الحيّة في جحرها، ثمَّ يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدناً للعلم والفضل[١].

وقال«ع»: وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على الخلائق، وذلك في زمان غيبة قائمنا الى ظهوره، صلوات الله عليه، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها[٢].

مميزات مدرسة قم:

تمتاز مدرسة قم هذه الجامعة التي كان لها السهم العظيم في الثقافة الامامية بمميزات عديدة نذكر بعض ماتوصلنا اليه.

١ـ قداسة هذه المدينة التي كان لها الأثر المهم في تكوين مدرسة قم الحديثية والثقافية والقيادية، وقدأتت هذه القداسة من الروايات الواردة في فضل هذه البلدة وأهلها.

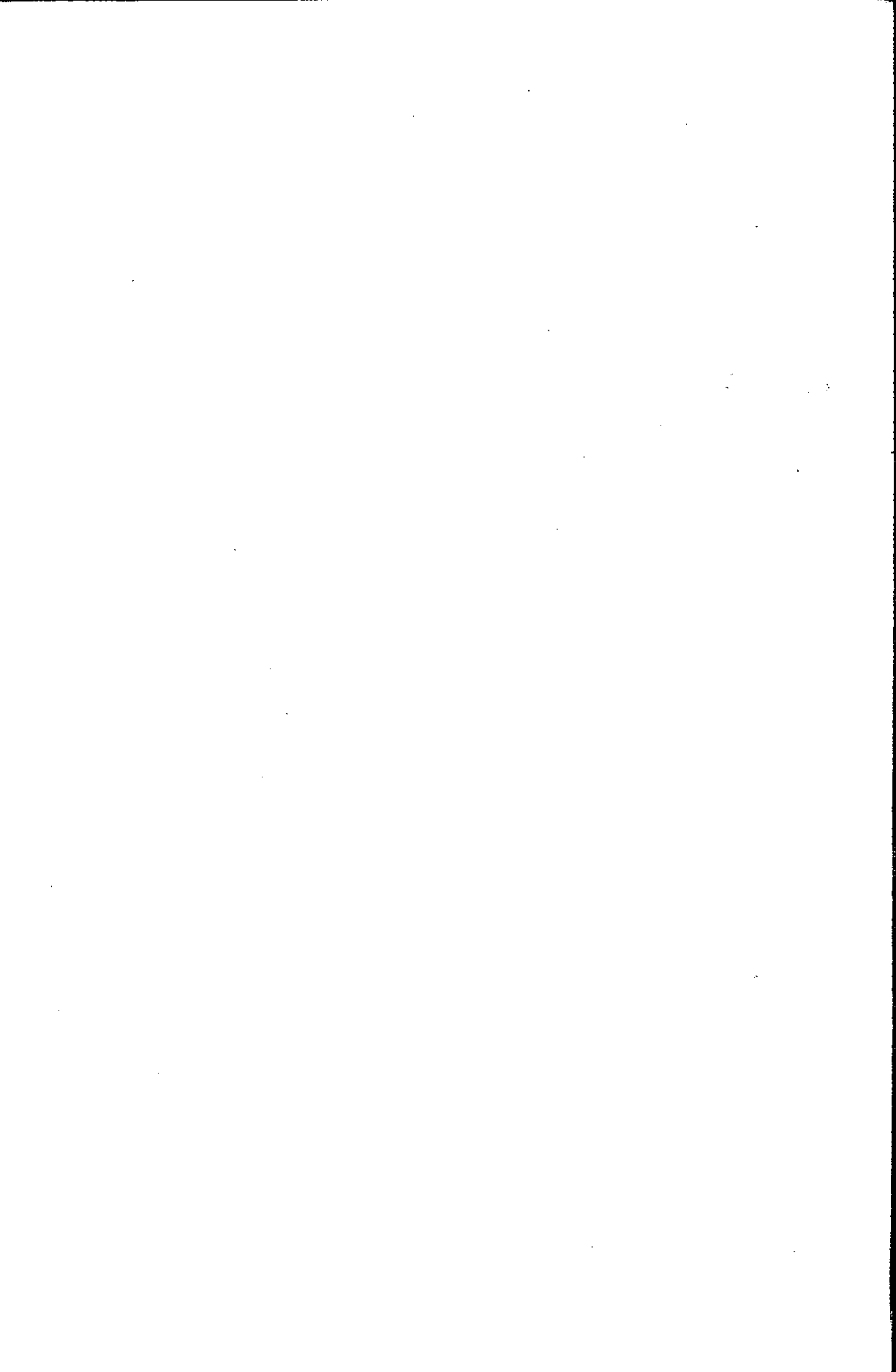
٢ ــ كانت قم من قديم الأيّام مركزاً يقطنها مشايخ الحديث والفقهاء، وقلّ خلوّ هذه البلدة من وجود عالم وفقيه فيها.

٣ ــ تخريج شخصيات عظيمة قلّ أمثالهم بين سائر المعاهد والمدارس الشيعية، حيث كان لهم الدور المهم في تدوين الكتب والمصادر الامامية.

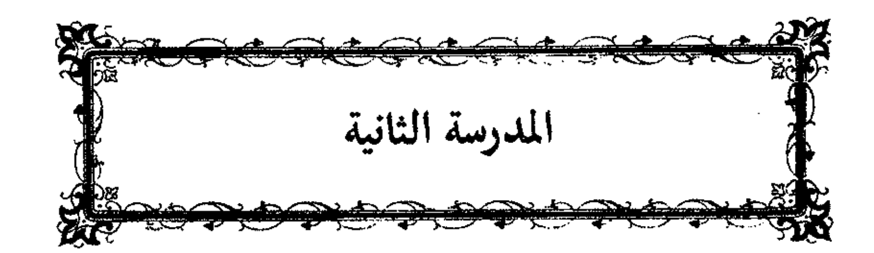
٤ ــ أنتجت مدرسة قم الموسوعات العلمية التي تعدّ من أهم التراث الامامي كالكافي ومن لايحضره الفقيه.

١ ـ سفينة البحار ٢: ٤٤٥.
٢ ـ سفينة البحار ٢: ٤٤٥.

٥ ــ تحوّلت هذه المدرسة الدينية الى مركز قيادي للطائفة، وأصبحت عاصمة تبثّ الأفكار الاسلامية الى مختلف أقطار العالم، ولها الأثر المهم في تصدير الثورة الاسلامية الى الشعوب المستضعفة في العالم ممّا أدّى الى زلزلة الاستكبار العالمي.



الفصل الثاني



المدرسة الثانية

- أهم علماء الأصول في هذه المدرسة
- أهم الكتب الأصولية
- المعاهد العلمية

المدرسة الثانية

المبحث الأول أهم علماء الأصول في هذه المدرسة:

الشيخ الأقدم أبي محمد الحسن بن علي بن أبي عقيل النعماني الحذاء:

الفقيه المتكلّم المعاصر لثقة الاسلام الكليني، وعلي بن بابو يه القمّي، وكان المعلم الكبير في هذه المدرسة الجديدة وهو أوّل من صنّف من أصحابنا الإمامية في هذا العلم كتاباً يعرف بـ«المتمسّك بحبل آل الرسول».

قال النجاشي: وهو كتاب مشهور في الطائفة، وقيل: ماورد الحاج من خراسان إلاّ طلب واشترى منه نسخ، وسمعت شيخنا أباعبدالله: كثير الثناء على هذا الرجل[1].

ونحن لانريد أن ننكر فضل أصحابنا في عصر الأئمة فانّه كان لهم رسائل في علم الأصول، ولكن لمّا كانت دراستنا لتطوّر هذا العلم بعد عصر غيبة الحجة «ع» لذلك شرعنا من هذا الحين.

١ ـ النجاشي /٣٥ والذريعة ١٩:٦٩.

وإلاّ كان ابتداء التدوين فيه في القرن الثاني، بعد أن لم يكن هذا العلم مدوناً في القرن الأوّل من الاسلام، ولم يذكر المؤرخون كتاباً ألّف في علم الأصول أسبق من كتاب الحكيم هشام بن الحكم المتوفى سنة (١٧٩) الذي كان من حواريي الامام الصادق«ع» وممّن تخرّج في مدرسته. وكان من أفضل تلاميذه، وكانت له رسالة في مباحث الألفاظ.

ثمّ لنعد في دراستنا لمعلمي المدرسة الثانية.

ابن جنيد:

فقد جاء من بعد ابن أبي عقيل أبو علي محمد بن أحمد بن جنيد الاسكافي وصنّف «كتاب كشف التمويه والالباس على اغمار الشيعة في أمر القياس» وكتاب «اظهار ماستره أهل العباد من الرواية عن أئمة العترة في أمر الاجتهاد».

قال النجاشي: محمد بن أحمد بن الجنيد أبو علي الكاتب الاسكافي وجه مِنْ أصحابنا ثقة جليل القدر صنّف فأكثر[1].

وقال المحدّث القمّي: قيل مات بالريّ سنة (٣٨١) ثم قال: يروي عنه المفيد وغيره[2].

وصنّف كتاب «تهذيب الشيعة» في عشرين مجلداً يشتمل على جميع أبواب الفقه، وكتاب «المختصر في الفقه الأحمدي» اختصر به كتابه التهذيب، وهو الذي وصل لأيدي المتأخرين، ومنه انتشرت مذاهبه وأقواله، فقد قام بتحرير المسائل الفقهيّة على وجه الاستدلال، وقد أدرك زمان السمري، والكليني صاحب الكافي.

والاسكافي هو الذي دوّن الأصول على مذهب الامامية، وكذا تحرير الفتاوى في الكتب الفقهية.

قال العلامة المجلسي في كتابه مرآة العقول:

١ ـ النجاشي /٢٧٣.
٢ ـ الكنى والألقاب ٢:٢٢.

(وهو المتبحّر والمطّلع على كثيرمن أصول القدماء وكتبهم).

إنَّ الافتاء لم يكن شايعاً في زمان الكليني، وماقبله بل كان مدارهم على نقل الأخبار، وكانت تصانيفهم مقصورة على جمعها وروايتها، مقصوده الشيعة الامامية وإلاَّ فالسنة كانت الفتاوى عندهم أكثرمن أن تحصى[1].

ومن علماء هذه المدرسة أبو منصور الصرّام النيشابوري المتكلّم المشهور صاحب كتاب «بيان الدين في الأصول» وله كتاب في ابطال القياس[2].

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي في الفهرست: قرأت على أبي حازم النيشابوري أكثر كتاب بيان الدين، وكان قدقرأه عليه، قال ورأيت ابنه أبا القاسم وكان فقيهاً وسبطه أبا الحسن، وعدّ من كتب أبي منصور بن وضاح كتاب «تفسير القرآن» وكتاب «ابطال القياس»... وعلى هذا فهو من أهل القرن الثالث، ومن أقران الكليني .

ومنهم: ابن داود وهو محمدبن أحمدبن داودبن علي بن الحسن شيخ هذه الطائفة وعالمها، وشيخ القمّيين في وقته وفقيهم، يعرف بابن داود كثير العلم، كثير التصنيف، له في مسائل أصول الفقه كتاب «مسائل الحديثين المختلفين» توفي سنة ثمان وستين وثلثمائة، ودفن بمقابر قريش كما في فهرست النجاشي وغيره من كتب الامامية[3].

الشيخ المفيد:

و(منهم): أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقّب بـ«المفيد» البغدادي (٣٣٦-٤١٣).

قال النجاشي... شيخنا وأستاذنا رضي الله عنه فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والثقة والعلم، له كتب (وعدّ منها) كتاب في القياس، وكتاب مسألة في القياس مختصر، وكتاب الاعلام جواب المسائل في اختلاف

١ ـ أدوار علم الفقه وأطواره لكاشف الغطاء /٢٢٨.

٢ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام /٣١٢-٣٣٣.

٣ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام /٣١٢.

الأخبار، كتاب النكت في مقدمات الأصول[١].

وقال العلامة المحقّق اغابزرك: أصول الفقه للشيخ المفيد أبي عبدالله محمدبن محمدبن النعمان الحارثي البغدادي المتوفى سنة (٤١٣)، ذكره النجاشي، ورواه عنه العلامة الكراجكي، وأدرجه مختصراً في كتابه كنز الفوائد المطبوع، وهو مشتمل على تمام مباحث الأصول على الاختصار[٢].

وهذه الرسالة طبعت في ضمن كتاب كنز الفوائد/ ١٨٦-١٩٤. وقال السيد هبةالدين الشهرستاني في ترجمة المفيد: فهو نابغة العراق ورئيس شيعته على الاطلاق، ولد في الحادي عشر من ذي القعدة سنة ست وثلاثين أو ثمان وثلثين وثلثمائة، وتوفي ليلة الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان سنة (٤١٣)هـ. وقدكان في الشيعة عرقها النابض و بطلها الناهض، ودماغها المفكر ورئيسها المدبّر، معروفاً بالصلاح بل غرة رجال الاصلاح، والخطيب المصقع والمتكلّم المفوه، والمنافح اللسن والفصل المشترك بين الامام والرعية، ليس في ختام المائة الرابعة فحسب بل حتى اليوم.

كانت داره بالكرخ من بغداد دائرة للمعارف العالية، ومدرسة للفنون العربية الراقية، وحسبك ان قدتخرج منها أمثال الشريفين الرضي والمرتضىٰ، وأبي جعفر الطوسي والنجاشي وخلق لايحصون، ولذلك لقب بمعلم الأعاظم وابن المعلم لقيامه كأبيه بتربية الاعلام، ولقبه بالمفيد علي بن عيسى الرماني النحوي عند تبرزه في الحجاج على خصومه أمثال أبي بكر الباقلاني قاضي قضاة بغداد وسائر أقطاب الهيئة العلمية. لقد كان المفيد مفيداً حقّاً، مفيداً في القول والعمل، مفيداً في الأفتكار والابتكار، آية في الذكاء وسرعة الخاطر و بداهة الجواب، حتى قال فيه أمثال الخطيب البغدادي انّه لوأراد أن يبرهن للخصم انّ الاسطوانة من الذهب وهي من الخشب لاستطاع.

اتّصل الشيخ المفيد بالدولة البويهية في عاصمتها بغداد في مبدء أمرها اتصالاً وثيق

١ ـ النجاشي /٢٨٤.
٢ ـ الذريعة ٢: ٢٠٩.

العرى[١] فقدّروا مكانته حقّ قدرها وأجروا الرواتب له ولتلاميذه، وخصّصوا له جامع «براثا» في منطقة الكرخ لوعظه واقامة الصلوة جمعة وجماعة، وله معهم نوادر وقضايا منشورة ومشهورة.

توجّهت إليه جماعة الامامية وانقادوا لرئاسته الدينية يوم كانت بغداد تموج بالفتن، قدأكلت قواهم الاحن، والشيعة يومئذ شيع وأحزاب تمزّقت شرّ ممزق، وتفرّقت الى ميمنة وعينية، وغلاة ومخمسة وزيدية واسماعيلية و...، فجمع المفيد بحسن سياسته آرائهم الى الوسط الذي يرجع اليه الغالي و يلحق به التالي، فاستعمل الرأي السديد وقبض على أمر الجماعة بيد من حديد، فلمّ شملهم بعد البداد، وقرّب قوماً من قوم بعد طول ابتعاد، وألغى الفوارق التافهة توطيداً للألفة، كما أخمد نوائر الفتن ومحى مآثر المبدعين، وقضى على أقطاب الضلالة وأخرس شقاشقهم فاتخذ لتخفيف وطئة انتشار الضلال طريقة اختصار بعض الكتب، وتلخيص بعضها، وردّ جملة منها بالحجج الدامغة واختصار بعض المسانيد المؤثرة وتقرأ في ترجمته المفصلة في كتب التراجم ككتاب «الرجال ـ ص٢٨٣ـ٢٨٧» لتلميذه أبي العباس النجاشي المتوفى سنة (٤٥١)هـ و«خاتمة مستدرك الوسائل ـص٥١٧ـ٥٢١» للشيخ النوري المتوفى سنة (١٣٢٠)هـ، أعماله الغرّ وأسماء مؤلفاته البالغة فوق المئتين كتاباً.

أجل وضع المفيد للمجموعة الشيعية كتب نافعة مقنعة لواقتصروا على دراستها لأغنتهم...[٢]، ومن كتب المفيد «المقنعة» الذي بيّن مصادره وذكر أدلته من الأخبار والأحاديث الشيخ الطوسي وأسماه بالتهذيب، أحد الكتب الأربعة للشيعة.

(مشايخه في العلم والرواية):

قد قرأ على جمع كثيرمن العلماء ورواة الآثار، وسائر رجال العلم من الفريقين من أشهرهم من رجال الخاصة أبو القاسم جعفر بن محمدبن قولو يه القمّي، والشيخ

١ ـ ومن جلالة قدر المفيد في الأوساط الدينية انّه كان يزوره عضد الدولة.

٢ ـ مقدمة شرح عقائد الصدوق أو تصحيح الاعتقاد للشهرستاني.

الصدوق أبو جعفر بن بابويه، وأبو الحسن أحمد بن الوليد، وأبوغالب الزراري، وأبو علي بن الجنيد الفقيه المعروف وغيرهم.

وأبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، وأبو بكر الجعابي، والشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بن ظاهر الموسوي وغيره من رجال الجمهور، وقد استقصى أهل الرجال مشايخه الذين يزيدون على أربعين شخصاً من رجال الخاصة و العامة.

(تلامذته):

وقد تتلمذ عليه وأخذ عنه العلم كثير من أعلام العلم أشهرهم الشريفان الجليلان الرضي محمد بن الحسين، وأخوه السيد الجليل المرتضى، وشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، وأبو الفتح محمد بن علي الكراجكي، وأبو يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري، وجعفر بن محمد الدوريستي، وأحمد بن علي المعروف بابن الكوفي وغيرهم ممن يجده المراجع لفهارس الرجال.

(مناظراته مع المخالفين)

كان للشيخ المفيد مناظرات كثيرة مع كثير من متكلّمي الفرق المختلفة، وكان يناظر أهل كلّ عقيدة، وقد جمع مناظراته ومحاسن مجالسه ومختار كلامه في كتابه «العيون والمحاسن» وقد لخّصه تلميذه الشريف المرتضى وسمّاه بـ«الفصول المختارة».

توفي «قدس سرّه» في ليلة الجمعة ٣ شهر رمضان وصلّى عليه الشريف المرتضى، ودفن في داره سنين ثمّ نقل الى المشهد الشريف الكاظمي الى جانب شيخه أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه.

السيد المرتضى:

لقد برز في مدرسة شيخنا المفيد رجال وعباقرة في العلم منهم:

السيد الأجل المرتضى علم الهدى، قال العلامة الطهراني في ترجمته:

علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن ابراهيم بن الامام موسى الكاظم «ع» السيد الشريف المرتضى علم الهدى أبو القاسم أخو الشريف الرضي الأكبر منه فانّه ولد (٣٥٥) وولد الرضي (٣٥٩)، وتوفي المرتضى في الثمانين من عمره في (٤٣٦)، و يقال له: الثمانيني. كان عماد الشيعة، ونقيب الطالبيين ببغداد، وأمير الحاج والمظالم بعد أخيه الرضي، وهو منصب والدهما.

وكان يدرّ على تلاميذه، فعلى أبي جعفر الطوسي يدر كلّ شهر اثنى عشر ديناراً، وعلى القاضي ابن البرّاج ثمانية دنانير، وعمدة مشايخه المفيد، ومع ذلك فقد روى هو عن بعض مشايخ المفيد أيضاً،

منهم: أبو عبدالله محمد بن عمران المرزباني البغدادي المتوفى (٣٧٨)، فانّه يروي عنه كثيراً، منها «حديث خطبة الزهراء«ع»»، رواه عنه في «الشافي»[١].

وقال السيد حسن الصدر (رحمه الله):

صنّف في علم أصول الفقه كتباً عديدة، منها «الذريعة في علم أصول الشريعة» في جزئين لم يصنّف مثله جمعاً ولا تحقيقاً، استوفى فيه كلّ مباحثه، وتعرّض لنقل الأقوال في مسائله، وحقّق الحقّ فيها، وكان هذا الكتاب هو المرجع في هذا العلم، والذي يقرؤه الناس الى زمان المحقّق نجم الدين الحلّي، فلمّا صنّف «المعارج» وكان كتابه سهل العبارة والمأخذ عكفت الطلبة عليه، وإن كان كتاب السيد المسمّى بـ«الذريعة» الى اليوم من أشهر الكتب في أصول الفقه عند الشيعة وأحسنها، ومنها كتاب «المسائل الخلاف» في أصول الفقه، وكتاب «ابطال القياس»، وغير ذلك

١ ـ طبقات أعلام الشيعة «النابس في القرن الخامس» /١٢٠.

استقصاها الشيخ أبو جعفر الطوسي في كتاب «الفهرست»[١].

فلم يكن قبل السيد في أصول الفقه إلاّ رسائل مختصرة، فلمّا أن جاء دور السيد فألّف كتاب «الذريعة» في الأصول سنة (٤٣٠) كما في «الذريعة لاغابزرك» فكان هذا الكتاب حاوياً لأمّهات مسائل (هذا العلم) قال في أوّله: انّي رأيت أن أملي كتاباً متوسطاً في أصول الفقه، لاينتهي بتطويل الى الاضلال، ولاباختصار الى الاخلال... وأخص مسائل الخلاف بالاستيفاء، فان مسائل الوفاق يقل الحاجة فيها الى ذلك.

وقد حرّره العلامة الحلّي وسمّاه «النكت البديعة في تحرير الذريعة». ولخّصه فريد خراسان أبي الحسن علي بن أبي القاسم زيدبن محمد البيهقي (٤٩٩-٥٦٥) وسمّاه «تلخيص مسائل الذريعة». وقد كتبوا له شروحاً:

(منها) «شرح مسائل الذريعة» للشيخ عمادالدين الطبري مؤلف «بشارة المصطفى». و(منها) شرح السيد كمال الدين المرتضى بن المنتهى بن الحسين بن علي الحسيني المرعشي من مشايخ الشيخ منتجب الدين[٢]، ومن أهم مؤلفات السيد انّه ألّف في أصول الدين «الشافي» ألّفه في نقد كتاب «المغني من الحجاج» للقاضي عبدالجبار المعتزلي كان معاصراً للسيد.

ولخّصه الشيخ الطوسي وسمّاه بـ«تلخيص الشافي» بحث فيه: الفروق بين الزيدية والامامية، والمعتزلة والامامية، وتكذيب مايتّهم به الامامية من القول بزيادة علم الامام على النبي، والقول بأنّه لولاالامام ماقامت السموات، واتهامهم بدعواهم انّ المعارف كلّها ضرورية، ورأي الامامية في البداء، والفرق بين الاجماع لدى الامامية وغيرهم، وعدم وجوب علم الامام بالبواطن ممّالايجب العلم به[٣].

وألّف في فروع الفقه «الناصريات» فهويشتمل على (٢٠٧) مسألة، بين فقهية وعقائدية، وهي شرح ونقد وتسديد لفقه جدّه «الحسن الأطرش» صاحب الديلم

١ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام /٣١٢.
٢ـ الذريعة لاغابزرك ١٠:٢٦.
٣ـ أدب المرتضى /١٣٧.

وطبرستان، ومن خواص هذا الكتاب فيه دراسة مقارنة بين مختلف المذاهب وبخاصة المذهبان: الزيدي، والامامي الاثنى عشري.

وله في الفقه أيضاً «الانتصار» وهو كتاب في الفقه المقارن، بحث فيه المسائل التي انفردت به الامامية من مسائل الفقه، أو ماظنّ انفرادها به. قال في مقدمته:

وبعد فاني محتمل مارسمته الحضرة السامية الوزيرية العميدية أدام الله سلطانها وأعلى شأنها من بيان المسائل الفقهية، التي يشنع بها الامامية، وادّعى عليهم فيها مخالفة الاجماع، وأكثرها يوافق الشيعة غيرهم من العلماء والفقهاء، المتقدمين والمتأخرين، وماليس لهم فيه موافق فعليه من الأدلة الواضحة، والحجج اللائحة، ومايغني عن وفاق الموافق، ولايوحش معه خلاف المخالف. والكتاب يشمل على أكثر من (٣٢٦) مسألة.

وترجع أهمّيته الى أمرين: تاريخي، نظراً لسبقه على جميع كتب الخلاف والفقه المقارن لدى الامامية، وعلمي، نظراً الى قوة الحجة التي دعم بها السيد فقه الامامية.

وللسيد آثار علمية أخرى متنوعة بين كتاب يقع في مجلدات، ورسالة في وريقات، تبلغ الثمانين فيماعدّه المؤرخون.

وممّا حضى به السيد عناية الفقهاء الامامية ومتكلّميهم بحفظ كتبه منذ ساعة التأليف، ولقدتلقاها تلاميذه عنه قراءةً وسماعاً، وأشاعوها بين الناس، وألّفوا من أجلها الكتب، ثمّ احتضنتها الاجازات المتعاقبة، فتناولتها يداً بيد وفماً لفم، ولقدذكر السيد صورة كتبه ومؤلفاته في اجازة له لتلميذه «أبي الحسن محمدبن محمد البصروي الفقيه» وكان ذلك عام (٤١٧) للهجرة، وصورة الاجازة موجودة الآن في خزانة مكتبة الرضا«ع» في خراسان[١].

«الذريعة»

كتاب في أصول الفقه يشتمل على أربعة عشر باباً، كلّ باب يحتوي على عدة فصول، وبعض المسائل التي جاء البحث عنها:

١ ـ فهرس مكتبة الرضا«ع» المخطوطة ٢:٣٩ باب الفقه.

الخطاب، الأمر والنهي، العموم والخصوص، المجمل والمبيّن، النسخ، الاجماع، القياس، الاجتهاد والتقليد، الحظر والاباحة، النافي، الاستصحاب.

ترجع أهمية هذا السفر الجليل الى أمرين:

الأول: كون المؤلف حاول الفصل في مباحثه بين ماهو من أصول الفقه، و بين ماهو من أصول العقائد، وقدكان أصول الفقه من قبل ذلك مزيجاً من الطرفين، كما أشار الى ذلك في أوّل الكتاب.

وطريقة بحث السيد في هذا الكتاب ان يذكر:

١ ـ آراء علماء السنة في كلّ مسألة، و يذكر أدلتهم تفصيلاً.

٢ ـ ثمّ يحاول مناقشة تلك الأدلة ونقدها.

٣ ـ ثمّ بعد ذلك يبرهن على ماهو مختاره في تلك المسألة مع تحقيق كاف و واف.

٤ ـ كما انّه يوافق أحياناً نظر علماء السنة و يؤيد أدلتهم في المسألة، وقديذكر اضافة الى ماذكروه أدلة أخرى تأييداً لمايختار.

الثاني: انّه أوّل كتاب في أصول الفقه للامامية، فقدكانت لهم قبل ذلك رسائل متفرقة تعتمد في مصادرها على أصول فقه السنة، فهو بهذا يؤرّخ مرحلة استقلال الامامية في اصول الفقه.

ولا تزال آراء السيد الأصولية محل دراسة في مدارس الشيعة وحوزاتهم حتى اليوم.

دور السيد في التقدّم الفكري الشيعي:

وقد بدأت عملية الاجتهاد ـ بمعنى النظر الشخصي في الأدلة ـ في الثنايا الأولى للقرن الرابع الأولى على يد «العماني» و«ابن الجنيد».... مع قيام الطبقة الراوية المحدثة كمحمد بن بابويه القمّي.

وكان عزيزاً على المحدثين من الامامية أن يقوم هؤلاء بجرد أخبار آل البيت، و يفحصها فحصاً علمياً، ولكن «المرتضى» أعلن منهجه في البحث... ورأيه في ذلك الركام الخليط، وانبرى الى نفي كلّ ماعلّق بأخبار الامامية: من الغلو، والجبر، والتجسيم، والتشبيه، والى تحديد الفرق بين الطائفة الشيعية الامامية، والطوائف

الشيعية الأخرى: كالزيدية، والاسماعيلية، والواقفية، وادخل الاجتهاد وحق النظر فيماورد من أحاديث الفقه الامامي، وأسس له أصولاً لفظية وعقلية يعتمد عليها في فهم تلك النصوص، وهي أصول سبق لأئمة أهل السنة ان حرروها وبحثوها ولم يكن للامامية فيها نصيب، ولكن «العماني» و«ابن الجنيد» قبل السيد «المرتضى» بقليل التفتا الى خطر هذا الفنّ في معرفة الأحكام الشرعية، وتابعهما «المرتضى» وزاد، فكانت أصوله تتفق كثيراً مع أصول العامة وتختلف معها فيما يمكن أن يتعارض مع أصول المذهب الامامي، فلم يقبل اجماعاً ولاقياساً في حدود ماألّفت العامة، وقبل القياس في حدود العلة المنصوصية، وله في ذلك رسائل متناثرة وكتب أهمّها: كتاب «الذخيرة» وألّف في الفقه المقارن فوازن بين مذهبه محتجاً له، و بين المذاهب الأخرى محتجاً عليها، وله في ذلك كتب أهمّها: «الانتصار» و«الناصريات» وفرّق بين الامامية والمعتزلة ـوقدكان المذهب الامامي يلتقي كثيراً مع الاعتزال حتى لقديقل ان تجد امامياً غير معتزلي، وطالما طعن المعتزلة بالرفض ـ.

ولكنّه حاول محاولات كثيرة الى الفصل بين الاعتزال والمذهب الامامي، وأشار الى مواطن التقائهم وخلافهم.

ولقدكان الامامية في ذلك العصر على شيء كثير من التوثّب الذهني، واليقظة العقلية، وعلى كثير من الالتفات الى أصول مذهبهم، ومايؤخذ عليها من جرح ونقد وطعن، فكانوا كثيري التساؤل، كثيري الاعتراض على صنيع السيد الجديد في أصول المذهب، ولهذا أكثروا ونوعوا الأسئلة، وكان يجيب عليها بمايجلو لهم الشبه و يزيل الشكوك [1].

العناية الخاصة تشمل السيد:

وكيف لايكون السيد في هذه المكانة السامية، والدرجة الرفيعة؟ مع نيله العناية الخاصة من قبل أهل البيت«ع»، وممّايشهد بهذه العناية انّ الشيخ المفيد رأى في

١ ـ أدب المرتضى /٥٩.

حلمه انَّ «فاطمة الزهراء» بنت رسول الله«ص» دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها «الحسن والحسين» صغيرين، فاسلمتهما اليه وقالت: علّمهما الفقه، فانتبه الشيخ عجباً، فلمّا تعالى النهار صبيحة تلك الليلة، دخلت عليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها و بين يديها أبناها «علي المرتضى» و«محمد الرضي» صغيرين، فقام إليها، وسلّم عليها، فقالت له: أيّها الشيخ هذان ولداي قدأحضرتهما إليك لتعلّمهما الفقه، فبكى الشيخ وقصَّ عليها الرؤ يا، وتولّى تعليمهما[1].

وتشمله العناية أيضاً من جدّه أمير المؤمنين«ع».

فانّه لـمّامرض الوزير «أبو سعيد محمدبن عبدالرحيم» سنة (٤٢٠) رأى الامام علياً«ع» في المنام يقول له: قل لـ«علم الهدى» يقرأ عليك الفاتحة حتى تبرأ، فقال: ياأميرالمؤمنين ومن علم الهدى؟ قال: علي بن الحسين الموسوي، فكتب اليه الوزير، فقال المرتضى: الله الله في امري، فان قبولي لهذا اللقب شناعة عليَّ، فقال الوزير: والله ماأكتب إليك إلاّ ماأمرني به أميرالمؤمنين«ع».

فسمع «القادر بالله» بالقصة، فكتب الى المرتضى: تقبّل مالقّبك به جدّك فقبل[2].

مكانته الاجتماعية والعلمية:

بدأ الشريف «المرتضى» يبرز للمجتمع البغدادي في حياة أبيه «أبي أحمد» إذ عيّن نائباً عنه في نقابة الطالبيين، والنظر في المظالم، وامارة الحج وهو شاب فتى لم يتجاوز خمسة وعشرين عاماً.

ومكانة السيد العلمية غنية عن البيان، إذ لاشك في انَّ السيد المرتضى أحد أعلام الشيعة الامامية، وممّايشار اليه بالبنان، و يعد من الذين كان لهم السهم الكبير، والحظ الأوفى في إحياء معالم المذهب الامامي، ومكافحة الأفكار المعادية للفكر

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤:١ وروضات الجنات ٣٨٣:٢.
٢ ـ روضات الجنات ٣٨٣:٢.

الشيعي في التاريخ.

وممّا اختصّ به السيد وامتاز به عن غيره:

١ ـ يظهر من تصانيفه وكتبه ورسائله انّه كان استاذاً ماهراً، في علم الكلام، والفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والفلسفة الإلهية، والفلك، وأنواع الأدب العربي من: اللغة، والنحو، والمعاني والبيان، والشعر والعلوم المتداولة في عصره.

٢ ـ خدم المذهب الامامي خدمة كبيرة من حيث الثقافة ونشر المعارف والأفكار الشيعية في الأوساط المختلفة.

٣ ـ كانت طريقة السيد في أصول الفقه متابعة دليل العقل، وخالف في ذلك طريقة الاشاعرة، وكذا الظاهرية من الامامية.

٤ ـ ذهب السيد الى عدم جواز العمل بخبر الواحد في المسائل الفقهية، كما انّه كان يستفيد في عملية الاستنباط من الأدلة الأصولية لفظية وعقلية، ومع عمله هذا كان يخالف المحدثين والاخباريين من الشيعة.

٥ ـ كان المفيد الأستاذ الأعظم للسيد، وكان هو المرجع الوحيد للشيعة، وكان المفيد يجلس السيد بمكانه، و يودّ أن يجلس كتلميذ أمام السيد تقريراً لمكانته العلمية، وان يمهد له المجال لكي يتخلف بعده في الزعامة.

٦ ـ كان مجلس السيد محلاً ومركزاً ثقافياً، ومجمعاً علمياً لنشر الأبحاث الكلامية والفقهية والأدبية.

لمّا زار أبو العلاء المعرّي المتوفى سنة (٤٤٩) بغداد كان يرتاد مجلس السيد وحصل بينهما كلام وهو مذكور في كتاب روضات الجنات. وكان يحضر مجلس السيد أبو اسحاق الصابي المتوفى سنة (٣٨٤). وعثمان بن جني المتوفى سنة (٣٩٢).

٧ ـ خلّف السيد ثمانين ألفاً من الكتب المقروءة له، أو من مصنّفاته، نقل عن الثعالبي انّه من بعد توزيع واهداء قسم مهم من كتب السيد على الرؤساء والوزراء سعّر بقية كتبه بثلاثين ألف ديناراً.

وكان يلقّب السيد بـ«ذوالثمانين» أو «الثمانيني» لأنّه كانت له مكتبة تضمّ ثمانين ألفاً من الكتب، وكان يملك ثمانين قرية، وكان له من العمر ثمانين سنة،

وكانت مصنفات السيد تبلغ ثمانين كتاباً ورسالة.

ومارس السيد طيلة حياته التي عاشها ـ و بلغت الثمانين ـ في التأليف وانجاز المشاريع الكبيرة، وكان بجانب ذلك مرجعاً يلجأ اليه في الأمور السياسية والاجتماعية.

وتصدى لغسله ودفنه جماعة من تلاميذه منهم:

«أحمد بن الحسين النجاشي» صاحب الرجال المعروف.

والشريف «أبويعلي محمد بن الحسن الجعفري».

و«سلاّر بن عبد العزيز»، وصلّى عليه في داره ابنه في محلة الكرخ، ودفن من ليلته، وله قبر يزار و يتبرّك به بجوار حرم جدّه الامام موسى بن جعفر«ع».

ومن المسائل التي عرفت عن السيد، واشتهر بها ذهابه الى عدم جواز التعبّد بخبر الواحد شرعاً، وإن كان قدحكم العقل في جواز التعبّد بذلك.

ولأهميّة هذا البحث نذكر مذهب السيد وأدلّته التي ذكرها، ثمّ المناقشة التي ذكرت من مخالفيه، وكذا نذكر أدلة المجوّزين وإليك تفصيل ذلك:

السيد وعدم عمله بخبر الواحد:

قال: الصحيح انَّ العبادة وردت بذلك (أراد التعبّد بخبر الواحد). وإن كان العقل يجوّز التعبّد بذلك وغير محيل له....

والذي يدلّ على صحة ماذهبنا اليه انّه لاخلاف بيننا و بين محصلي مخالفينا في هذه المسألة انَّ العبادة بقبول خبر الواحد والعمل به طريقة الشرع والمصالح، فجرى مجرى سائر العبادات الشرعية في اتباع المصلحة، وانَّ العقل غير دال عليه، واذا فقدنا في أدلة الشرع مايدلّ على وجوب العمل به علمنا انتفاء العبادة به، كما نقول في سائر الشرعيات والعبادات الزائدة على ماأثبتناه وعلمناه....[١]

فبنى على الأصل المسلم عنده ـ وهو: «الشك في حجية شيء يساوي القطع

---

١ ـ الذريعة للسيد المرتضى ٢:٥٢٨ـ٥٢٩.

بعدمه)) ـ عدم حجية خبر الواحد، ولأجل ذلك يرى نفسه غنياً عن البحث عن مسألة التعارض والترجيح، والتخيير، وكذا قبول أورد المراسيل وغير ذلك من المسائل المتفرعة عن خبر الواحد.

قال: اعلم انّا اذا كنّا قددللنا على انّ خبر الواحد غير مقبول في الأحكام الشرعية، فلاوجه لكلامنا في فروع هذا الأصل الذي دللنا على بطلانه، لأنَّ الفرع تابع لأصله، فلاحاجة بنا الى الكلام على انَّ المراسيل مقبولة أو مردودة، ولاعلى وجه ترجيح بعض الأخبار على بعض، وفيما يرد له الخبر أو لايرد في تعارض الأخبار، فذلك كلّه شغل قدسقط عنّا بابطالنا ماهو أصل لهذه الفروع، وإنّما يتكلّف الكلام على هذه الفروع من ذهب الى صحة أصلها، وهو العمل بخبر الواحد....[١]

الأدلة لمذهب السيد:

واستدلّ لمذهب السيد ومن تبعه من المنكرين لحجية خبر الواحد بوجوه:

١ ـ دعوى الاجماع على عدم حجية الخبر.

٢ ـ الروايات الناهية عن العمل بالخبر المخالف للكتاب والسنة، والخبر الذي لايكون عليه شاهد أو شاهدان من كتاب الله أو سنّة نبيّه((ص))، وهذه الروايات كثيرة متواترة اجمالاً.

ووجه دلالتها أيضاً واضح، إذ من المعلوم انَّ أغلب الروايات التي بأيدينا ليس عليها شاهد من كتاب الله، ولامن السنة القطعية، وإلاّ لمااحتجنا الى التمسّك بالخبر.

٣ ـ الآيات الناهية عن العمل بغير العلم، كقوله تعالى: ((ولا تقف ماليس لك به علم))[٢].

وقوله تعالى: ((إنَّ الظنَّ لايغني عن الحقّ شيئاً))[٣].

١ ـ الذريعة للسيد المرتضى ٢:٥٥٤ـ٥٥٥.

٢ ـ سورة بني اسرائيل (١٧):٣٦.

٣ ـ سورة يونس (١٠):٣٦.

أشكل على الدليل الأوّل انَّ الاجماع المنقول هو من أفراد خبر الواحد ـ بل من أخسّ أفراده باعتبار كونه اخباراً حدسياً عن قول المعصوم«ع» بخلاف خبر الواحد المصطلح، فانّه اخبار حدسي ـ وعليه فمن عدم حجية الخبر يثبت عدم حجية الاجماع المنقول بالأولوية، فكيف يمكن نفي حجية خبر الواحد بالاجماع المنقول؟

وثانياً: كيف يمكن الاعتماد على دعوى الاجماع؟ مع ذهاب المشهور من القدماء والمتأخرين الى حجية الخبر!

أمّا الدليل الثاني فأجيب عنه: انَّ الروايات التي استدل بها على عدم حجية خبر الواحد والنهي عن العمل به على طائفتين:

الطائفة الأولى: الاخبار الدالة على انَّ الخبر المخالف للكتاب «باطل» أو «زخرف»، أو «اضربوه على الجدار»، أو «لم نقله»، الى غير ذلك من التعبيرات الدالة على عدم حجية الخبر المخالف للكتاب والسنة القطعية.

لكن المراد من المخالفة في هذه الاخبار: هي المخالفة بنحو لايكون بين الخبر والكتاب جمع عرفي، كما إذا كان الخبر مخالفاً للكتاب بنحو التباين، أو العموم من وجه، وهذا النوع من الخبر خارج عن محل الكلام. لأنّه غير حجة بلااشكال.

وأمّا الاخبار المخالفة للكتاب والسنة بنحو التخصيص، أو التقييد فليست مشمولة لهذه الطائفة، للعلم بصدور المخصص لعمومات الكتاب، والمقيد لاطلاقاته عنهم«ع» كثيراً.

والحاصل: انَّ الخبر المخصص لعموم الكتاب، أو المقيد لاطلاقاته لايعدّ مخالفاً له في نظر العرف، فالمراد من المخالفة في هذه الطائفة: هي المخالفة بنحو التباين، أو العموم من وجه.

الطائفة الثانية: هي الاخبار الدالة على المنع عن العمل بالخبر الذي لايكون عليه شاهد، أو شاهدان من كتاب الله، أو من سنة نبيّه«ص» لكن هذه الطائفة أيضاً لايمكن الأخذ بظاهرها للعلم بصدور الاخبار التي لاشاهد لها من الكتاب والسنة، بل هي مخصصة لعموماتها ومقيدة لاطلاقاتها على ماتقدّمت الاشارة اليه، فلابدّ من حمل هذه الطائفة: على صورة التعارض، كما هو صريح في بعضها.

وأمّا الدليل الثالث أجيب عنه:

أولاً: انَّ مفاد الآيات الشريفة ارشاد الى حكم العقل بوجوب تحصيل العلم بالمؤمن من العقاب، وعدم جواز الاكتفاء بالظنّ به، بملاك وجوب دفع الضرر المحتمل إن كان أخرو ياً، فلادلالة لها على عدم حجية الخبر أصلاً.

وثانياً: انّه على تقدير تسليم انَّ مفادها الحكم المولوي، وهو حرمة العمل بالظنّ كانت أدلة حجيّة الخبر حاكمة على تلك الآيات، فانَّ مفادها جعل الخبر طريقاً بتتميم الكشف، فيكون خبر الثقة علماً بالتعبّد الشرعي، و يكون خارجاً عن الآيات الناهية عن العمل بغير العلم موضوعاً.

هذا بناءاً على أنَّ المجعول في باب الطرق والامارات هي الطريقية... وأمّا بناءاً على أنَّ المجعول هو الحكم الظاهري مطابقاً لمؤدّى الامارة وانَّ الشارع لم يعتبر الامارة علماً، فانَّ النسبة بينها و بين الآيات هي العموم المطلق، إذ مفاد الآيات عدم حجيّة غير العلم من خبر الثقة وغيره في أصول الدين وفروعه، فتكون أدلة حجية خبر الثقة أخصّ منها، و بالجملة فانَّ أدلة حجّية خبر الثقة متقدمة على الآيات الشريفة امّا بالحكومة أو بالتخصيص[١].

أدلة المجوّزين للعمل بالخبر الواحد:

استدلَّ القائلون بحجيّة الخبر أيضاً بأمور:

الأول: آية النبأ وهي قوله تعالى: إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين[٢].

تقريب الاستدلال بهذه الآية بوجوه:

الأول: قال المحقق الأنصاري ماملخّصه:

انَّ خبر الفاسق له جهتان الأول: جهة ذاتيّة، وهي كونه خبر الواحد، فالواحدية

١ ـ مصباح الأصول لسيد سرور ٢: ١٥٢.

٢ ـ سورة الحجرات (٤٩): ٦.

جهة ذاتية للخبر الذي جاء به الفاسق.

الثاني: جهة عرضية، وهي كونه خبر الفاسق، فالفسق ليس ذاتي للانسان الفاسق، ووجوب التبيّن معلّق في الآية على الجهة الثانية، وهي الجهة العرضية، فيستفاد انَّ وجوب التبيّن في خبر الفاسق لأجل فسقه، إذ لوكانت العلّة في وجوب التبيّن الجهة الذاتية لكان العدول عن الذاتي (أي خبر الواحد) الى العرضي (أي خبر الفاسق) قبيحاً وخارجاً عن طريق المحاورة العرفية.

التقريب الثاني في الاستدلال بالآية:

الاستدلال بمفهوم الشرط، قدعلّق وجوب التبيين في خبر الواحد لكون الجائي به فاسقاً، فعليه ينتفي المشروط وهو وجوب التبيّن عند انتفاء الشرط، كما هو المعمول في القضايا الشرطية.

وأيضاً لوكان الجائي بالخبر غير فاسق بل كان عادلاً فلايكون التبيّن واجباً.

التقريب الثالث في الاستدلال بالآية:

بمفهوم الوصف، أوجب تعالى التبيّن عن خبر الفاسق. ونعلم خارجاً انَّ التبيّن بما هو ليس من الواجبات النفسية، فلابدَّ أن يكون وجوب التبيّن في خبر الفاسق لأجل العمل وترتيب الأثر عليه.

فعليه يكون مقتضى التعليق على الوصف انَّ العمل بخبر غير الفاسق لايكون التبيّن عنه واجباً، وإلاَّ لكان التعليق بخبر الفاسق لغواً.

ثمَّ استدلّ القائلون بحجية خبر الواحد بآيات أخرى ذكر كثير منها المحقق الأنصاري في كتاب «فرائد الأصول».

الروايات التي استدلّ بها على حجية خبر الواحد:

استدلَّ على حجية الخبر أيضاً بروايات كثيرة، رتّبها المحقق الأنصاري على طوائف أربع:

الطائفة الأولى: الأخبار العلاجية الدالة على أنَّ حجية الأخبار في نفسها كانت

مفروغاً منها عند الأئمة«ع» وأصحابهم، وإنّما توقّفوا عن العمل من جهة المعارضة. فسألوا عن حكمها، ومن الواضح انّه ليس مورد الأخبار العلاجية الخبرين المقطوع صدورهما، لأنّ المرجّحات المذكورة فيها لا تناسب العلم بصدورهما، وانّ الظاهر من مثل قوله: «يأتي عنكم خبران متعارضان» كون السؤال عن مشكوكي الصدور، مضافاً الى أنّ وقوع المعارضة بين مقطوعي الصدور بعيد في نفسه.

الطائفة الثانية: الأخبار الآمرة بالرجوع الى أشخاص معيّنين من الرواة، كقوله«ع»: «إذا أردت الحديث فعليك بهذا الجالس» مشيراً الى زرارة، وقوله«ع»: «نعم -بعدما قال الراوي- أفيونس بن عبدالرحمن ثقة نأخذ معالم ديننا عنه؟»....

وقوله«ع»: «عليك بالأسدي» يعني أبا بصير.

وقوله«ع»: «عليك بزكريا بن آدم المأمون على الدين والدنيا» الى غير ذلك.

الطائفة الثالثة: الأخبار الآمرة بالرجوع الى الثقات، كقوله«ع»: «لاعذر لأحد في التشكيك فيمايرو يه ثقاتنا»...

الطائفة الرابعة: الأخبار الآمرة بحفظ الروايات واستماعها وضبطها والاهتمام بشأنها على السنة مختلفة، وقدذكرها صاحب الوسائل في الباب (٨) من أبواب كتاب القضاء، فراجع.

ثمّ انّ الاستدلال بهذه الأخبار متوقّف على ثبوت تواترها لتكون مقطوعة الصدور، وإلاّ فلايصحّ الاستدلال بها كما هو ظاهر، ولاينبغي الشك في انّها متواترة اجمالاً، بمعنى العلم بصدور بعضها عن المعصوم«ع»...

فتحصل انّ التواتر الاجمالي في هذه الطوائف الأربع من الأخبار غير قابل للانكار، ومقتضاه الالتزام بحجيّة الأخص منها المشتمل على جميع الخصوصيات المذكورة في هذه الأخبار، فيحكم بحجية الخبر الواحد لجميع تلك الخصوصيات باعتبار كونه القدر المتيقّن من هذه الأخبار الدالة على الحجية[1].

١ ـ مصباح الأصول لسيد سرور ٢: ١٩٢-١٩٣.

استدل بالاجماع على حجية الخبر:

واستدلّ أيضاً لحجية الخبر بالاجماع، وتقريره من وجوه:
أحدها: دعوى من تتبع فتاوى الأصحاب على الحجية من زماننا الى زمان الشيخ، فيكشف رضاه«ع» بذلك، و يقطع به، أو من تتبع الاجماعات المنقولة على الحجية....
ثانيها: دعوى اتفاق العلماء عملاً بل كافة المسلمين على العمل بالخبر الواحد في أمورهم الشرعية، كما يظهر من أخذ فتاوى المجتهدين من الناقلين لها...[١]

استدل بالسيرة العقلائية على حجية الخبر:

وممّا استدلّ به أيضاً لحجية الخبر سيرة العقلاء، قال المحقق الخراساني في بيان السيرة: وهو دعوى استقرار سيرة العقلاء من ذوي الأديان وغيرهم على العمل بخبر الثقة واستمرّت الى زماننا، ولم يردع عنه نبي ولاوصي نبيّ، ضرورة انّه لوكان لاشتهر و بان، ومن الواضح انّه يكشف عن رضاء الشارع به في الشرعيات أيضاً....[٢]

استدلّ بحكم العقل على حجيّة خبر الواحد:

وممّا استدلّ به أيضاً على حجية خبر الواحد حكم العقل وتقريبه بوجوه:
أحدها: انّه يعلم اجمالاً بصدور كثير ممّا بأيدينا من الأخبار من الأئمة الأطهار بمقدار واف بمعظم الفقه بحيث لوعلم تفصيلاً ذاك المقدار لانحلّ علمنا الإجمالي بثبوت التكاليف بين الروايات وسائر الامارات الى العلم التفصيلي بالتكاليف في مضامين الأخبار الصادرة المعلومة تفصيلاً والشك البدوي في ثبوت التكليف في مورد سائر

١ ـ كفاية الأصول للمحقق الخراساني ٢: ٩٧ـ٩٨.
٢ ـ الكفاية ٢: ٩٨.

الامارات الغير المعتبرة، ولازم ذلك لزوم العمل على وفق جميع الأخبار المثبتة، وجواز العلم على طبق النافي منها، فيما إذا لم يكن في المسألة أصل مثبت له من قاعدة الاشتغال أو الاستصحاب بناءاً على جريانه في أطراف ماعلم اجمالاً بانتقاض الحالة السابقة في بعضها، أو قيام امارة معتبرة على انتقاضها فيه، وإلاّ لاختصّ عدم جواز العمل على وفق النافي بما إذا كان على خلاف قاعدة الاشتغال...

ثانيها: ماذكره في الوافية مستدلاً على حجية الأخبار الموجودة في الكتب المعتمدة للشيعة كالكتب الأربعة مع عمل جمع به من غير ردّ ظاهر، وهو انّا نقطع ببقاء التكليف الى يوم القيامة، سيّما بالأصول الضرورية كالصلاة والزكاة والصوم والحجّ والمتاجر والأنكحة ونحوها، مع أنّ جلّ أجزائها وشرائطها وموانعها إنّما يثبت بالخبر الغير القطعي بحيث نقطع بخروج حقائق هذه الأمور عن كونها هذه الأمور عند ترك العمل بالخبر الواجب، ومن أنكر فإنّما ينكره باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان...[١].

تلامذة السيد المرتضى:

تربّى على يد السيد وتعلّم من مدرسته جماعة من أكابر علماء الطائفة منهم:

١ ـ محمد بن الحسن الطوسي رئيس الطائفة بعد السيد، وهو المهذّب للعقائد في الأصول والفروع، وكان السيد يجري له أيّام تلمذته في كلّ شهر اثنى عشر ديناراً، وقام مقامه بعد وفاته في زعامة الطائفة الامامية، وجدّد المذهب. وكان له كرسي الكلام في بغداد، ولم يعط هذا المقام إلاّ للمتوحد من أعلام العصر.

٢ ـ حمزة بن عبد العزيز الديلمي الملقّب بـ«سلاّر» المتوفى سنة (٤٦٣)، أحد أعاظم علماء الامامية، كان من خاصة أصحابه المعتمد عليهم في الفتوى، عيّنه نائباً عنه في البلاد الحلبية، كما كان ينوب عنه في التدريس.

٣ ـ القاضي «عبد العزيز بن البراج الطرابلسي» المتوفى سنة (٤٨١)، كان وجهاً من وجوه الامامية وفقهائهم تولّى القضاء بطرابلس عشرين سنة.

١ ـ كفاية الأصول ٢: ١٠٤ـ١٠٥.

٤ ـ «نظام الدين سليمان بن الحسن أو الحسين الصهرستي الديلمي» جلس مجلس المرتضى، وكان من أكابر تلاميذه.

٥ ـ «محمد بن علي أبو الفتح القاضي الكراجكي» مؤلف كتاب كنز الفوائد، المتوفى سنة (٤٤٩).

ملامح المدرسة الثانية:

انَّ دراستنا لتطوّرعلم الأصول في سيرها الطبيعي الذي مرَّ في مراحل متعددة. وكانت المرحلة الأولى هي الأساس لتقدّم هذا العلم في العصر الحاضر، وفيما يلي نستعرض مميّزات المدرسة الثانية وملامح هذه المرحلة وهي كما يلي:

أولاً: انتقل الفقه في هذه المرحلة من مجرد استعراض النصوص الشرعية من الكتاب والسنة الى معالجة هذه النصوص، واستخدام الأصول والقواعد، فقبل ذلك كانت مهمة الدراسة واستنباط الأحكام والاجتهاد في عصر الأئمة والى فترة من بعدهم مجرّد عرض النصوص والعمل على طبق مايفهمه منها أصحاب الحديث والرواة.

وأمّا في هذه المدرسة من عصر ابن الجنيد والعماني الى عصر الطوسي تحوّلت عملية الاستنباط الى عملية صناعية، ونلاحظ انَّ استنباط الحكم الشرعي في هذا العصر وفي هذه المدرسة مبتنية على أسس وقواعد خاصة، بالرغم من ذلك لم تكن قواعد الأصول التي تستخدم في عملية استنباط الأحكام الشرعية بالوضوح الكافي في هذه المدرسة.

وثانياً: نرى بوضوح انفصال البحث الفقهي عن البحث الأصولي، وأفراد كلّ من هذين بدراسات ومطالعات منفصلة، بعد أن كان المتعارف انَّ مسائل علم الأصول وعلم الفقه يبحثان معاً، و بعد مواصلة هذه الدراسات والبحوث المستمرة أصبح علم الأصول تدرس قواعده بصورة مستقلة، ممّا أتاح المجال لانفصال الأصول عن علم الفقه، وأدّى ذلك الى قيام علم مستقل باسم «علم الأصول».

«ولأوّل مرة في هذا الدور قام السيد المرتضى بمحاولة دراسة المسائل الأصولية منفصلة عن الفقه بصورة موضوعية، وتنقيح المسائل الأصولية في كتب ودراسات مستقلة.

إلاَّ انَّها كانت مع ذلك بدائية، ولم تتجاوز في غالب الأحوال مباحث الألفاظ الأوامر والنواهي، ودلالات هيئات الألفاظ وموادها»[١].

وثالثاً: في هذه المرحلة حاول السيد المرتضى الفصل بين ماهو من مباحث أصول الفقه، و بين ماهو من أصول العقائد، كما يشير الى ذلك كلام السيد في أول «الذريعة».

ورابعاً: ممَّا امتازت به هذه المرحلة نظرية السيد المرتضى واشتهاره بها، وهي ذهابه الى عدم جواز التعبّد بخبر الواحد شرعاً، وإن كان العقل يحكم بجواز التعبّد به، ونسب ذلك الى مذهب الامامية.

المبحث الثاني أهم الكتب الأصولية:

بعد أن تعرَّفنا على المدرسة الثانية وأهم رجالاتها، لابدَّ أن نشير الى أهم الكتب الأصولية التي كانت مدار البحث والتدريس في هذه المدرسة وهي كما يلي:

المتمسّك بحبل آل الرسول«ص»:

للشيخ المتكلِّم الفقيه أبي جعفر محمدبن الحسن بن علي بن أبي عقيل العماني، شيخ جعفر بن قولو يه.

قال عنه النجاشي: وهو كتاب مشهور في الطائفة، وقلَّماورد الحاج من خراسان إلاَّ طلب واشترى منه نسخاً؛ وسمعت شيخنا أبا عبدالله يكثر الثناء على هذا الرجل[٢]؛ و يقصد من شيخه الشيخ المفيد محمدبن محمدبن النعمان.

وقال العلامة في الخلاصة: انَّه مشهور، ونحن ننقل أقواله في كتبنا الفقهية[٣].

١ ـ مقدمة شرح اللمعة ١:٦٢.
٢ ـ رجال النجاشي /٣٥.
٣ ـ نقلاً عن الذريعة ١٧:٢٨٠.

أصول الفقه:

للشيخ المفيد أبي عبدالله محمدبن محمدبن النعمان الحارثي البغدادي المتوفى سنة (٤١٣).

ذكر النجاشي في رجاله، ورواه عنه العلامة الكراجكي، وأدرجه مختصراً في كتابه كنز الفوائد المطبوع، وهو مشتمل على تمام مباحث الأصول على نحو الاختصار[١].

الذريعة الى أصول الشريعة:

للشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة (٤٣٦) ألّفه عام (٤٣٠) مرتباً على فصول، قال في مقدمة الكتاب: انّي رأيت أن أملي كتاباً متوسطاً في أصول الفقه، لاينتهي بتطويل الى الاضلال ولاباختصار الى الاخلال... وأخصّ مسائل الخلاف بالاستيفاء والاستقصاء، فان مسائل الوفاق تقل الحاجة فيها الى ذلك... وقدوقع هذا الكتاب مورد عناية الأصحاب، وتناولته العلماء من لدن تأليفه حتى الآن، فكانوا يدرسونه و يباحثونه. وقدحرّره العلامة الحلي وسمّاه «النكت البديعة في تحرير الذريعة». ولخّصه فريد خراسان وسمّاه «تلخيص مسائل الذريعة». وقدكتبوا له شروحاً منها:

١ ـ شرح مسائل الذريعة للشيخ عماد الدين الطبري مؤلف بشارة الاسلام.

٢ ـ شرح السيد كمال الدين المرتضى بن المنتهى بن الحسن الحسيني المرعشي من مشايخ منتجب الدين[٢].

١ ـ ذكر في الذريعة ٢:٢٠٩.

٢ ـ الذريعة ١٠:٢٦.

المبحث الثالث المعاهد العلمية

مدرسة بغداد:

عندما كان المعهد الثقافي والعلمي في القرن الرابع مستقراً في قم لأسباب عديدة تحوّل هذا المكان الى بغداد.

وفيما يلي نذكر بعض الأسباب والعوامل التي أدّت الى ذلك:

١ ـ بلغت الدولة العباسية في هذا الوقت من الضعف ماجعلها تصرف النظر عن ملاحقتها للشيعة، خلافاً لما كانت عليه في أيّام قوتها، عند أول تأسيسها، حيث كان الشيعة مضطهدين على يد ملوك العباسيين الأوائل من أمثال المنصور والرشيد والمتوكل.

ولـمّا أحسّ فقهاء الشيعة وعلماؤهم بهذا الضعف، وحصول الفرصة لأداء وظيفتهم ورسالتهم، ونشر مذهب أهل البيت«ع» وفقههم،وانَّ المجال تيّسر لممارسة العمل العلمي بصورة علنية، وعدم قدرة المعادين لمذهب أهل البيت«ع»، ففي هذا المجال وجد علماء الامامية أحسن مكان لنشر ثقافتهم وفقه الشيعة في نفس العاصمة حيث كانت محلاً لاجتماع العلماء لكلّ المذاهب إلاَّ الشيعة، نتيجة لتلك المحاربة القاسية من قبل السلطات العباسية، فعندها أخذ زعماء الشيعة بغداد مستقراً لنشر مذهبهم.

٢ ـ ومن تلك الأسباب ظهور شخصيات ذات مكانة اجتماعية مرموقة بين الأوساط البغدادية كالشيخ المفيد، والسيد المرتضى، و بيوتات أخرى كانت تستغل وجهة خاصة، فمثل هذه الشخصيات العلمية الكبيرة في بغداد ونشأتهم بها، ومعرفتهم وصلتهم بسائر الطبقات تهيأت للشيعة فرصة لم تتيسر من قبل، فأخذ أولئك في نشر الفقه الجعفري، وتطوير الدراسة في هذه البلدة العظيمة ولأوّل مرّة قدّر للشيخ المفيد ـ الذي كان زعيم الشيعة في عصره ـ بأن يمهّد لبسط مدرسة أهل البيت«ع»

في بغداد، رغم المدارس المختلفة لجميع المذاهب، و بعدمضي عدة سنين أصبحت المدرسة الشيعية أوسع مدرسة فرضت نفسها بين الأوساط العلمية وتبلورت، فكانت هذه المدرسة أضخم المدارس الموجودة يومذاك وأعمقها جذوراً وأصولاً، وأكثرها تأصلاً واستعداداً، وأقومها في الاستدلال والاحتجاج في مقابل أعداء الاسلام وأعداء الفكرة الامامية.

فأخذ أمر هذه المدرسة يعلو بسرعة هائلة وأخذت تجلب أنظار الطلاب والمثقفين حولها، هذه المدرسة التي فرضت نفسها في العاصمة وتتقدم بذلك التقدم السريع.

فلم ينحصر تلامذة هذه المدرسة بطلاّب الشيعة فقط، فقدكان يحضر درس الشيخ الطوسي على مايذكره لنا التاريخ حوالي ثلا ثمائة مجتهد من الشيعة، ومن العامة وأهل السنة مالايحصى عددهم.[١]

وعظمت مدرسة الشيعة في بغداد بلغت الى حدّ لم تلفت نظر الباحثين والمحقّقين والطلبة فقط، بل وصل الأمر الى الفات نظر خلفاء العصر، فمثلاً نرى انَّ الخليفة القائم بأمر الله بن القادر بالله جعل للشيخ الطوسي كرسي الافادة والبحث، ونصبه لهذا المكان الرفيع، وكان لكرسي الافادة والكلام مقام كبير يومذاك في «بغداد»[٢].

وهذا يعني انَّ الشيخ الطوسي -الذي كان في عصره أكبر شخصية علمية ودينية يتزعّم قيادة الشيعة والمرجعية للطائفة -فرض وجود المدرسة الامامية- رغم ميول الجهاز المعادي، ورغم معارضات المذاهب الكلامية والفقهية الأخرى- على أجواء العراق الثقافية، التي كانت أكبر مركز ثقافي وعلمي في العالم الاسلامي يومذاك.

وألمع الشخصيات العلمية في هذه المدرسة: الشيخ المفيد، والسيد المرتضى، والشيخ الطوسي، وبما انَّا درسنا حياة هذه الشخصيات الكبيرة في المدرسة الأولى والثانية فلاداعي لأن نعيد ذلك.

وقدّر للمفيد والمرتضى والطوسي أن يفتحوا باب الاجتهاد المطلق والنظر والرأي

١ - راجع مقدمة التبيان للمحقق الطهراني أغابزرك.
٢- مقدمة اللمعة /٦٠.

في مدرسة الشيعة في بغداد، وأن يشاركوا في تنظيم مناهج الاستنباط والاجتهاد، و يأصلوا الأصول، و يضعوا مناهج البحث للأصول، و يفرّعوا المسائل، و يضعوا أصول الدراسة المقارنة والخلافية في الفقه، ومالى ذلك من الخدمات والتراث الذي مازال باقياً من أثر جهودهم الجبارة.

ملامح مدرسة بغداد:

وعند استعراضنا لمدرسة المدينة والكوفة وقم تبيّن مدى تقدّم هذه المدارس في العلوم الاسلامية، وكان التقدّم الملموس فيها في حدود استعراض السنة وتدوين الأحاديث، ولم نظفر من عملية الاجتهاد وابداء الآراء الجديدة في مجالات مختلفة، كما نلمس ذلك في مدرسة بغداد من بين البحوث المذكورة في كتب السيد والشيخ الطوسي، ويمكن عدّ هذه المرحلة بأنّها مرحلة التطوّر الحديث في العلوم الاسلامية في مدرسة أهل البيت، كما انَّ في استعراضنا للمدارس الأصولية الثلاثة لاحظنا مدى تأثير جهود زعماء المدرسة البغدادية في تأسيس المدرسة الأولى، كما انّه يمكن أن نعتبر تلك المدرسة اللبنة الأساسية لظهور المدرستين بعدها، ويمكن اثبات المميّزات في مدرسة بغداد:

١ ـ نرى الجهود تتواصل في هذه المدرسة في سبيل معالجة النصوص المدونة في المدارس السالفة، ولم يقتنعوا بجمعها وبحثها فقط، كما كانت الحالة سابقاً، فالبحوث تراها تنفصل جذرياً ولم تبحث المسائل بشكل مختلط، بل المسائل الفقهية انفصلت بدراسة خاصة عن المسائل الأصولية والكلامية، كما يتّضح ذلك من كتب السيد في الذريعة الذي أعدّه خاصة للمسائل الأصولية، وكما انَّ الشيخ الطوسي خصّص العدة لمسائل الأصول، بعد أن كان السلف يبحثون عن تلك المسائل بصورة موجزة واستطرادية لا بصورة منفصلة وشاملة.

٢ ـ انَّ المسائل الفقهية كانت على الأكثر نفس الأحاديث و بعين تلك الألفاظ المذكورة في الحديث، ولم تقع المسائل الفقهية في معرض البحث والنقاش في المدارس السابقة، وامّا في مدرسة بغداد ظهرت مدرسة فقهية حديثة لا ترتبط من حيث الصورة

بالمدارس السالفة، فلها طابعها الخاصّ وأخذها الفروع والمسائل التي لم تكن لها سابقة تعرض في هذه المدرسة، وكلّ ذلك لأجل اعمال قواعد الاجتهاد في الفقه، والمعالجة الصناعية لأدلة الأحكام واستعراض الأحاديث واستخراج فروع جديدة وقواعد عامة منها وعدم الاكتفاء بحدود المسائل المدونة، وعملية ابداع الفروع من الأصول توسّعت بصورة خاصة في كتب الشيخ الطوسي، و بالأخص منها المبسوط، وذكر الطوسي نفسه سبب تأليفه هذا الكتاب حيث يقول:

امّا بعد فانّي لاأزال أسمع معاشر مخالفينا من المتفقّهة والمنتسبين الى علم الفروع يستحقرون فقه أصحابنا الامامية و يستنزرونه، و ينسبونهم الى قلة الفروع وقلة المسائل[1].

يظهر انَّ اكتفاء علمائنا سلفاً بذكر النصوص وعدم استخراج الفروع كان سبباً لطعن المخالفين على الفقه الشيعي، فأوجب ذلك الى تأليف كتاب المبسوط وسدّ هذا الفراغ في الفقه الامامي.

٣ ـ والظاهرة الأخرى الملموسة من ملامح هذه المدرسة الدراسات المقارنة في مسائل الفقه والأصول والكلام، والعامل لحدوث هذه الظاهرة في ممارسةالعمل العلمي في مدرسة بغداد هي وجود المدارس الأخرى فيها، فكان من الطبيعي بعد ان فرضت المدرسة الشيعية في ذلك المحيط المملوء بمدارس تستبطن العداء لمدرسة أهل البيت ان تشتبك باثارة المسائل الخلافية، وكان نتيجة هذا الاصطدام بين المدرسة الامامية والمدارس المخالفة لها محاولة جديدة من فقهاء مدرسة الشيعة لافناد الشبهات الواردة من مخالفيهم، كما ترى ذلك في أوائل المقالات للمفيد وكتب السيد الكلامية، وفي اطار المسائل الفقهية أيضاً أخذ فقهاء الشيعة مقارنة المسائل الفقهية الخلافية ودرسها بصورة منفصلة عن البحث الفقهي المرسوم، فكان حصيلة هذه الدراسة كتاب الخلاف الذي ألفه الشيخ الطوسي في هذا المجال، فاستعرض الطوسي في كتابه الخلاف كلّ مسألة فقهية تخالف لمذهب أهل السنة وذكر مستند كلا الجانبين

١ ـ مقدمة كتاب المبسوط / ١-٢.

ونـاقش آراء المخـالـفين فيهـا واسـتنصار مذهب أهل البيت في تلك المسألة، وفي الفقه المقـارن كـتـب الـسـيد المرتضى كتاب الانتصار، كما ألّف المفيد كتاب الاعلام فيما اتفقت الامامية عليه من الأحكام ممّا اتفقت العامة على خلافهم فيه.

٤ ـ ومن ملامح مدرسة بغداد ظهور الاستدلال بالاجماع فيما لم يجد الفقيه في المسألة نصّاً، أو لم تتم سلامة النص سنداً ودلالة عنده، فلواجتمعت آراء فقهاء عصر واحد على أمر يكون ذلك دليلاً على الحكم في المسألة، إذ لايمكن قيام اجماع فقهاء العصر على أمر من دون وجود دلـيـل لـذلـك الحـكم، وتمسك الفقهاء في المدارس السابقة في ضمن استـدلالاتهـم في كـتبهـم بـالاجماع تجـدهـا نـادرة وفي مدرسة بغداد وفي كتب الشيخ الطوسي بصورة خاصة مملوءة.

والاجماع المـتـسـالم عند المتأخرين الذي يعتبر أحد الأدلة الأربعة هو ماأجمع علماء الـصـدر الأول الى الـشـيـخ الـطـوسي، على أمـر وذلـك لكونه يكشف عن دليل معتبر عـنـدهم، إذ مع شدة احتياطهم كيف يمكن أن يجمعوا على أمر لم يقم لديهم عليه دليل معتبر؟.



الفصل الثالث



المدرسة الثالثة

- أهم رجال هذه المدرسة
- النزعة الأخبارية
- الكتب الأصولية في هذه المدرسة
- المعاهد العلمية

المبحث الأول أهم رجال هذه المدرسة:

و بعد أن فرغنا من المدرسة الثانية، نشرع الآن في دراسة المدرسة الثالثة، فكما انَّ السيد المرتضى يعتبر العلامة الفارقة في المدرسة الثانية، فانَّ هناك رجلاً يمكن أن نعتبره العلامة الفارقة في المدرسة الثالثة.

الشيخ الطوسي:

حتـــى صـــارت آراؤه وأفكـاره محطاً للدراسة والنظر طوال قرون. وهو من الذين قال في حقّهم البحّاثة المحقّق الشيخ آغابزرك الطهراني «رحمه الله»: ارتسمت على كلّ أفق من آفاق العالم الاسلامي أسماء رجال معدودين امتازوا بمواهب وعبقريات، و بذلك ارتفعوا الى أقصى أفق هذا العالم، وسجّل أسماءهم التاريخ في زمرة جهابذة العلم، وتراهم كالنجوم اللامعة، والمصابيح الساطعة تضيء لأهل العلم والفضل، و يستفيدون من بحر علومهم كلّ على حسب مكانته وقدرته.

ومن اولئك الرجال المعدودين الذين خصّهم الله بعنايته على كثير ممّن خلق تفضيلاً.

الشيخ أبو جعفر «محمدبن الحسن بن علي الطوسي»، نسبة الى طوس من مدن

خراسان التي هي من أقدم بلاد فارس وأشهرها، وكانت ولا تزال من مراكز العلم ومعاهد الثقافة، لأنَّ فيها قبر الامام علي بن موسى الرضا«ع»، ثامن أئمة الشيعة الإ ثنى عشرية، وهي لذلك مهوىٰ أفئدتهم، يقصدونها من الأماكن الشاسعة والبلدان النائية.

وفيها خزانة كتب للامام الرضا«ع» يحقّ للعالم الاسلامي أن يعدّها من مفاخره.

ولد الطوسي في شهر رمضان سنة (٣٨٥) في بلدة طوس، وهاجر الى العراق فهبط بغداد في سنة (٤٠٨)، وكانت زعامة المذهب الجعفري فيها يومذاك لشيخ الأمة، وعلم الشيعة محمدبن محمد النعمان الشهير بـ«الشيخ المفيد»، فلازمه مدة حياته، ولم يفارقه، حتى اختار الله للأستاذ دار لقائه، في سنة (٤١٣)، فانتقلت زعامة المذهب وقيادة الطائفة الى تلميذ المفيد السيد المرتضى، فانحاز إليه الطوسي، وحضر دروسه ولازمه، وكان ممّن عنى به المرتضى، و بالغ في توجيهه وتلقينه، واهتمَّ به أكثر من سائر تلاميذه، لأجل القابلية الذي كان يراه فيه، وعيّن له في كلّ شهر اثنىٰ عشر ديناراً، وكان هذا المبلغ يومذاك له قيمة لم يعط لكلّ أحد، بل كان الطوسي متفرداً بهذا الراتب، و بقي ملازماً له طيلة ثلاثة وعشرين سنة، حتى توفى السيد سنة (٤٣٦)، فاستقلّ الطوسي في زعامة المذهب وقيادة الطائفة، وأصبح علماً للشيعة، ومناراً للشريعة، يقصده أهل الفضل والعلم من كلّ صوب ومكان، وكانت داره في الكرخ مأوى الأمة، ومقصد الوفاد، يأتونها لحلّ المشاكل، وايضاح المسائل، وقدتقاطر اليه العلماء والفضلاء للتلمذة عليه، والحضور تحت منبره، حتى انَّه بلغ عدد تلامذته ثلا ثمائة من الشيعة، وعدد كبير من أهل السنة، وكان ممَّن اعترف بكبر شخصيته، وتقدمه على سواه أكثر العلماء حتى مخالفيه.

حتى بلغ الأمر أن جعل له خليفة الوقت القائم بالله (عبدالله) كرسيّ الكلام والافادة، وكان لهذا الكرسي يومذاك عظمة وقدراً فوق الوصف، اذ لم يعط إلاَّ لمن برز في علومه، وتفوّق على أقرانه.

ولم يزل الطوسي قاطناً بغداد، حتى حدثت الفتن بين الشيعة والسنة، حتى اتّسع ذلك بأمر «طغرل بيك» أوّل ملوك السلجوقية، فانَّه ورد بغداد في سنة (٤٤٧)وشنَّ

على الشيعة حملة شعواء، وأمر باحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة الديلمي، في سنة (٣٨١) وتوسّعت الفتنة حتى اتّجهت الى الطوسي وأصحابه، فاحرقوا كتبه وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام.

قال ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٤٨): وهرب أبو جعفر الطوسي.... وقال في حوادث سنة (٤٤٩): وفي صفر في هذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلّم الشيعة بالكرخ، وأخذ ماوجد من دفاتره وكرسيّ كان يجلس عليه للكلام، وأخرج الى الكرخ، وأضيف إليه ثلاث سناجيق بيض كان الزّوّار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم اذا قصدوا زيارة الكوفة فأحرق الجميع [١].

الهجرة الى النجف الأشرف:

ولمّا رأى الطوسي الخطر قدقرب منه، ومحدقاً به، هاجر الى النجف الأشرف لائذاً بجوار أمير المؤمنين علي بن أبيطالب«ع» وصيّرها مركزاً للعلم وجامعة كبرى للشيعة الامامية، وعاصمة للدين الاسلامي والمذهب الجعفري، وأخذت تشدّ إليها الرحال وتعلّق بها الآمال، وأصبحت مهبط رجال العلم ومهوى أفئدتهم.

وكان الفضل في ذلك للطوسي، فقدبثَّ في اعلام حوزته الروح العلمية، وغرس في قلوبهم بذور المعارف الإلهية، فعكفوا على دروسه، وتربّى على يديه جماعة كثيرة، وتخرَّج من مدرسته الفقهية والأصولية والحديثية والكلامية... اعلام ورجال عرّفهم لنا التاريخ، حتى انّه صار كلّ واحد منهم صاحب مدرسة وجمع لديه عدة ليستنيروا من بحر علومهم.

(فجامعة النجف) شيّدها الطوسي ووضع حجرها الأوّل، تخرّج منها خلال القرون المتطاولة آلاف مؤلّفة من أساطين الدين وأعاظم الفقهاء، وكبار الفلاسفة ونوابغ المتكلّمين، وأفاضل المفسّرين، وغيرهم ممّن خبروا العلوم الاسلامية بأنواعها، وبرعوا فيها وهذه آثارهم المهمة التي تعدّ في طليعة التراث الاسلامي، ولم تزل زاهية

١ - المنتظم ٨: ١٧٣-١٧٩.

حتى هذا اليوم، يرتحل اليها رواد العلوم والمعارف من كلّ الأقطار، فيرتوون من مناهلها العذبة وعيونها الصافية.

ثمَّ إنَّ مكانة الطوسي وثروته العلمية الغزيرة في غنىً عن البيان، فانَّه شيخ الطائفة، وشيخ كافة مجتهدي المسلمين، والقدوة لجميع المؤسسين، وفي الطليعة من فقهاء الشيعة، فقدأسّس طريقة الاجتهاد المطلق في الفقه والأصول، و ينتهي إليه أمر الاستنباط على الطريقة الجعفرية المثلى، ولأجل ذلك اشتهر بـ«الشيخ» فهو المراد به اذا أطلق في كلمات الأصحاب، من عصره الى عصر زعيم الشيعة بوقته مالك أزمة التحقيق والتدقيق الحجة الكبرى المؤسس الكبير الشيخ «مرتضى الأنصاري» المتوفى سنة (١٢٨١).

أهمية نظريات الطوسي:

مضت على علماء الشيعة سنون متطاولة وأجيال متعاقبة ولم يكن من الهيّن على أحد منهم أن يَعْدوَ نظريات الطوسي في الفتاوى، وكانوا يعدون أحاديثه أصلاً مسلمّاً، و يكتفون بها، و يعدّون التأليف في قبالها واصدار الفتوى مع وجودها تجاسراً عليه واهانة له، واستمرَّ هذا الوضع الى عصر ابن ادريس فكان يسمّيهم بالمقلدة، وهو أوّل من خالف بعض آراء الطوسي وفتاواه وفتح باب الردّ على نظرياته، ومع ذلك فقدبقوا على تلك الحال.

قال الشيخ أسد الله الدزفولي في المقابس:

انَّ كثيراً مايذكر مثل المحقق، والعلامة الحلي أو غيرهما فتاو يه من دون نسبتها اليه، ثمَّ يذكرون مايقتضي التردد أو المخالفة فيها فيتوهم التنافي بين الكلامين.

ولـمَّا ألف المحقق الحلّي «شرائع الاسلام» استعاضوا به عن مؤلفات الطوسي، وأصبح من الكتب الدراسية، بعد أن كان كتاب «النهاية» هو المحور للدرس والبحث والشرح.

قال العلامة الحلّي في شأن الطوسي:

شيخ الامامية ووجههم، ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين،

صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه، صنّف في كلّ فنون الاسلام، وهو المهذب للعقائد في الأصول والفروع، الجامع لكمالات النفس في العلم والعمل[١].

مؤلفات الطوسي:

ولم تزل مؤلفات الطوسي تحتلّ المكانة السامية بين آلاف الأسفار الجليلة التي انتجتها عقول علماء الشيعة الجبارة، ودبّجتها يراعة أولئك الفطاحل الذين عزَّ على الدهر أن يأتي لهم بمثيل، وقدجمعت معظم العلوم الاسلامية اصلية وفرعية، وتضمَّنت حلّ معضلات المباحث في مختلف العلوم، ومايحتاج إليه علماء الاسلام على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وحسب الطوسي عظمة انَّ كتابيه «التهذيب» و«الاستبصار» من الأصول المسلمة في مدارك الفقه الجعفري، ومن الكتب «الأربعة» التي عليها المدار ـ على مرّ الأعصار ـ في استنباط أحكام الدين ـ على مذهب أهل البيت«ع» ـ بعد كتاب الله المبين، ومؤلفات الطوسي هي المنبع الأول والمصدر الوحيد لمعظم مؤلفي القرون الوسطى، وهمزة الوصل بين قدامى الأصحاب و بين من تأخّر عنه، ولذلك استقوا منها مادتهم وكونوا كتبهم، ومن مميّزات كتب الطوسي انَّها حوت خلاصة كتب الأصحاب القدامى، وأصولهم المعروفة بـ«الأصول الأربعمائة»، فقدكان في متناول الطوسي مكتبات عظيمة:

١ ـ مكتبة جندي سابور[٢] في الكرخ التي كانت تحتضن الكتب القديمة الصحيحة التي هي بخطوط مؤلفيها أو بلاغاتهم.

٢ ـ مكتبة السيد المرتضى أستاذ الطوسي، الذي صحبه ثمان وعشرين سنة، وكانت هذه المكتبة تشتمل على ثمانين ألف كتاب، فأخذ منها حاجته، وظفر بضالّته

١ ـ رجال العلامة /٧٣.

٢ ـ وهي التي أنشأها أبونصر سابور بن أردشير وزير بهاءالدولة البويهي، جمع فيها ماتفرّق من كتب فارس والهند، واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم، وأهدى اليها العلماء كتبهم، فكانت من أغنى مكاتب بغداد، وقدأمر باحراقها (طغرل بيك) فيما أحرق من مؤسسات الشيعة و بيوتهم ومدارسهم في الكرخ. مقدمة اللمعة /٥٩.

المنشودة، وألف كتابيه الجليلين «التهذيب» و«الاستبصار» وغيرهما من مهام الأسفار قبل أن يحدث شيء في تلك المكتبات فلم تزل مؤلفات الطوسي في الفقه وأصوله، والكلام والتفسير، والحديث والرجال، والأدعية والعبادات، وغيرها في كلّ علم من العلوم مآخذ علوم الدين بأنوارها يستضيئون، ومنها يقتبسون وعليها يعتمدون. فالطوسي بمفرده قام بمالا تقوم به الجماعة، ونهض بأعباء ثقيلة لم يكن من السهل على غيره النهوض بها لولاالعناية الربانية التي شدّت عضده[1]، فقدترك لنا وللأجيال الآتية نتاجاً طيّباً متنوعاً.

أهم مؤلفات الطوسي:

انَّ الطوسي له من الحق على التراث الاسلامي و بالأحرى تراث أهل البيت في النواحي المختلفة ماليس لأحد سواه، فقدألّف وصنّف من الكتب في كلّ فنون الاسلام، ولسنا نحن الآن بصدد دراسة كتب الطوسي إذ انَّها تحتاج الى دراسة خاصة، ولكن نذكر البعض منها.

١ ـ «الاستبصار»:

هو أحد الكتب الأربعة والجاميع الحديثية التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند الفقهاء الاثنى عشرية مذ عصر المؤلف حتى اليوم، وهويشتمل على العبادات، والعقود والايقاعات والأحكام الى الحدود والديات، واقتصر فيه على ذكر مااختلف فيه من الأخبار وطريق الجمع بينها، وقدحصر الطوسي أحاديث «الاستبصار» في آخره في (٥٥١١) حديثاً، وقال: حصرتها لئلايقع فيها زيادة أو

١ ـ وفي تأثير عامل الشخصية يقول الأستاذ الآصفي: لانستطيع أن نُغضي عنه مهما كان موقف علماء الاجتماع منا، فلمؤهّلات الفقيه الفكرية و بُعد نظره وعمق تفكيره، واصابة آرائه وطموحه الفكري للتجديد أثر كبير في تطوير الفقه، فاجدّد «الشيخ الطوسي» مثلاً في البحث الفقهي لايرتبط كلياً بتأثير المحيط والعصر، وإنَّما كان يرتبط أيضاً بمؤهلات (الشيخ الطوسي) الشخصية وقابلياته ونبوغه الذاتي. ولايستطيع الباحث ـ مهما حاول ـ أن يعزل هذا العامل عن تطور الدراسة الفقهية. مقدمة اللمعة الدمشقية ١:٢٥.

نقصان...[١]

وعلى «الاستبصار» شروح وتعليقات ذكر منها ثلاثةعشر حاشية، وثلاثةعشر شرحاً في «الذريعة» المحقق أغابزرك الطهراني «رحمه الله»[٢].

٢ - «تهذيب الأحكام»:

أيضاً يُعَدُ أحد الكتب الأربعة لدى الامامية التي يستنبط منها مذهب أهل البيت«ع» استخرجه الطوسي من الأصول المعتمدة للقدماء، والتي هيأها الله له وكانت تحت يده عندوروده الى بغداد سنة (٤٠٨) الى هجرته الى النجف الأشرف سنة (٤٤٨)، وقدخرج من قلمه الشريف تمام كتاب الطهارة الى كتاب الصلاة بعنوان الشرح على «المقنعة»[٣] تأليف أستاذه «المفيد» الذي توفي سنة (٤١٣)، وذلك في حياة أستاذه، لأنَّه كلّمانقل كلامه قال: قال الشيخ أيده الله، ثمَّ أتمّه بعد وفاته، وقداشتمل الكتاب على «ثلاثمائة وثلاثة وتسعين باباً» وعلى «١٣٥٩٠، ثلاثةعشر ألفاً وخمسمائة وتسعين حديثاً، وذكر في «الذريعة»: انَّه يوجد الجزء الأول منه بخط مؤلفه وعليه خط شيخنا البهائي العاملي في تبريز[٤] وعلى «تهذيب الأحكام» ستةعشر شرحاً، وعشرين حاشية[٥]

٣ـ «العدة»:

في أصول الفقه، ألّفه الطوسي في حياة أستاذه المرتضى، وقسمه الى قسمين: الأول في أصول الدين، الثاني في أصول الفقه، وهو أبسط ماألّف في هذا الفن عند القدماء، أفاض فيه القول في تنقيح مباني الفقه، بمالامزيد عليه في ذلك العصر.[٦]

١ ـ الاستبصار ٤:٣٣٥.

٢ ـ الذريعة ١٣: ٨٣-٨٧ و٦: ١٧-١٩.

٣ـ للشيخ أبي عبدالله محمد المفيد، ذكر فيه الأصول الخمسة أولاً، ثمَّ العبادات والمعاملات.

٤ ـ الذريعة ٤: ٥٠٤ هذه النسخة المومأة اليها موجودة في مكتبة العلاّمة الطباطبائي بقم.

٥ ـ الذريعة ١٣: ١٥٦-١٥٩ و٦: ٥١-٥٣.

٦ـ ولم ينقل عن الشيعة في «العدة» إلاّ عن المفيد والمرتضى، وأكثر النقل عن أهل السنة، والأكثر عن القاضي عبدالجبّار بن أحمد المعتزلي الأسدآبادي صاحب كتاب «العمدة» المتوفى سنة (١٥١).

وأمّا المتأخرون عن الشيخ الطوسي فأثّرت آراؤه ونظرياته على قاطبة علماء الشيعة، يقع فصول كتاب العدة ٩٢ فصلاً.

والطوسي قدّر له لأوّل مرّة أن يفتح باب الاجتهاد المطلق والنظر والرأي على مصراعيه واسعاً، وأن ينظّم مناهج الاستنباط والاجتهاد، و يؤصل الأصول، و يضع مناهج البحث للأصول، و يفرع المسائل، و يضع أصول الدراسة المقارنة والخلافية في الفقه، وعشرات من أمثالها ممّاأسدى الطوسي الى المدرسة الفقهية والأصولية من الخدمات العلمية.

أساتذته:

١ ـ السيد المرتضى علم الهدى أبو القاسم علي بن الحسين المتوفى سنة (٤٣٦).
٢ ـ أبو عبد الله محمد بن محمدبن النعمان الشهير بالمفيد المتوفى سنة (٤١٣).

مشايخه:

عمدة مشايخه: ١ ـ أحمد بن محمدبن موسى المعروف بابن الصلت الأهوازي المتوفى بعد سنة (٤٠٨).
٢ ـ أبو عبد الله الحسين بن عبيدالله بن الغضائري المتوفى سنة (٤١١).
٣ ـ أبو الحسين علي بن أحمدبن محمدبن أبي الجيد المتوفى بعد سنة (٤٠٨).
٤ ـ أبو عبد الله محمدبن محمدبن النعمان المفيد.
هؤلاء عمدة مشايخه الذي أكثر الرواية عنهم في كتبه، وكان له مشايخ وأساتذة غير هؤلاء أيضاً ولسنا بصدد الاستقصاء.

تلامذته:

تلامذة الشيخ الطوسي من الخاصة بلغوا أكثر من ثلاثمائة مجتهد، وجماعة كثيرة من العامة، ذكر قسماً منهم في مقدمة تفسير البيان.

وفاته وقبره:

لم يبرح الطوسي في النجف الأشرف مشغولاً بالدراسة وتربية جيل من العلماء، وتأليف الكتب، والهداية والارشاد، وسائر وظائف المرجعية والقيادة الدينية، مدة اثنتي عشر سنة، حتى وافاه الأجل ليلة الاثنين ٢٢ من المحرم سنة (٤٦٠) وخَسِره العالم الاسلامي والعلم. وتولّى غسله ودفنه تلميذه الحسن بن مهدي السليقي، والشيخ أبومحمد الحسن بن عبدالواحد العين زربي، والشيخ أبو الحسن اللؤلؤي، ودفن في داره حسب وصيته، وتحولت الدار بعده مسجداً حسب وصيته أيضاً، وقبره مزار يتبرّك به الناس، وهو اليوم من أشهر مساجد النجف الأشرف يقع في شارع الطوسي، ومن بركات هذا المسجد تنعقد فيه عشرات حلقات الدرس منذ تأسيسه حتى اليوم.

دور التوقّف:

بعد أن فسح المجدد الكبير الشيخ الطوسي «رحمه الله» المجال لتطوّر العلم في مجالاته المختلفة، وخلّف التراث العظيم للأجيال الآتية، أدّت أعمال الشيخ الطوسي الجبارة الى ردّ فعل عكسي وهو توقّف الفكر العلمي في مجال الفقه والأصول بعد وفاة هذا الرجل العظيم مدة أكثر من قرن.

فقد بقي تلاميذه وتلاميذ تلاميذه ينقلون آراء الشيخ الطوسي في الفقه والأصول، والحديث والتفسير طيلة هذه المدة دونما نقص أو زيادة أو مناقشة.

يحكي لنا الشيخ حسن بن زين الدين الشهيد صاحب المعالم ناقلاً عن أبيه «رحمه الله» العامل الموجب لتوقّف الاجتهاد: «ان أكثر الفقهاء الذين نشأوا بعد الشيخ كانوا يتبعونه في الفتوى تقليداً له لكثرة اعتقادهم فيه وحسن ظنّهم به، وروي عن الحمصي وهو ممّن عاصر تلك الفترة انه قال: لم يبق للامامة مفتٍ على التحقيق بل

كلّهم حاك »[١].

محمد بن ادريس:

ولكن هذه الفترة واجهها المحقّق محمدبن ادريس صاحب السرائر، المتولد حدود عام (٥٤٣)، وكان له الحظ الأوفر في مقاومة الجمود و بثّ الحياة العلمية والتحرّك الفكري من جديد.

وقد قام ابن ادريس بمقاومة هذا الجمود الفكري بين الأوساط العلمية في المعاهد الشيعية ممّاأدّى الى أن تخضع آراء الشيخ الطوسي تحت نقد ومناقشة ونظر العلماء.

ومن آراء ابن ادريس التي عرف بها عدم حجية اخبار الآحاد كما ذهب قبله الى ذلك السيد المرتضى، إلاّ اذا كان الخبر متواتراً، أو محفوفاً بالقرائن التي تؤكد صدوره عن المعصوم«ع»، فانّه يعمل به عند ذلك كما هو واضح في كتابه السرائر ومستطرفاته.

ومن آثاره العلمية وتراثه الموجود «السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى» و يعرف تطلعه وتبحّره في استدلالا ته بالقواعد الأصولية، وابتناء الفروع على الأصول في كثير من مباحثه العلمية.

قال فيه ابن حجر في لسان الميزان:

محمدبن ادريس العجلي الحلّي فقيه الشيعة وعالمهم، له تصانيف في فقه الامامية، ولم يكن للشيعة في وقته مثله[٢].

و يروي عنه فخاربن معدبن فخار المتوفى سنة (٦٣٠)، له طرق متعددة الى الشيخ الطوسي منها: يروى عن الشريف أبي الحسن علي بن ابراهيم العلوي العريضي، عن الحسين بن أحمدبن طحا المقدادي، عن الشيخ أبي علي، عن والده الشيخ الطوسي[٣].

١ ـ المعالم الجديدة /٦٦.
٢ ـ لسان الميزان ٥:٦٥.
٣ ـ ثقات العيون في سادس العيون /٢٩٠ من طبقات أعلام الشيعة.

وبعد أن خدم العلم وفتح باب الاجتهاد، وعاش حياته العلمية أدركته الوفاة وكان ذلك سنة (٥٩٨) قدّس الله نفسه الزكية.

المحقق الحلّي:

وكانت الحركة العلمية التي أوجدها ابن ادريس مستمرة، وأخذت تنمو وتتسع جيلاً بعد جيل، وفي هذا المجال برز نوابغ ورجال وألّفوا كتباً في الفقه والأصول، وكان لهم سهم عظيم في إبقاء هذه الحركة واستمرارها ونشاطها فمنهم: المحقّق نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن الحلّي الملقّب بالمحقق، وهو من المعدودين من علماء الطائفة في اختصاص هذا اللقب به وعدم مشاركته به غيره.

ولد عام «٦٠٢» في الحلة، وتعلّم بها وتتلمذ على يد تلامذة ابن ادريس، وأصبح من أكبر علماء الاسلام.

قال ابن داود الحلّي في شأنه: المحقّق المدقّق الإمام العلاّمة واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجة، وأسرعهم استحضاراً...[١]

ومن أعظم تلامذته ابن أخته العلاّمة الحلّي، السيد عبدالكريم بن طاووس، ومحمد بن علي بن طاووس، وصفي الدين الحلي، وابن داود.

ويحكي لنا العلامة الخوانساري عن فراسة هذا المحقق انّه حضر المحقق الطوسي خواجه نصيرالدين ذات يوم حلقة درس المحقق بالحلة، فقطع المحقق الدرس تعظيماً له، وإجلالاً لمنزلته، فالتمس منه الخواجة إتمام الدرس، فجرى البحث في مسألة استحباب التياسر للمصلّي بالعراق، فأورد المحقق خواجة نصيرالدين: بأنّه لا وجه لهذا الاستحباب لأنّ التياسر إن كان من القبلة الى غير القبلة فهو حرام، وإن كان من غيرها إليها فهو واجب؟

فأجاب المحقق الحلّي: بأنّه من القبلة الى القبلة.

١ ـ الكنى والألقاب ٣: ١٣٤.

فسكت الخواجة.

ثمّ انّ المحقق ألّف رسالة لطيفة في المسألة وأرسلها الى المحقق الطوسي فاستحسنها[١].

وقد صنّف المحقق الحلّي كتباً في الأصول، منها كتاب نهج الوصول الى معرفة الأصول، وكتاب المعارج، وكان مدة من الزمن يدرّس المعارج في المعاهد العلمية. وألّف في الفقه كتاب «شرائع الاسلام».

وهو أوّل من قسّم الفقه على أقسام أربعة:

الأول العبادات، الثاني العقود، الثالث الايقاعات، الرابع الأحكام. لأنَّ الحكم الشرعي إمّا أن يتقوّم بقصد القربة أو لا، والأول العبادات، والثاني إمّا أن يحتاج الى اللفظ من الجانبين الموجب والقابل، أو من جانب واحد أو لايحتاج الى اللفظ.

فالأول العقود، والثاني الايقاعات، والثالث الأحكام.

وهذا التقسيم يشمل مختلف أبواب وكتب الفقه.

و بعد أن قضّى عمره الشريف في التعليم والتأليف وتربية العلماء وافاه الأجل سنة (٦٧٦).

العلاّمة الحلّي:

وقد ظلّ النمو العلمي في مجالات البحث الأصولي مستمراً و يتطوّر يوماً بعد يوم، الى أن جاء دور:

الامام العلامة، آية الله المطلق، جمال الدين أبو منصور الحسن بن سديدالدين يوسف بن زين الدين علي بن مطهر الحلّي.

من أعاظم فقهاء الشيعة، جامعاً لشتى العلوم والفنون، صاحب التصانيف الكثيرة، استفادت الأمة من تصانيفه القيمة، منذ تأليفها، و انتفعت بنضراته الثاقبة طيلة حياته و بعد مماته.

١ - روضات الجنات ٢:١٨٨.

قال ابن داود في حقّه: شيخ الطائفة وعلامة وقته، صاحب التحقيق والتدقيق، كثير التصانيف، انتهت رئاسة الامامية اليه في المعقول والمنقول[١].

وقال السيد بحرالعلوم في فوائد رجالية:

علامة العالم، وفخر نوع بني آدم، أعظم العلماء شأناً، وأعلاهم برهاناً، سحاب الفضل الهاطل، وبحر العلم الذي ليس له ساحل، جمع من العلوم ماتفرّق في جميع الناس، وأحاط من الفنون بمالايحيط به القياس، مروِّج المذهب في المائة السابعة، ورئيس علماء الشيعة من غير مدافعة، صنَّف في كلّ علم كتباً، وآتاه الله من كلّ شيء سبباً...[٢].

ولد في الحلّة عام (٦٤٨) ونشأ فيها وتتلمذ على خاله المحقق صاحب الشرائع، ودرس الفلسفة والكلام على المحقق الطوسي، وجمع بين ثقافتي المحققين الحلّي والطوسي في الفقه والأصول والفلسفة. ولئن كان الشيخ الطوسي بلغ قمة الفكر في مجالاته المختلفة في عصره، فقد بلغ العلامة الحلّي قمة الفكر في مجالاته المختلفة في الحلة أيضاً.

وتلاميذ العلامة لم يقلّوا عن تلاميذ الشيخ الطوسي تأثراً بمدرسة أستاذهم، فظلّوا قرناً من الزمان يتناقلون أفكاره وآراءه في مجالي الفقه والأصول، ودراسة كتبه رغم ظهور التغييرات فيها.

بعض مشايخه:

١ ـ الحكيم المتأله كمال الدين ميثم بن علي البحراني مؤلف شرح نهج البلاغة.

٢ ـ نجيب الدين يحيى بن أحمد الهذلي الحلي.

٣ ـ والده سديد الدين يوسف بن زين الدين علي بن المطهر الحلي.

٤ ـ المحقق الطوسي خواجه نصير الدين محمد، قرأ عليه الكلام والهيئة والعقليات، وقرأ عليه الطوسي الفقه[٣].

١ ـ نقد الرجال /٩٩.

٢ ـ تنقيح المقال ١:٣١٤.

٣ـ مستدرك الوسائل ٣:٤٦٤.

٥ ـ المحقق نجم الدين جعفر بن الحسن الهذلي الحلي مؤلف الشرائع، وكان عمدة تلمذته عليه، كما انّه قرأ على جماعة من علماء السنة منهم نجم الدين الكاتبي القزويني، وبرهان الدين النسفي، وجمال الدين حسين بن ابان النحوي.

له كتب عديدة في الأصول منها: تهذيب الوصول الى علم الأصول، ومبادىء الوصول الى علم الأصول، ونهاية الأصول، ونهج الوصول الى علم الأصول.

تلامذته والراوون عنه:

١ ـ ولده فخر المحققين أبو طالب محمد.

٢ ـ مجد الدين أبو الفوارس محمد.

٣ ـ عميد الدين عبد المطلب بن مجد الدين.

٤ ـ ضياء الدين بن مجدالدين.

٥ ـ علاء الدين علي بن محمد بن الحسن بن زهرة الحسني الحلبي.

ومن كتبه المعروفة:

المختلف، كتبه لدراسة المسائل الخلافية بين فقهاء الشيعة.

وشرح التجريد، وتذكرة الفقهاء، والتبصرة، وخلاصة الرجال.

وتوفي في الحلة ودفن في النجف الأشرف في جوار مولانا أميرالمؤمنين سنة (٧٢٦).

فخر المحققين:

وقد ظلّ النمو العلمي يتقدّم و يتطوّر في مدرسة الحلة على يد تلامذة العلامة الحلّي وكان الممثل للشخصية العلمية في مجاليها الفقهي والأصولي في هذا العصر. فخرالدين أبو طالب محمدبن الحسن بن يوسف بن المطهر. تتلمذعلى أبيه العلامة الحلي، ونشأ برعايته وعنايته، وقرأ عليه مختلف العلوم النقلية والعقلية، و برز في ذلك كلّه.

أكمل بعض تآليف والده العلامة كالألفين وغيره، وشرح بعض كتب أبيه كالقواعد.

ولد في بلدة الحلة في سنة (٦٨٢) وتعلّم بها، وكان عمدة تلمذته على يد والده، وأصبح من العلماء النوابغ، ألّف التصانيف الرائقة، اثنى عليه علماؤنا في تراجمهم.

قال تلميذه الشهيد الأول: الشيخ الامام، سلطان العلماء، منتهى الفضلاء والنبلاء، خاتم المجتهدين، فخر الملّة والدين، أبوطالب محمدبن الشيخ الامام السعيد جمال الدين بن المطهر[١].

تتلمذ على أبيه، و يروي عن عمّه رضي الدين علي بن يوسف، و يروي عنه الشهيد الأول، وفخرالدين أحمدبن عبدالله بن سعيدبن المتوج البحراني، وبهاءالدين علي بن غياث الدين عبدالكريم النيلي النجفي.

قام بتربية تلامذة كبار في الفقه والأصول كان منهم الشهيد الأول «رحمه الله».

مؤلفاته: ايضاح الفوائد في شرح القواعد، حاشية الارشاد، غاية السؤول في شرح تهذيب الأصول.

الشهيد الأول:

وقدّر لفخر المحققين أن يبرز في مدرسته شخصية عظيمة من أكبر علماء الاسلام، ألاوهو: أبو عبدالله محمدبن الشيخ جمال الدين مكي بن شمس الدين محمد الدمشقي الجزيني.

ولد في بلدة جزين عام (٧٣٤) من بلدان جبل عامل، وهاجر الى الحلة لطلب العلم.

وهو بعد لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، وحصل في هذه السنة على اجازة من أستاذه فخرالمحققين أن يروي عنه وتاريخ الاجازة ٢٠ شعبان سنة (٧٥١).

وكان عمدة تلمذته في الحلة على فخر المحققين ولازمه، كما انَّه تتلمذعلى جماعة من تلامذة العلامة الحلّي في الفقه والفلسفة وحصل منهم الاجازة في الاجتهاد والرواية كالسيد عميدالدين عبدالمطلب الحلّي الحسيني، وأخوه السيد ضياءالدين عبدالله. ثمَّ بعد مدة استقلّ الشهيد بالتدريس في الحلة، والتفّ حوله الطلبة وأخذوا يدرسون عليه الكتب الأصولية والفقهية.

١ ـ مقدمة بحار الأنوار ١: ٢٢٢.

«ولم يقتصر الشهيد على التدريس في الحلة، أو في جزين في مدرسته التي أسّسها، بل كان يقوم بالتدريس في رحلاته التي كان يقوم بها بين حين وآخر الى الحجاز ومصر وسوريا وفلسطين...

وكان الشهيد يتابع في أفكاره العلمية في الفقه والأصول مدرسة الحلة، وكانت مدرسته تعود في أصولها وجذورها الى أستاذه فخرالمحققين وهو الى والده العلامة.

كلمات العلماء فيه:

قال المحقق الخوانساري في وصف الشهيد الأول: «المنعوت بالشهيد الأول والشهيد المطلق، وهو أول من اشتهر من العلماء بهذا اللقب عند الامامية، شهرته في الفقهاء والأصوليين ومشاركته في العلوم أظهر من أن يخفى، ومحامده ونفسياته الزكية أوضح من أن يوضح، وصفه أستاذه فخرالمحققين ـقدّس سرّهـ في اجازته بقوله: مولانا الامام العلامة الأعظم، أفضل علماء العالم، سيد فضلاء بني آدم، مولانا شمس الحق والدين»[1].

وأطراه التستري بقوله: الشيخ الهمام، قدوة الأنام، فريدة الأيّام، علامة العلماء العظام، مفتي طوائف الاسلام، ملاذ الفضلاء الكرام، خريت طريق التحقيق... العارج الى أعلى مراتب العلماء والفقهاء المتبحّرين، وأقصى منازل الشهداء السعداء المنتجبين[2].

تلامذته:

تربّى على يدي الشهيد ممن خلفوه من بعده في الفقاهة والتدريس وأحيوا مدرسته وخلّده جماعة منهم:

١ ـ السيد أبوطالب أحمد بن القاسم بن زهرة الحسيني.

٢ ـ جمال الدين أحمد بن النجار صاحب الحاشية على قواعد العلامة الحلي.

٣ ـ جمال الدين أبو منصور حسن بن الشهيد، أجازه والده مع أخويه وصورة

١ ـ روضات الجنات / ٥٩٠.

٢ ـ نقلاً عن روضات الجنات / ٥٩٠.

الاجازة مذكورة في الذريعة[١].

انَّ شيخنا الشهيد لم يمنعه اختلافه الفكري والعقائدي أن يخالط أرباب المذاهب الأخرى، و يباحثهم، و يستجيزهم في نقل أحاديث كتبهم، و يشهد على ذلك اجازته لابن الخازن:

«وأمَّا مصنَّفات العامة ومرو يّاتهم فانّي أروي عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم بمكة والمدينة ودارالسلام بغداد، ومصر ودمشق و بيت المقدس، ومقام ابراهيم الخليل.

فروِيت صحيح البخاري عن جماعة كثيرة بسندهم الى البخاري، وكذا صحيح مسلم، ومسند أبي داود، وجامع الترمذي، ومسند أحمد، وموطأ مالك، ومسند الدارقطني، ومسند ابن ماجة، والمستدرك على الصحيحين للحاكم ابن عبدالله النيسابوري الى غير ذلك[٢]، كما انَّه سافر الى كثير من مراكزهم العلمية، ولم يتعصّب وتمنعه الفكرة الشيعية لأن يلتقي مع علماء السنة من البلدان التي سافر إليها بغداد ومصر والقدس والحرمين...

آثاره العلمية:

لقد خلّف الشهيد آثاراً علمية تشهد على جلالة قدره، وعلوّ منزلته كالدروس الشرعية في فقه الامامية، واللمعة الدمشقية حيث كتبها في ستة أيّام، ولم يحضره من المراجع والكتب الفقهية غير مختصر النافع للمحقق الحلّي، والقواعد، وكتاب البيان، وغاية المراد في شرح نكت الارشاد.

ومن المؤسف جداً التعصّب بين المسلمين، وكم كانت فدية هذه التعصبات، ومن أجل ذلك سعى على شيخنا الشهيد واستشهد ظلماً وعدواناً وذلك عام (٧٨٦) فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والتحقت روحه بالملأ الأعلى قدَّس الله نفسه الطاهرة.

١ - الذريعة ١: ٢٤٨.
٢ - مقدمة اللمعة /٨٣.

الشهيد الثاني:

كانت آراء وأفكار مدرسة الحلة تتناقل من تلامذة العلامة الى تلامذة تلامذته، الى أن وصل دور الشهيد الثاني، هذا العبقري الذي أعطى للعلم وللمدرسة الشيعية طابعاً جديداً، وخدم بدوره الجبّار خدمة عظيمة وهو الشهيد السعيدزين الدين بن علي الجبعي الشامي.

ولد شيخنا الشهيد في بيت العلم والفضل سنة (٩١١) ومنذ صباه ظهرت منه علائم الذكاء والنبوغ، اشتغل على والده بقراءة فنون الأدب العربي، والفقه، وكان والده عالماً جليلاً من علماء جبل عامل؛ ثمّ ذهب شيخنا الشهيد الى بلدة ميس لتكميل دراسته، فحضر هناك على الشيخ علي بن عبدالعالي الكركي من سنة ٩٢٥ الى سنة ٩٣٣؛ ثمّ بدا للشهيد أن يترك ميس الى كرك نوح حيث كان يحل فيها الشيخ علي الميسي، وكان في تلك الأيام يعد من الأفاضل.

«قال ابن العودي: أخبرني ـقدس الله سرّه وكان في منزلي بجزين متخفياً من الأعداء ليلة الاثنين ١١ صفر سنة ٩٥٦ـ ان ابتداء أمره في الاجتهاد كان سنة ٩٤٤، وان ظهور اجتهاده وشهرته كان في سنة ٩٤٨، فيكون عمره لما اجتهد ٣٣ سنة»[1].

بعض آثار الشهيد العلمية:

الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية.

شرح مزجى استدلالي مع اختصار وايجاز شامل، ومستوعب لجميع أبواب الفقه.

احتلّ هذا الكتاب مكانة مرموقة بين الكتب الفقهية، فأقبل على دراسته والاعتناء بشأنه طلاّب المعاهد الشيعية عبر القرون، ولايزال يعدّ من الكتب الدراسية في المعاهد العلمية في عصرنا الحاضر.

١ ـ مقدمة اللمعة /١٦٣.

و يكفي في أهمية هذا السفر الجليل: انّه أكبَّ على شرحه، والتعليق عليه، وتوضيح ماأبهم من عباراته، وكشف غوامضه جماعة من علمائنا [١].

السبب في استشهاده:

نقل مؤلف أحسن التواريخ (حسن بك روملو):

«في سنة (٩٦٥) في أواسط سلطنة الشاه طهماسب الصفوي استشهد افادة مآب حاوي المعقول والمنقول، جامع الفروع والأصول، الشيخ زين الدين العاملي، وكان السبب في شهادته: ان جماعة من السنّيّين قالوا لرستم باشا الوزير الأعظم للسلطان سليمان ملك الروم: انَّ الشيخ زين الدين يدّعي الاجتهاد، و يتردّد اليه كثير من علماء الشيعة، و يقرأون عليه كتب الامامية، وغرضهم بذلك اشاعة التشيّع، فأرسل رستم باشا الوزير في طلب الشيخ زين الدين وكان وقتئذ بمكة المعظّمة، فأخذوه من مكة وذهبوا به الى استنبول، فقتلوه فيها من غير أن يعرضوه على السلطان سليمان» [٢].

فياعجباً من هذه الأيادي التي كانت تلعب بين السلطات في شتّ مايوجب العداء، والتفرقة بين المسلمين، انظر الذنوب التي وجهت اليه ومن أجلها استشهد هذا العالم الجليل:

١ ـ انّه يدّعي الاجتهاد.

٢ ـ يتردّد اليه كثير من العلماء.

٣ ـ يقرأون عليه كتب الامامية.

٤ ـ وغرضهم بذلك اشاعة التشيّع.

العلاّمة البهائي:

ومن الأعلام الذين كان لهم سهم في التأليف في علم الأصول هو: محمدبن الحسين بهاء الدين العاملي.

١ ـ ذكر شيخنا الطهراني (رحمه الله) مايقرب من تسعين حاشية، وشرح عليه في الذريعة: ٦: ٩٠-٩٨، و١٣: ٢٩٢-٢٩٦.

٢ـ أعيان الشيعة ٣٣: ٢٩٢.

ولد في بعلبك سنة (٩٥٣) ونشأ في حجر أبيه، في بيت العلم والفضيلة، وجال مع والده الى ديار العجم وهو يوم ذاك في صغر سنة، وساح ثلاثين سنة، وحضر لدى أعلام كلّ فن واستفاد منهم، حتى أصبح عالماً في كلّ فنون الاسلام، ومتضلّعاً في أغلب الفنون والعلوم الأخرى، ولأجل القابلية الكامنة فيه التي وهبه إيّاه الله تعالى كان في تبحّره في العلوم والفنون كمن له فنّ واحد، وعالم بعلم ومختص به.

وله تصانيف في العلوم والفنون المختلفة.

«قال صاحب اللؤلؤة: كان رئيساً في دار السلطنة في اصفهان، وشيخ الاسلام فيها، وله منزلة عظيمة عند سلطانها الشاه عبّاس... كان يعاشر كلّ فرقة وملّة بمقتضى طريقتهم ودينهم وملّتهم وماهم عليه، وكان يستدلّ لطريقته:

أخالط أبناء الزمان بمقتضى عقولهم كيلا يفوهوا بانكار

كان يلقي لتلامذته يوم التعطيل من فنون العلم ونوادر الأخبار والأشعار الفائقة والحكايات الرائقة، وكانوا يستفيدون منه يوم التعطيل أكثر من يوم الدرس»[١].

وصنّف في الأصول «زبدة الأصول» فأصبح هذا الكتاب مورداً للبحث والنظر حتى انّ بعضاً من العلماء قدشرحوه وكتبوا عليه الحواشي، وتوفي سنة (١٠٣١).

صاحب المعالم:

وأعقب لنا شيخنا الشهيد الثاني ولداً أصبح أحد أعلام الشيعة من بعده، وكان له دور عظيم في تطوّر علم الأصول.

وهو أبو منصور الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني العاملي.

ولد في أسرة قدساهمت مساهمة فعّالة في تقدّم العلوم الاسلامية ومن المميزات الخاصة في هذه الأسرة أن حصلت فيها المرجعية والزعامة الدينية.

وكانت ولادته في عام (٩٥٩)، وبقي في حجر أبيه مدة أربع سنين، وهيئت له بيئته أن يتّجه الى أخذ زمام المبادرة لقيادة الحركة الفكرية التي كانت في أسلافه على

١ ـ روضات الجنات ٧:

قدر استطاعته.

و بعدما أكمل دروسه الابتدائية والمقدمات اللازمة في بلاده ومسقط رأسه على تلامذة الشهيد، توجه الى العراق وأقام في النجف الأشرف، واشتغل هناك في دراسة الفقه والأصول، وكان زعيم الحوزة يومذاك المولى المحقق المقدس الأردبيلي.

وكان يصاحب في جميع المدة التي بقي في النجف الأشرف صاحب المدارك، فحضرا درس المقدّس الأردبيلي، والمولى عبدالله اليزدي[1].

ونقل انَّ أستاذهما المحقق الأردبيلي كان عند قرائتهما عليه مشغولاً بـ«شرح الارشاد»، فكان يعطيهما أجزاءاً منه، و يقول لهما: انظرا في عبارته، وأصلحا منه ماشئتما، فانّي أعلم انَّ بعض عباراته غير فصيحة وكان صاحب المعالم حسن الخط جيد الضبط، عجيب الاستحضار، حافظاً للرجال والأخبار والأشعار.

انَّ أكثر تصنيفاته غير تامة لأنَّه كان يشتغل في زمان واحد بتصنيفات متعددة، كما هو دأب العلامة، والشهيدين في الأغلب.

وله منتقى الجمان في الأحاديث الحسان، اقتصر فيه على ايراد هذين الصنفين من الأخبار على طريقة كتاب الدر والمرجان الذي ألّفه العلامة في ذلك المعنى من قبل، ولم يخرج من أبوابه الفقهية غير العبادات[2].

ومؤلفات المترجم و والده الشهيد تحتل اليوم ومسبقاً مكان الصدارة بين مؤلفات الامامية، وتراها قدعكف عليها الطلاب والعلماء للافادة والاستفادة في المدارس والجامعات الشيعية في العراق وايران، والهند وأفغانستان وسائر البلدان الشيعية.

رجع صاحب المعالم بعدما أكمل دروسه لدى علماء النجف الأشرف الى بلدة جباع، واستقرَّ بها، واشتغل بالتدريس، والتصنيف، وقرأ عليه جملة من الفضلاء[3].

معالم الدين وملاذ المجتهدين:

يعتبر هذا الكتاب من أشهر تصانيفه، وفي مقدمتها خطبة نفيسة في فضل العلم

١ ـ أمل الآمل ق ١/٥٨.
٢ ـ روضات الجنات ٢:٢٩٦.
٣ ـ أمل الآمل ق ١/١٣٠.

والعلماء، وهذا الكتاب الجليل صار عليه المعوّل في التدريس، من زمن تأليفه الى هذا العصر.

بعدما كان التدريس قبل هذا الكتاب على الشرح العميدي على تهذيب العلامة في الأصول، وغيرها من الكتب الأصولية. وعلى هذا الكتاب شروح وحواشي كثيرة عربية وفارسية، مبسوطة ومختصرة، مستقلة وهامشية، منها:

حاشية سلطان العلماء، وحاشية ملاصالح المازندراني، والمحقق الشيرواني، والشيخ محمد تقي الاصفهاني...

هكذا كانت حياة شيخنا الأجل حافلة بالعلم والتقوى، والتدريس والتصنيف، حتى وافاهُ أجله في عام (١٠١١) قدّس الله روحه.

النزعة الأخبارية:

وهذه الجماعة تعتقد بعدم دخل العقل في مختلف الميادين وعزله في مسائل الشريعة بتاتاً، والاقتصار في المعتقدات والأحكام الشرعية على البيان الوارد من قبل الشرع فقط، وذكروا سبب هذه الفكرة: بأن العقل عرضة للخطأ، و يشهد له تاريخ الفكر العقلي فانَّه تراه زاخراً بالأخطاء.

وهذه الفكرة الهدّامة وجدت داخل صفوف العلماء حتى سمي جماعة من علمائنا بـ«الأخباريين».

يقول الشهيد الصدر في تاريخ هذه الفكرة:

و يرجع تاريخ هذا الاتجاه الى أوائل القرن الحادي عشر، فقدأعلنه ودعا إليه شخص كان يسكن وقتئذ في المدينة باسم «المرزا محمد أمين الاسترابادي» المتوفى سنة (١٠٢٣)هـ، ووضع كتاباً أسماه «الفوائد المدنية» بلور فيه هذا الاتجاه و برهن عليه ومذهبه ـ أي جعله مذهباً ـ[١].

واعترف صاحب الحدائق الذي يعد من علماء الأخبارية، وممّن وافق

١ ـ المعالم الجديدة /٤٢-٤٣.

الاسترابادي: بأنَّ هذا المحدّث هو أول من جعل الأخبارية مذهباً، وأوجد الخلاف بين العلماء يقول: ولم يرتفع صيت هذا الخلاف ولاوقع هذا الاعتساف إلاَّ من زمن صاحب الفوائد المدنية ـ سامحه اللّه تعالى برحمته المرضية ـ فانه قدجرّد لسان التشنيع على الاصحاب، واسهب في ذلك أيّ اسهاب، وأكثر من التعصبات التي لا تليق بمثله من العلماء الاطياب[1].

الا ثر السيء الحاصل من هذه الفكرة:

بعد ان تطوّر علم الاصول تطوراً ملحوظاً بلغ مستوىٰ لابأس به في عصر صاحب المعالم منيَّ هذا العلم بصدمة وحملة شديدة، حتى ان الصراع والمعارضة اصبحت تشتد يوماً بعد يوم، و بخاصة في أواخر القرن الحادي عشر، واستمر خلال القرن الثاني عشر.

الوحيد البهبهاني يصوّر الصراع مع الأزمة الأخبارية:

ففي هذا النصّ من كلامه يشير الى بعض شبهات الأخباريين و يفندها قال: لما بعد العهد عن زمان الأئمة وخفت امارات الفقه والأدلة على ما كان المقرر عند الفقهاء والمعهود بينهم بلاخفاء بانقراضهم وخلو الديار عنهم الى أن انطمس أكثر آثارهم كما كانت طريقة الأمم السابقة والعادة الجارية في الشرائع الماضية، انّه كلّما يبعد العهد عن صاحب الشريعة تخفى امارات قديمة وتحدث خيالات جديدة الى أن وتضمحل تلك الشريعة.

توهّم متوهّم انَّ شيخنا المفيد ومن بعده من فقهائنا الى الآن كانوا مجتمعين على الضلالة مبدعين بدعاً كثيرة... متابعين للعامة مخالفين لطريقة الأئمة ومغيرين لطريقة الخاصة مع غاية قربهم لعهد الأئمة ونهاية جلالتهم وعدالتهم ومعارفهم في الفقه والحديث وتبحّرهم وزهدهم و ورعهم.

وشبهتهم الأخرى هي انَّ رواة هذه الأحاديث ما كانوا عالمين بقواعد المجتهدين، مع انَّ الحديث كان حجة لهم فنحن أيضاً مثلهم لانحتاج الى شرط من شرائط

١ ـ الحدائق ١:١٧٠.

الاجتهاد وحالنا بعينه حالهم، ولاينقطعون بانَّ الراوي كان يعلم ان ماسمعه كلام امامه وكان يفهم من حيث انَّه من أهل اصطلاح زمان المعصوم«ع» ولم يكن مبتلى بشيء من الاختلاجات التي ستعرفها ولامحتاجاً الى علاجها[١].

بواعث حصول هذه الأزمة:

وكان الباعث لحصول هذه الأزمة والمقاومة من قبل هذه الجماعة الأمور التالية:

١ ـ انَّ علم الأصول والاشتغال به من وجهة نظر الأخباريين يؤدّي بالنتيجة الى الابتعاد عن أحاديث أهل البيت«ع».

٢ ـ كانت نظرة جماعة الأخبارية الى علم الأصول بأنَّه حصيلة المذهب السنّي لزعمهم سبق أولئك تاريخياً الى البحث في أصول الفقه والتصنيف فيه، و بالتالي انَّ علم الأصول هو من نتاج العقلية المعادية لمذهب أهل البيت«ع»، وانَّه لم ينشأ علم الأصول عند الشيعة إلاَّ بعد الغيبة، فيكون هذا العلم من المحدثات.

٣ ـ بما انَّ العقل له دورمهم في معظم المباحث الأصولية وابتناء أكثر أسسها على قواعده، وذكرنا في بحث النزعة الأخبارية انَّهم يعتقدون بأن العقل لادخل له في مسائل الشريعة، وانَّ الطريق الوحيد اليها هو الشرع والسماع عن الصادقين«ع».

البحث الأصولي في الأزمة الأخبارية:

مع انَّ علم الأصول كان الهدف النهائي للضربات والصدمات في الأزمة التي استولت على الفكرة الأخبارية، لكن مع ذلك كلّه لم يتوقّف تقدّم وتطوّر هذا العلم، بل وجد رجالاً متبحّرين متظلّعين في هذا العلم، ودافعوا عنه أشدّ الدفاع، وقاوموا التيار المخالف، وأخذوا يسيرون قدماً في مجال التفكير الأصولي، وظفروا في هذا المجال بالنجاح النسبي منهم:

١ ـ الفوائد الحائرية نقلاً عن المعالم الجديدة /٨٦ـ٨٧.

الفاضل التوني:

المولى عبد الله بن محمد البشروي، الساكن بالمشهد الرضوي، كتب في ألاصول «الوافية» وكان لهذا الكتاب في المجامع العلمية يومذاك أثر كبير، وصار مورد العناية، وكتبوا له شروحاً وحواشي مثل السيد مهدي بحرالعلوم، والسيد محسن الأعرجي الكاظمي. فقدأسهم بدوره هذا المحقق في البحث الأصولي، وتوفي في بلدة كرمانشاهان حين توجه الى زيارة العتبات المقدسة في العراق وذلك عام (١٠٥٩)[١].

المحقق الخوانساري:

و بعد أن حقق الفاضل التوني النجاح النسبي في مجال الأبحاث الأصولية، جاء المحقق السيد حسين الخوانساري المتوفى سنة (١٠٩٨)، وواصل هذا المحقق جهوده في تطوّر علم الأصول والنهوض به، وكان له دور فعّال في تقدّم الأبحاث الأصولية، رغم الهجمات التي كانت توجّه من قبل رواد الفكرة الأخبارية بصورة متواصلة ضدّ علم الأصول.

و يبيّن جهود هذا المحقق السيد الصدر قائلاً: وكان على قدر كبير من النبوغ والدقّة، فأمدَّ الفكر الأصولي بقوة جديدة كما يبدو من أفكاره الأصولية في كتابه الفقهي «مشارق الشموس في شرح الدروس».

ونتيجة لمرانه العظيم في التفكير الفلسفي انعكس اللون الفلسفي على الفكر العلمي والأصولي بصورة لم يسبق لها نظير.

ونقول: انعكس اللون الفلسفي لاالفكر الفلسفي، لأنَّ هذا المحقق كان ثائراً على الفلسفة، وله معارك ضخمة مع رجالاتها، فلم يكن فكره فلسفياً بصفته التقليدية، وإن كان يحمل اللون الفلسفي، فحينما مارس البحث الأصولي انعكس اللون وسرى في

١ ـ ترجم في روضات الجنات ٤: ٢٤٤.

الأصول الاتجاه الفلسفي في التفكير بروحية متحررة من الصيغ التقليدية التي كانت الفلسفة تتبنّاها في مسائلها وبحوثها، وكان لهذه الروح أثرها الكبير في تاريخ العلم فيما بعد...[١].

سلطان العلماء:

وممّن شارك في التأليف وتطوّر علم الأصول:
حسين بن رفيع الدين محمد الحسيني المشتهر بـ«سلطان العلماء وخليفة السلطان» تقلّد الوزارة لشاه عباس الصفوي، وتزوّج ابنته، ثمّ تقلّد الوزارة في عهدالسلطان شاه صفي، ثمّ نفاه الى قم، فاشتغل هناك بمطالعة الكتب ومراجعة العلوم.
ثمّ تولّى الوزارة في عهد الشاه عباس الثاني مدة ثماني سنين، توفّي في بلدة أشرف مازندران (بهشر) عند رجوعه مع السلطان شاه عباس الثاني من فتح قندهار في سنة (١٠٦٤) نقل رفاته الى النجف الأشرف، ودفن هناك .
قرأ على والده، وشارك الخليل القزويني في التلمّذ على الشيخ البهائي، له حاشية على المعالم في الأصول معروفة[٢].

المحقق الشيرواني:

ومن الذين أسهموا في تطوّر علم الأصول وصنّفوا فيه:
محمد بن الحسن الشيرواني:
جاء الى النجف الأشرف وأخذ العلوم من أعلامها، حتى أصبح من العلماء المبرزين.
وله حاشية على المعالم في الأصول فارسية، وعربية.

١ ـ المعالم الجديدة /٨٣ـ٨٤.
٢ـ روضات الجنات ٢:٣٤٦.

ولـمّا أشتهر بالعلم والفضل طلب منه الشاه سليمان الصفوي وكان يومذاك قاطن في النجف الأشرف: ان يأتي الى اصفهان فجاء وتوطّن بها.

«تتلمّذ لديه صاحب الرياض، والشيخ حسن البلاغي النجفي صاحب تنقيح المقال، وصاهر المجلسي الأول، وحصل له ولد وهو المولى حيدرعلي. وتتلمذ لديه محمد أكمل والد الوحيد البهبهاني المؤسس.

توفي (١٠٩٩) ونقل الى المشهد الرضوي[١].

ومنهم: صدر الدين محمد بن باقر الرضوي القمّي:

تتلمذ في اصفهان على أقاجمال الدين الخوانساري، والمدقق الشيرواني، ثمّ ارتحل الى قم، وأصبح مدرساً فيها، ثمّ هاجر الى النجف الأشرف، وتتلمذهناك عند أبي الحسن الشريف العاملي، والشيخ أحمد الجزائري.

له شرح على وافية المولى عبدالله التوني في أصول الفقه وهي مفصّلة مشحونة بالتحقيق[٢].

ظواهر وملامح المدرسة الثالثة:

وفي هذه المرحلة يجد الباحث أموراً لم تكن موجودة في المرحلة السالفة، وأهم تلك الأمور:

١ ـ التفريع على النص ودرس التفصيلات، وافتراض فروض جديدة لاستخراج حكمها بطريقةما من النص. وفي هذه المرحلة يحسّ بأهمية التوسل الى العناصر والقواعد العامة لعلاج معضلة حلّ الفروع، وتطبيقها على الأصول والقواعد العامة، وكان لكثرة هذه الفروع المتجددة، واستعمال عملية تطبيق الفروع على الأصول،ولهذا

١ ـ روضات الجنات ٧: ٩٣.

٢ ـ ترجم في روضات الجنات ٤: ١٢٢.

التفاعل اثراً خاصاً لتطوّر نفس القواعد وتحكيم أسسها[١].

٢ ـ ومن الظواهر الملموسة في هذا الدور الوقوف النسبي لعلم الأصول، فانّه لم يمض المجدد العظيم محمد بن الحسن الطوسي «قدس سرّه» حتى قفز بالبحوث الأصولية، وبحث التطبيق الفقهي قفزة كبيرة، ولأجل ذلك خلّف تراثاً ضخماً في الأصول يتمثّل في كتاب «العدة»، وتراثاً ضخماً في التطبيق الفقهي يتمثّل في كتاب المبسوط.

ولكن هذا التراث الضخم وهذا التقدّم العظيم توقّف عن النمو بعد وفاة الشيخ المجدد طيلة قرن كامل في المجالين الفقهي والأصولي على السواء.

٣ ـ الظاهرة الثالثة التي يجدها الباحث في هذه المدرسة هي «تجدد الحركة والبحث العلمي».

فانّه ماانتهت مائة عام حتى دبّت الحياة من جديد في البحث الفقهي والأصولي على الصعيد الامامي.

وكانت بداية انبعاث الفكر العلمي والتحرّك الجديد عن دور التوقّف النسبي على يد الفقيه المبدع محمد بن أحمد بن ادريس المتوفى سنة (٥٩٨)هـ، إذ بثّ في الفكر العلمي روحاً جديدة، وأولد حركة مبكرة، حتى وصلت الحركة العلمية الى المستوى الذي يصلح للتفاعل مع آراء الشيخ الطوسي ومحاكمتها، واستمرت الحركة العلمية في عصر ابن ادريس تنمو وتتّسع، وقد ظلّ النمو العلمي في مجالات البحث الأصولي الى آخر القرن العاشر، وكان الممثل الأساسي له في أواخر هذا القرن الحسن بن زين الدين الشامي صاحب المعالم المتوفى سنة (١٠١١) وترى كتابه «المعالم» يمثّل الصورة العالية لعلم الأصول في عصره، بتعبير سهل، وتنظيم جديد، وكانت نتيجة هذه الأمور أن حصل لهذا الكتاب الشأن الكبير في عالم البحوث الأصولية، حتى

١ ـ حول هذه الخصوصية كلام للشيخ مهدي الآصفي إليك نصّ عبارته: وظاهرة أخرى من ملامح هذا العصر هو تفريع المسائل الفقهية واستحداث فروع جديدة لم تتعرض لها نصوص الروايات، وكان البحث الفقهي ـ فيما سبق هذا الدور ـ لايتجاوز حدود بيان الحكم الشرعي باستعراض الروايات الواردة في الباب.... وربّما يصحّ أن نقول: انّ الشيخ الطوسي كان أوّل من قام بهذه التجربة في كتابه المبسوط، فقد ذكر في أوّل الكتاب انّ الذي دعاه الى تصنيفه: انّ الامامية لم يكونوا يفرعون الفروع الى زمانه، وكانوا يقفون عند النصوص التي وصلت اليهم عن المتقدمين من المحدثين، وكان ذلك من دوافع الطعن عن الفقه الجعفري.

فقام (يقصد بالشيخ الطوسي) بهذه المحاولة لسدّ هذا الفراغ في البحث الفقهي. «مقدمة اللمعة» «٦٢-٦٣».

أصبح كتاباً دراسياً في مستوى راقي لهذا العلم.

٤ ـ الظاهرة الأخرى التي يلمسها المحقق في نهاية هذه المرحلة التأثير الفلسفي على علم الأصول، بالأخص في عصر المحقق أغاحسين الخوانساري، فانّه نتيجة لمرانه العظيم في التفكير الفلسفي انعكس اللون الفلسفي على الفكر العلمي والأصولي بصورة لم يسبق لها نظير، وفي هذا العصر ترى في الأصول الاتجاه الفلسفي في التفكير لكن بصورة متحررة من الصيغ التقليدية، ولم يوجب ذلك خروج علم الأصول عن طابعه الخاص.

المبحث الثاني أهم كتب الأصول في هذه المدرسة:

عدة الأصول:

لشيخ الطائفة أبي جعفر محمدبن الحسن بن علي الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠) يقع على قسمين القسم الأول يتضمّن أصول الدين والمباحث الاعتقادية. القسم الثاني يشتمل على أصول الفقه، وهو أبسط ماألّف في هذا الفن عند القدماء، أفاض فيه القول في تنقيح مباني الفقه بمالامزيد عليه في ذلك العهد، وقال في سبب تأليفه:

انّ الناس قالوا لم يصنّف في هذا الباب إلاّ ماذكره الشيخ أبو عبدالله في المختصر، الذي في أصول الفقه، ولم يستقص، وشذّ منه أشياء يحتاج الى استدراكها، وتحريرات غير ما حرّرها.

وانّ السيد المرتضى أدام الله علوه وإن أكثر في الأمالي، ومايقرأ عليه شرح ذلك، فلم يصنّف في هذا المعنى شيئاً يرجع اليه ويجعل ظهراً يستند اليه... وذكر بعض الحواشي عليه المحقق الطهراني[1].

١ ـ الذريعة ١٥:٢٢٧ و٦:٧٨.

معارج الأصول:

للمحقق أبي جعفر نجم الدين جعفر بن الحسن الهذلي الحلّي المتوفى سنة (٦٧٦) فقد كان مدة من الزمن يدرّس هذا الكتاب في المعاهد العلمية، فهو متن مختصر في أصول الفقه، عكف عليه الأصحاب بالشرح والتعليق وذكر شيخنا الطهراني عدة منها[١].

نهج الوصول الى معرفة الأصول:

نهاية الوصول الى علم الأصول:

للعلامة الحلّي الحسن بن يوسف المتوفى سنة (٧٢٦)، كتاب جامع في أصول الفقه، ذكر فيه ماذكره المتقدمون والمتأخرون ، ألّفه بالتماس ولده فخرالمحققين محمدبن الحسن، ورتّبه على اثني عشر مقصداً:

الأول: في المقدمات وفيه فصول.

والثاني عشر: في التعادل والتراجيح، والكتاب كبير يقع في أربعة أجزاء، ثمَّ اختصره وسمّاه «تهذيب طريق الوصول الى علم الأصول» فرغ منها سنة (٧٠٤).

تهذيب الوصول الى علم الأصول:

و يقال له أيضاً: تهذيب طريق الوصول، وقد يخفّف فيقال: تهذيب الأصول، أوتهذيب الوصول.

اشتهر هذا الكتاب من بين سائر كتب العلامة في أصول الفقه، ألّفه باسم ولده

١ ـ الذريعة ١٤: ٦٩ـ٧٠.

فخر المحققين.

وذكر العلامة الطهراني ٣٣ شرحاً عليها، وكذلك قسماً من الحواشي [1].

مبادىء الوصول الى علم الأصول:

و يقال له: مبادىء الأصول أيضاً، وهو متن مختصر في أصول الفقه، وبما انَّ الكتاب وقع مورد رغبة أهل العلم شرحه العلماء وعلّقوا عليه الحواشي [2].

منية اللبيب في شرح التهذيب:

للسيد ضياء الدين عبدالله مجدالدين أبي الفوارس محمدبن علي بن الأعرج الحسيني الحلّي، وهو أصغر من أخيه السيد أبي عبدالله عبدالمطلب الذي له أيضاً شرح التهذيب.

جامع البين من فوائد الشرحين:

للشيخ السعيد أبي عبدالله محمدبن مكّي الشهيد سنة (٧٨٦)، جمع فيه فوائد شرح السيد عميد الدين، والسيد ضياء الدين لكتاب تهذيب طريق الوصول الى علم الأصول، وزاد عليهما فوائد أُخر، وميّز ما اختصَّ به شرح الضياء بعلامة (ض) وما اختصَّ به شرح العميد بعلامة(ع).

واهتمَّ شيخنا عزّالدين الحسين بن عبدالصمّد تلميذ الشهيد الثاني و والد الشيخ بهاء الدين العاملي تصحيحات مفيدة لكتاب جامع البين [3].

١ ـ الذريعة ٤: ٥١١-٥١٤ و١٣: ١٦٥-١٧٠ و٦: ٥٤-٥٥.

٢ ـ الذريعة ١٤: ٥٢-٥٤.

٣ـ الذريعة ٥: ٤٣٥.

القواعد الكلية الأصولية والفرعية:

تأليف الشيخ أبي عبدالله محمدبن مكّي الشهيد في سنة (٧٨٦)، وعليها حواشي ذكر قسم منها المحقق الطهراني[1].

تمهيد القواعد الأصولية والعربية لتفريع الأحكام الشرعية:

للشيخ زين الدين بن علي بن أحمد الشامي العاملي الشهيد سنة (٩٦٦) يقع في قسمين: القسم الأوّل في بيان مائة قاعدة من القواعد الأصولية مع بيان مايتفرّع عليها من الأحكام.

معالم الدين وملاذ المجتهدين:

تصنيف أبو منصور الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني العاملي المتوفى سنة (١٠١١) هو القسم الأول كالمقدمة من معالم الدين في فقه آل ياسين، وهذا الكتاب الجليل صار عليه المعوّل في التدريس من زمن تأليفه الى هذا العصر، بعدما كان التدريس قبل هذا الكتاب على الشرح العميدي على تهذيب الأصول للعلامة الحلّي، وقدعكف عليه المتأخرون بالبحث والتعليق والشرح مبسوطة ومختصرة، ذكر قسماً منها المحقق الطهراني[2].

زبدة الأصول:

لبهاء الملّة والدين محمدبن الحسين بن عبدالصمد الحارثي العاملي الشهير بـ«الشيخ البهائي» المتوفى سنة (١٠٣٠).

من الكتب المهمة في بابها، عنى به المتأخرون، وعكف عليه العلماء وتولوه

١ ـ الذريعة ٦:١٧٣.

٢ ـ الذريعة ٦:٢٠٤-٢١٠ و١٤:٧٠-٧٢.

بالتدريس والتعليق والشرح [1].

الوافية:

للعلامة المولى عبدالله بن محمد البشروي التوني المتوفى سنة (١٠٧١) وقع هذا الكتاب مورد اقبال لدى العلماء فشرحه السيد الصدر القمّي، والسيد محمد مهدي بحرالعلوم، والسيد محسن الأعرجي الكاظمي.

المبحث الثالث أهم المعاهد العلمية في المدرسة الثالثة:

مدرسة النجف الأشرف:

بعد أن حققت مدرسة بغداد نجاحات كبيرة، وأصبحت المركز العلمي والقيادي للشيعة في عصر المفيد والسيد المرتضى وانتقلت الزعامة الدينية والعلمية بعد هذين العلمين الى شيخ الطائفة أبي جعفر محمدبن الحسن الطوسي، وأصبح المرجع الوحيد في مدرسة بغداد، وكان له كرسي التدريس والزعامة للطائفة، وكان يمارس عمله الى أن كبس على داره وأخذوا ماوجدوه من دفاتره وكرسيّه الذي كان يجلس عليه للكلام.

ولـمّا رأى الشيخ الحالة هذه استقرَّ رأيه على أن ينتقل من بغداد الى النجف الأشرف بجوار مرقد الامام أميرالمؤمنين، إذ هي البلدة الوحيدة في رأي الشيخ يومذاك التي تناسب انتقال المدرسة من بغداد إليها، إذ كانت النجف الأشرف هذه البلدة المقدسة بعيدة عن الغوغاء، والتنازع الفكري المعادي للمدرسة الشيعية، فجاء الشيخ الى النجف ليجدد من نشاطه الاسلامي والتثقيفي، ومازال بالنجف يمارس مهمته في زعامة الشيعة والتدريس والتأليف، وتطوير مناهج الدراسة العلمية لمدرسة النجف الحديثة.

ومن ذلك الحين الذي وضع الطوسي الحجر الأساس لهذه المدرسة في النجف

١ ـ الذريعة ٦: ١٠٦ ـ ١٠٣.

تعتبر تلك المدرسة معهداً للدراسات الاسلامية العالية في حقول الفقه والأصول والتفسير والفلسفة الاسلامية ـ المتبنّية على أسس فكرية متخذة من مدرسة أهل البيت«ع»ـ ومايتصل بذلك من شؤون العقيدة والفكر الاسلامي الذي يناسب المعهد الامامي.

و بعد أن انتقل الشيخ الطوسي الى النجف واستقرّ فيها التفّ حوله جمع من الطلبة والعلماء، وأخذ يؤمّ المدرسة الحديثة عدد كبير من رواد العلم والفضيلة و يقطعون في سبيل الوصول اليها، والتروي من منهلها العذب المسافات الشاقة وليتزوّدوا بزاد العلم والمعرفة، من هذه المدرسة المجاورة لقبر الأمير«ع» و يستمدّوا العون من صاحبها، فيعودوا بعد ذلك الى بلادهم وقومهم و ينشروا الأفكار والمعارف التي تزوّدوا بها و وعوها وليكونوا خير دعاة لها.

ومن ذلك الحين ارتاد النجف الأشرف القوميات المختلفة، فكانت مدرسة النجف ملتقى البعثات العلمية التي تقصدها من نقاط بعيدة من الشرق والغرب، وكم لهذا الملتقى والاحتكاك العلمي الملائم والحسن من تأثير على تقدّم العلم وتطوير الثقافة الاسلامية، إذ تحمل كلّ طائفة تتوجه الى مدرسة النجف ذهنيتها القومية الخاصة بها، وما تحمل من تجارب فكرية على صعيد الحياة الدراسية في المدرسة النجفية، وتنسجم في حياة فكرية مؤتلفة تجمعها وحدة الهدف ووحدة البيئة، فكان هذا الجمع الظريف في هذه المدرسة يهيء آفاقاً فكرية واسعة في التفكير والصياغة والتعبير والأدب والنتاج الفكري الناشيء في جوّ ملائم بعيد عن التشاغب والغوغائية والتي تتصل بأكثر من تجربة فكرية، والممثلة لأكثر من ذهنية واحدة.

والمدرسة القائمة على مثل هذه الأسس الفكرية تملك من عناصر المرونة والبقاء مالا تملكه أيّ ثقافة ونتاج علمي آخر في كثير من الأحوال.

ومن هذه المدرسة منذ عصر الطوسي الذي وضع حجرها الأساس وفي سائر العصور المتأخرة انتشرت حلقات الدرس والبحث، وتفرّغ العلماء والباحثون للبحث والتحقيق في شؤون الفكر الاسلامي وتظافرت الجهود الجبّارة المخلصة في جميع هذه المجالات، كما أنّه من الطبيعي في معهد عظيم كمدرسة النجف أن تتشعّب الدراسة

الى مختلف حقول المعرفة، وكان لأجل ذلك يطلق عليها اسم الجامعة.

فكانت هذه المدرسة النجفية المعروفة بالتعقل الفكري الخاص بها غنية بالعلوم الدينية، والمعارف الإلهية بحيث لم تتهيّأ لسائر المعاهد والمدارس الشيعية هذه القاعدة الفكرية المبتنية على أسس من العلم والمعرفة العريقين فكان لذلك أن تخرّج رجالات من العلماء والمفكّرين والفقهاء من مختلف الأقطار الاسلامية، وأوفدت الكثير من خرّيجيها لكثير من الأقطار لتعليم الفقه والأصول وسائر الجوانب العلمية وارشاد الأمة، ودعوة الآخرين الى الاسلام.

ملامح مدرسة النجف الأشرف:

امتازت المدرسة النجفية للمؤهلات الخاصة بها أن تنتج الآلاف من الكتب والموسوعات في مختلف الحقول العلمية من عصر الطوسي الى هذا اليوم، فكانت النجف هي الأمّ للدراسات الاسلامية في كثير من العصور التي مرّت على الشيعة.

وامتازت هذه المدرسة بوجود أكبر المراجع والقادة الفكريين للطائفة في التاريخ الامامي، ولذلك توجّهت اليها انظار وآمال الطائفة في جميع البلدان، وكانت المدرسة النجفية والمراجع المستقرّين فيها قبلة تتعشّقها قلوب المؤمنين.

فكان لهذه المدرسة في طول تاريخ الشيعة تأثير خاص لتوجيه سائر المعاهد الدينية الموجودة في سائر الأماكن، فكانت الخطط الفكرية والقيادية تنجم منها منذ عهد تأسيسها.

اضافة الى ذلك انَّ أكثر المعاهد والمدارس التي حدثت في تاريخ الشيعة كانت حصيلة أيدي العلماء المتخرجين من مدرسة النجف، وبالنهاية يرجع الفضل اليها.

وظاهرة أخرى نراها في مدرسة النجف هي تزعم قيادة كثير من الحركات في وجه القوى المعادية للاسلام وتغذيتها الروحية والفكرية من رجال العلم والعلماء في النجف الأشرف، فكانت النجف المركز المناسب لتهيئة الخطط الفكرية لمواجهة أعداء الاسلام، والذّب عن حرمة القرآن ونواميس المسلمين.

فللنجف مواقف مشهودة ضدّ التيار الإلحادي والأفكار الموجّهة من قبل

الاستكبار العالمي، وفي سبيل ذلك ضحت بأعزّ مالديها من أبناء مخلصين وعلماء قادة مفكرين، و بالأخص في العصر الأخير الذي تسيطر فيه على الحكم في العراق جماعة من أعداء القرآن فواجه علماء النجف من هؤلاء الأعداء الظلم والاضطهاد الذي لم يسبق له نظير، فقتلت وسجنت وأخرجت كثيراً من خيرة أبناء مدرسة النجف وعلمائها الأبرار ومراجعها الأخيار و بذلك تضرر النجف والأمة الاسلامية بخسارة فادحة نسأل الله تعالى أن يدفع شر أعداء الأمة، والتوفيق لماهو الصلاح والعاقبة.

(مدرسة الحلة)

برزت مدرسة بالقرب من مدرسة النجف في أواخر القرن الخامس، فظهر في مدرسة الحلة فقهاء كبار وكان لهم الأثر الكبير في تطوير مناهج الفقه والأصول الامامي، واعطاء صبغة جديدة لعملية الاستنباط، وتنظيم أبواب الفقه كـ«المحقق الحلّي» والعلامة وابنه فخرالمحقّقين، وابن نما وابن أبي الفوارس والشهيد الأول، وابن طاووس، وابن ورّام وغير هؤلاء الفطاحل الأعلام وقادة الفكر في المجالات المختلفة.

فأصبحت مدرسة الحلة مركزاً كبيراً من معاهد الحركة العلمية في الأوساط الاسلامية الشيعية، تؤمها البعثات والطلاب من كلّ أجزاء الوطن الاسلامي و بخاصة البلدان الشيعية.

وكان من بين الاعلام المتخرجين من هذه المدرسة وعلى طليعتهم المحقق نجم الدين أبو القاسم جعفر بن سعيد الحلّي رائد مدرسة الحلّة، وقدقدّر له أن يجدد كثيراً من مناهج البحث الفقهي والأصولي، وأن يتخرّج من معهده العلمي و يتربّى على يديه كثير من العلماء مثل العلامة الحلي، وأن يخلّف كتباً قيمة حيث تعدّ من أغلى التراث الامامي، في الأوساط العلمية، ولايزال العلماء يتناولونها بكلّ حباوة واعتزاز، كـ«شرائع الاسلام» والمعتبر والمختصر النافع وكتاب المعارج في أصول الفقه.

وكان المعارج يُدرّس مدة طويلة في المعاهد العلمية، الى أن خرج كتاب المعالم في الأصول فصار محوراً للدراسة.

وممّن تخرّج على يد المحقق «العلامة الحلّي» جمال الدين الحسن بن يوسف بن

المطهّر (٦٤٨-٧٢٦)، كما انّه درس عند المحقق الطوسي الفلسفة والرياضيات.

وقد قدّر للعلامة بفضل مقدرته العلمية أن يساهم مساهمة فعّالة في تطوير مناهج الفقه والأصول وتوسيع دراستها، كما انّه ساهم في تبليغ المذهب والذبّ عنه، ومحاربة المعادين والوقوف أمامهم، ودحض شبهاتهم في مختلف الجهات، وبالأخص الدفاع عن أهل بيت الرسالة«ع»، فهو من النجوم الوضّائة في سماء العلم والتحقيق في تاريخ الفكر الجعفري، وتربّى في مدرسته ولده فخرالمحققين، والشهيد الأول وغيرهم من العلماء.

ملامح مدرسة الحلّة:

من ملامح مدرسة الحلة اخراج الموسوعات العلمية والكتب المفيدة كشرائع المحقق ذلك التنظيم الرائع لأبواب الفقه، فصار المعوّل في التأليف ومشى على طبقه الفقهاء من ذلك العصر الى هذا الزمان، ومن التراث الذي انتجته للمدارس العلمية الامامية موسوعة العلامة في الفقه وهي «التذكرة» فهي تعدّ في مقدّم الموسوعات الفقهيةمن نوعها في تاريخ الفقه الشيعي من حيث السعة والمقارنة وتطوّر مناهج البحث، فقدحاول العلامة في موسوعته أن يجمع آراء مختلف المذاهب الاسلامية، ومناقشتها بصورة لم يسبقه أحد في الدراسات المقارنة الأخرى.

مدرسة المشهد الرضوي في خراسان:

انَّ قداسة أرض طوس حيث تحتضن بتربتها الامام الثامن علي بن موسى الرضا«ع»، لها التأثير التام في أن يتكوّن حول مرقد هذاالامام مدرسة تزدهر بالعلماء والطلاّب الوافدين إليها.

فكانت مدرسة المشهد الرضوي ولا تزال من احدى المعاهد الشيعية، والتي تتبلور فيها الحركة العلمية والثقافية، كما انّها كانت في طول تاريخها لاتخلو من وجود شخصيات كبيرة من العلماء والمراجع فيها.

وهذه المدرسة فيها من المدارس والآثار الدالة على قدمها تاريخياً، وانّها كانت مهبطاً لروّاد العلم والطلاّب، وانّها كانت من أهمّ المدارس في التاريخ الفكري للعلوم الاسلامية.

وتخرج من هذه المدرسة المئات من علماء الشيعة، كالشيخ الطوسي الذي قدّر له أن يأتي الى العراق و يأسس مدرسة النجف التاريخية العظيمة، كماتخرج من هذه المدرسة أعاظم مفكري الشيعة كخواجه نصير الطوسي.

وانتجت هذه المدرسة التراث الإمامي في جميع حقوله كالتفسير والحديث والأصول والعلوم العقلية والأدب والعلوم الرياضية.

ومن ملامح هذه المدرسة أن تحتفظ بمثل مكتبة الامام الرضا«ع»، وهذه المكتبة العظيمة الذي يبلغ عدد كتبها خمسين ألف مجلد وقسم منها مخطوط قلّ نظيره في سائر المكتبات.



بعد أن استعرضنا المدارس الثلاثة السابقة يجدر بنا الآن أن نستعرض المدرسة الرابعة، التي تطوّر فيها علم الأصول الى مرحلة جديدة، وفي هذه المرحلة بُني علم الأصول وفقاً لقواعد وأسس جديدة، غير تلك التي بُني عليها في المدارس السالفة، و بعد ممارسة البحث الأصولي وتطوّره على يد رجالات العلم والتحقيق مثل: الفاضل التوني، وأغاحسين الخوانساري، والمحقق الشيرواني، وأغاجمال الخوانساري، وصدرالدين القمّي و... حيث كان هؤلاء العامل الأساسي لتنشيط هذا العلم، ووقوفهم في وجه تيار الفكرة الأخبارية التي كانت تهدف الى تقويض علم الأصول، وتهديم أفكاره، فهؤلاء مهّدوا ببحوثهم العلمية ونتاجهم الفكري المبكر لظهور مدرسة جديدة، حيث أخذ علم الأصول بناءاً على تطوره في هذه المرحلة، أصبح مستعداً للانتقال الى عصر جديد، وبهذا يمكن اعتبار تلك البحوث والدراسات البذور الأساسية لظهور المدرسة الأخيرة.

المبحث الأول أهم رجال هذه المدرسة:

بدأ ظهور المدرسة الرابعة: الوحيد البهبهاني:

نشأة هذه المدرسة الجديدة في كربلاء في القرن الثاني عشر والثالث عشر على يد رائدها ومؤسسها المجدد الكبير المحقق محمدباقر بن محمدأكمل المعروف بـ«الوحيد البهبهاني».

ولد في اصفهان سنة (١١١٨)، وقطن برهة من الزمن في بلدة بهبهان، ثمّ توجّه الى كربلاء لتكميل دراسته فيها.

يقول الخوانساري في حقّ المحقق الوحيد البهبهاني:

كان مروّج رأس المائة الثالثةعشرة من الهجرة المقدسة، ارتفعت بميامن تأييداته المتينة أغبرة آراء الأخبارية، كما انّه انطمست آثار البدع من جماعة الملاحدة والغلاة والصوفية.

وقدسمّي بـ«آيةالله تعالى» من غاية الكرامة له، كما سمّي من قبله العلامة بـ«آية الله» [١].

مقاومة البهباني لِلأزمةالأخبارية:

وكان العمل الجبّار الذي تبنّاه المحقق البهباني هو مقاومة هذه الأزمة الخطيرة، فقاوم أشد المقاومة في قبال الحركة الأخبارية، وكانت العاقبة لانتصار علم الأصول، وهزيمة الفكرة المعادية لها.

يصوّر لنا المحقق الخوانساري الوضع الحاكم في ذلك العصر قبل انتصار المحقق البهباني قائلاً: قدكانت بلدان العراق سيّما المشهدين الشريفين مملوءة قبل قدومه من

١ ـ روضات الجنات ٢: ٩٤.

معاشر الأخباريين بل ومن جاهليهم والقاصرين، حتى انَّ الرجل منهم كان اذا أراد حمل كتاب من كتب فقهائنا حمله مع منديل، وقدأخلى الله البلاد منهم ببركة قدومه، واهتدى المتحيرة في الأحكام بأنوار علومه[١].

عوامل انتصار المحقق البهباني على النزعة الأخبارية:

وكان لانتصار الفكرة الأصولية على النزعة الأخبارية عوامل مهمة أشار إليها الشهيد الصدر «قدّس سرّه» حيث يقول:

وقد يكون هذا الدور الايجابي الذي قامت به هذه المدرسة[٢]، فافتتحت بذلك عصراً جديداً في تاريخ العلم متأثّراً بعدة عوامل: منها: عامل ردّ الفعل الذي أوجدته الحركة الأخبارية، و بخاصة حين جمعها مكان واحد ككربلاء بالحوزة الأصولية، الأمر الذي يؤدّي بطبيعته الى شدة الاحتكاك وتضاعف ردّ الفعل.

ومنها: انَّ الحاجة الى وضع موسوعات جديدة في الحديث كانت قداشبعت ولم يبق بعد وضع الوسائل والوافي والبحار إلاّ أن يواصل العلم نشاطه الفكري مستفيداً من تلك الموسوعات في عمليات الاستنباط.

ومنها: انَّ الاتجاه الفلسفي في التفكير الذي كان الخوانساري قدوضع احدى بذوره الأساسية زوّد الفكر العلمي بطاقة جديدة للنمو وفتح مجالاً جديداً للابداع، وكانت مدرسة البهباني هي الوارثة لهذا الاتجاه.

ومنها: عامل المكان، فانَّ مدرسة الأستاذ الوحيد البهباني نشأت على مقربة من المركز الرئيسي للحوزة ـ وهو النجف ـ فكان قربها المكاني هذا من المركز سبباً لاستمرارها ومواصلة وجودها عبر طبقات متعاقبة من الأساتذة والتلامذة، الأمر الذي جعل بامكانها أن تضاعف خبرتها باستمرار وتضيف خبرة طبقة من رجالاتها الى خبرة الطبقة التي سبقتها، حتى استطاعت أن تقفز بالعلم قفزة كبيرة وتعطيه ملامح عصر

١ـ روضات الجنات ٢: ٩٤

٢ـ يشير الى مدرسة الوحيد البهباني ومواقفه العظيمة ضد الفكرة الأخبارية.

جديد...[١].

و بعد أن مارس المحقق البهباني جهده، وأسّس مدرسته العظيمة، واستطاع أن يسهم في تطوّر علم الأصول السهم الكبير، انتج من المصنفات قريب ستّين مابين رسالة وكتاب، ومنها الفوائد الحائرية، وحاشية على المعالم.

توفى عام (١٢٨٠) وقدجاوز التسعين، ودفن في الرواق المطهّر الحسيني«ع» قريباً ممّايلي أرجل الشهداء[٢].

استمرّت المدرسة الرابعة تتطوّر على يد تلاميذ الوحيد البهباني ومن جاء بعده، ويمكن تقسيم هذه المدرسة الى أدوار:

الدور الأوّل:

وفي هذا الدور تجلّى تطوّر علم الأصول على يد تلاميذ الوحيد البهباني مؤسس المدرسة الرابعة وهم:

١ ـ السيد مهدي بحرالعلوم الطباطبائي النجفي.

السيد مهدي بن مرتضى الطباطبائي النجفي، ولد في بلدة كربلاء عام(١١٥٥)، اشتغل برهة على والده ثمّ على الوحيد البهبهاني، و رجع الى النجف الأشرف و أقام بها، و بعد وفاة أستاذه الوحيد أصبح امام أئمة العراق و مرجع الطائفة، و له كرامات ومآثر تدل على عظمته و جلالة قدره، ناظر أحد علماء اليهود في بلدة «ذوالكفل» و أفحمه، و قضيته مشهورة، و في كتب الرجال مسطورة.

تخرج في مدرسته جمع كثير من أجلة علماء الطائفة كالمحقق النراقي، و الفاضل الكرباسي مؤلف كتاب الاشارات.

و صنّف القواعد الأصولية، على غرار الفوائد الحائرية لأستاذه الوحيد البهبهاني، و شرح الوافية للفاضل التوني في أصول الفقه.

١ ـ المعالم الجديدة /٨٥ـ٨٦.

٢ ـ ترجم في روضات الجنات ٢: ٩٤.

توفي في النجف الأشرف عام(١٢١٢) و دفن بمقبرة شخصية له بجنب قبر الشيخ الطوسي، و هي اليوم مكتبة عامة[1].

٢ ـ كاشف الغطاء:

الشيخ جعفر بن خضر الحلّي الجناحي النجفي المعروف بـ«كاشف الغطاء» تتلمذ لدى المحقق الوحيد البهبهاني، حتى انّه يعد من أعظم تلامذته.

وقدّر له أن يحقق خدمات مهمة للاسلام والمذهب الجعفري: ففي العراق وايران قام بمحاربة الجمود الفكري، والأزمة الأخبارية، وقضا بجهود جبّارة على الدعوة للبقاء على تقليد الأموات، وعلى الدعوة للتقليد بالرجوع لأصل واحد وهو الأخبار، وعلى الدعوة لنبذ العمل بأصول الفقه من الكتاب والاجماع والعقل.

ودعى للعمل بأصول الفقه التي قام القطع والقطعي على حجيّتها، وصحة التمسّك بها.

و بذل قصارى جهده في توليد الحركة و بثّ الحياة العلمية في الفقه والأصول وسائر العلوم، وحتى أصبحت النجف الأشرف في عصره هي المركز العام للدراسة الدينية.

ألّف كتاب كشف الغطاء، وفي مقدمته ذكر مختصراً من أصول الفقه، و يعد هذا الكتاب من أنفس الكتب العلمية في المعاهد الامامية، و يروي عنه صاحب الاشارات الفاضل الكرباسي، والشيخ الفقيه محمدحسن صاحب الجواهر.

توفي في النجف الأشرف عام (١٢٢٧)[2].

١ ـ ترجم في روضات الجنات ٧: ٢٠٢ـ٢١٦.

٢ ـ ترجم في روضات الجنات ٢: ٢٠٠.

٣ ـ الشيخ أسدالله بن اسماعيل الدزفولي الكاظمي:

ولد في دزفول سنة (١١٨٦)، وقرأ مقدمات العلوم بها، ثمّ هاجر الى العراق وحضر في كربلاء درس الوحيد البهبهاني.

وهو ممّن شملته العناية الإلهية فكان صاحب الذهن الوقّاد، والتحقيقات المعروفة، و يعدّ من مؤسسي القواعد الفقهية والأصولية.

نقل الشيخ الأنصاري في آخر بحث الاجماع من كتابه «الرسائل» كلاماً لهذا المحقق من كتابه «كشف القناع».

وهذا الأمر يكشف مدى تضلّعه في الفقه والأصول حتى اعتنى بكلامه المحقق الأنصاري مع كمال عظمته.

و بعد وفاة الشيخ جعفر كاشف الغطاء اتجهت له المرجعية، ورجع اليه جماعة في أمر التقليد.

وتخرج لديه جماعة منهم: السيد عبدالله شبر، والشيخ موسى وأخيه الشيخ علي كاشف الغطاء.

كان الشيخ أسدالله صهر كاشف الغطاء الكبير وتتلمذلديه أيضاً، كما انّه تتلمذ لدى السيد مهدي بحرالعلوم.

له من التصنيفات: مقابس الأنوار في الفقه، ومنهج التحقيق، ومناهج الأعمال، وكتاب كشف القناع عن وجوه حجية الإجماع، يتضمّن كثيراً من مباحث الظنون[1].

أدركته الوفاة في النجف الأشرف سنة (١٢٣٤)، ودفن في مقبرة أستاذه كاشف الغطاء.

١ ـ ترجم في روضات الجنات ١: ٩٩ـ١٠١ وفي «شخصية الشيخ الأنصاري / ٣٨٩ـ٣٩٠».

٤ ـ مرزا أبو القاسم الجيلاني القمّي:

مرزا أبو القاسم بن محمدحسن من أركان الدين وكبار المؤسسين، ومن مشاهير محقق الامامية.

ولد في بلدة جابلاق من أعمال رشت في سنة (١١٥١) فاشتغل على أبيه في علوم الأدب، ثمَّ انتقل الى خوانسار، فدرس فيها الفقه والأصول على السيد حسين الخوانساري عدة سنين، ثمَّ هاجر الى العراق فمكث في كربلاء ولازم درس الوحيد البهباني في الفقه والأصول، حتى حصل على اجازة من أستاذه فعاد الى بلاده واشتغل بها بالأمور الشرعية، و بعد قليل انتقل الى اصفهان فكان يدرس فيها واستفاد منه الكثير، وسافر الى شيراز و بقي فيها مدة والتفَّ حوله الطلاَّب فكان يدرسهم الفقه والأصول.

ثمَّ انتقل الى قم في زمن فتحعليشاه القاجاري، ولمَّاحطَّ الرحال بها عكف على التدريس والتصنيف حتى أصبح من كبار المحققين والمؤسّسين، واشتهر أمره، ولقب بـ«المحقق القمّي».

فتوجّه اليه الناس ورجعوا عليه في أمر التقليد والمرجعية، فكان زعيماً دينياً وعلمياً، وتخرج من مدرسته جمع كثير من العلماء الأعلام.

له تصنيفات جليلة أشهرها «القوانين المحكمة» في علم الأصول، وطبع هذا الكتاب مرّات عديدة، و يعدّ هذا السفر الجليل من أجلّ كتب دوّنت في علم الأصول، لدقائقه وغوامضه.

وقد استقبل هذا الكتاب العلماء والطلاَّب بكلّ عزّ وإجلال، فأصبح من الكتب الدراسية، وعني به جماعة من العلماء، فشرحوه وعلّقوا عليه الحواشي.

توفي رحمه الله في سنة (١٢٣١) ودفن بقم[١].

١ ـ ترجمه في كرام البررة ١: ٥٢ـ٥٥ والروضات ٥: ٣٦٩.

٥ ـ السيد علي صاحب الرياض:

الأمير سيد علي بن محمد علي الطباطبائي ولد في بلدة الكاظمية عام (١١٦١) وتتلمذ لدى الوحيد البهبهاني وأصبح من أعظم تلامذته، كما انّه وصل الى المرجعية للطائفة، وتربّى في مدرسته الفقهية والأصولية جم غفير منهم ولده السيد محمد المجاهد مؤلف مفاتيح الأصول.

ألّف في علم الأصول رسالة في اجتماع الأمر والنهي، وأصالة البرائة، وحجية الاجماع والاستصحاب، وحجية الشهرة، وحجية ظواهر الكتاب، وحجية المفهوم بالأولو ية.

سعى في بثّ آراء أستاذه الوحيد البهبهاني و بسط مدرسته الأصولية ودحض الفكرة الأخبارية، والجمود الفكري. فكانت حوزته العلمية في كر بلاء من المعاهد العظيمة التي حدثت فيها، وصنّف في الفقه كتاب رياض المسائل، و يعرف مدى تبحره وتسلّطه على القواعد الأصولية والفقهية من خلال هذه الكتب، وابتناء مسائله على الأسس الأصولية.

توفي في كر بلاء عام (١٢٣١).

الدور الثاني:

وحصل التقدّم في المرحلة الثانية على يد:

١ ـ محمدتقي بن عبدالرحيم الطهراني الاصفهاني:

سافر الى النجف الأشرف، وحضر درس الشيخ الكبير كاشف الغطاء، وتزوّج بابنته، وقرأ عند السيد محسن الأعرجي الكاظمي أيضاً، سافر الى اصفهان وأقام بها، وكان له فيها مجلس درس يحضره المئآت من الطلاّب، واشتهر بأصول الفقه.

له شرح على «معالم الأصول» يسمّى بـ«هداية المسترشدين». برز منه الى آخر

مسألة مفهوم الوصف.

توفي سنة (١٢٤٨) ودفن باصفهان بمقبرة تخت فولاد[١].

٢ ـ محمد حسن بن عبد الرحيم الطهراني الاصفهاني:

قطن كربلاء، وكان يدرس فيها الأصول والفقه.

وكان هذا الشيخ المعظم كثير الطعن على طائفة الشيخية، متجاهراً باللعن عليهم.

ألّف كتاب «الفصول» في علم الأصول، وهو من أحسن ما كتب في أصول الفقه وأجمعها للتحقيق والتدقيق، وله نظر في البحث في هذا الكتاب لصاحب القوانين ونظريات هذا المحقق تعتبر لديه حائزة من أهمية واعتبار.

توفي في بلدة كربلاء عام (١٢٦١) ودفن هناك[٢].

٣ ـ شريف العلماء:

محمدشريف بن حسنعلي الآملي المازندراني من فحول فقهاء الشيعة والمتبحّرين في علم الأصول.

ولد في كربلاء، وقرأ فيها المقدمات، ثمّ حضر درس السيد المجاهد، وصاحب الرياض مدة تسع سنين. ثمّ استقلّ بالتدريس.

وقدّر له أن يربّي تلامذة أجلاّء حتى أصبحوا من أكبر المحققين، كالمحقق الأنصاري المرتضى، وسعيد العلماء المازندراني، وصاحب الضوابط، وملاأغا الدربندي، والسيد محمد شفيع الجابلقي.

وهذه من أكبر النعم الإلهية التي لم تتيسّر لكل أحد، وكان كثير الاهتمام بتعليم الطلبة وتدريسهم، ولأجل ذلك لم يحصل له وقت وفراغ للتأليف، وكان له مجلسين: أحدهما للطلبة المبتدئين، والآخر لمن وصل الى مرتبة سامية من الاجتهاد.

١ ـ ترجم في روضات الجنات ٢:١٢٣ـ١٢٥.

٢ ـ ترجم في روضات الجنات ٢:١٢٦.

توفي بمرض الطاعون سنة (١٢٤٥) في مدينة كربلاء المقدسة[١].

٤ ـ أحمد بن محمد مهدي النراقي الكاشاني:

أخذ أوليات دراساته في مسقط رأسه، ثمَّ شرع في العلوم العربية حتى انهاها، كما انَّه تعلّم هناك المنطق والرياضيات، والفقه والأصول، والحكمة والفلسفة عند والده العظيم محمد مهدي النراقي، غادر بلده عازماً العراق للاستفادة التامة لدى أعلامها، ودخل النجف الأشرف حيث كانت المعهد الأعلى للدراسات العالية، وهناك حضر درس الفقيه الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والعلامة بحرالعلوم، فاستفاد منهما حتى بلغ الغاية في الفقه والأصول.

وذهب الى كربلاء واستفاد من أعلامها أيضاً.

يقول صاحب الروضات في العلامة النراقي:

جامعاً للأصول والفقه والرياضي والنجوم، له شرح تجريد الأصول لوالده، عين الأصول، مفتاح الأحكام.

كما انَّ كتابه المستند معروف ومورد الافادة والاستفادة لدى الأعاظم والفحول، وكتاب معراج السعادة في الأخلاق. وتتلمذ لديه العلامة الأنصاري أربع سنين وأجازه في نقل الحديث[٢] وكفاه فخراً أن تربّى في مدرسته مايفتخر الدهر بهم كالشيخ مرتضى الأنصاري.

ارتحل الى جوار ربّه سنة (١٢٤٥)، وحمل جثمانه الى النجف الأشرف ودفن في الصحن الشريف جوار مولانا أميرالمؤمنين «ع».

١ ـ ترجم في كتاب «شخصية شيخ أنصاري /١٤٨-١٤٩.
٢ ـ روضات الجنات ١: ٩٥-٩٩.

٥ ـ القزويني:

السيد ابراهيم بن محمدباقر الموسوي القزويني:

ولد في قزوين وقرأ فيها مبادىء العلوم، ثمّ هاجر الى مدينة كربلاء في العراق.

تتلمذ على شريف العلماء المازندراني محمدبن حسنعلي، حتى بلغ أمره في التدريس مرتبة عالية، فكان يدرّس في حياة أستاذه وتهوي اليه أفئدة الطلاّب قبل وفاته.

وأخذ الفقه من فقهاء النجف الأشرف خصوصاً من الفقيه الشيخ موسى كاشف الغطاء.

حتى استقلّ بالتدريس، وانتهت اليه الرئاسة، وشدّت الى حضرته رواحل الآمال من كلّ صوب ومكان، وتخرج على يديه الأفاضل والأعلام.

له من التصنيفات ضوابط الأصول، أكثره من تقريرات شيخه، وألّفه في بادىء أمره، وله نتائج الأفكار مشتملاً على مائة وخمسين فصلاً، كتبه في أيّام قلائل، لكنّه مشحون بالتحقيق والتدقيق[١].

ووافاه الأجل في سنة حدود(١٢٦٢)[٢].

٦ ـ الكلباسي:

محمد ابراهيم بن محمد حسن الكاخي:

ولد سنة (١١٨٠) باصفهان، تعلّم مقدمات ومبادىء العلوم بها، ثمّ تشرّف الى العتبات في العراق، وحضر بحث السيد مهدي بحرالعلوم، وشيخ جعفر كاشف الغطاء، والسيد محسن الكاظمي، والوحيد البهبهاني.

رجع الى ايران، واستفاد من مرزا أبو القاسم القمّي صاحب القوانين، والمولى

١ ـ ترجم في روضات الجنات ١: ٣٧ـ٤٢.

٢ ـ شخصيّة شيخ أنصاري /١٤٩.

مهدي النراقي.

أصبح مرجعاً كبيراً في اصفهان، واجتمع حوله الطلبة والفضلاء، فكان يلقي إليهم الدرس، وتربّى على يديه جيل كبير، وخدم الشريعة الغراء.

من مؤلفاته كتاب الاشارات في الأصول، فقدحقق مباحثه وأتقن فيها، وتناولته الأيدي والألسن، وهو كتاب جليل، مورد عناية أهل الفضل والعلم.

كما انَّ له في الفقه شوارع الهداية، ومنهاج الهداية[1].

٧ ـ الشيخ الفقيه محمد حسن صاحب الجواهر النجفي:

محمد حسن بن باقر النجفي من أركان الطائفة الجعفرية وأكابر الفقهاء الامامية.

ولد في النجف الأشرف حدود سنة(١٢٠٢)بعدما قرأ السطوح حضر درس السيد محمد جواد العاملي مؤلف مفتاح الكرامة، والشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي، و ولده الشيخ موسى.

نبغ في أواسط القرن الثالث عشر، وتقدّم في العلم والفضل حتى بانت للملأ العلمي مكانته السامية وعلمه الكثير.

فانتهت اليه زعامة الشيعة ورئاسة المذهب الامامي في كلّ الأقطار، وخضع له علماء عصره وشهدوا له بالتفوّق والتقدّم.

فتخرج من معهد درسه في الفقه والأصول جم غفير، انتشروا في الأنحاء والأرجاء الشيعية منهم: محمد حسين الكاظمي، والشيخ علي الخليلي والمولى علي الكني، وشيخ العراقين الطهراني، ومرزا حبيب الله الرشتي. توفي في النجف الأشرف عام (١٢٦٦) ودفن بمقبرته الخاصة[2].

١ ـ ترجم في روضات الجنات ١: ٣٤ـ٣٧.

٢ ـ ترجم في كرام البررة ١: ٣١٠ـ٣١٤.

٨ ـ السيد محسن بن حسن الأعرجي الكاظمي:

قرأ على السيد صدرالدين القمّي مؤلّف شرح الوافية، وعلى الوحيد البهبهاني، وتتلمذ لديه السيد صدرالدين العاملي والسيد عبدالله شبر، ألّف المحصول في علم الأصول، والوافي في شرح الوافية للفاضل التوني. توفي في الكاظمية حيث كان يسكنها عام (١٢١٤) [1].

الدور الثالث الذي هوأرقى الأدوار الثلا ثة، ورائد هذه المرحلة:

الشيخ الأنصاري:

وبما انَّ هذا المحقق والمؤسس العظيم أوجد حركة لم‌يسبقه أحد اليها، لذلك استعرضنا حياته العلمية في فصول بشيء من التفصيل.

نشأته:

نستعرض هنا موجزاً من حياة شيخنا الأنصاري و بدء نشأته.

هو الشيخ مرتضى بن محمد أمين ولد عام (١٢١٤) في بلدة دزفول. كان والده الشيخ محمدأمين الأنصاري من أجلة العلماء في دزفول فقدعاش الشيخ مرتضى وتربّى في بيئة دينية وعلمية، وكان لهذه البيئة أثراً خاصاً في تكوين شخصية هذا الرجل العظيم.

دراسته:

تعلّم الدروس الابتدائية: المقدمات الأوليّة بعد الفراغ من علوم اللغة والأدب وعلم البلاغة والمنطق.

ثمّ شرع في الأصول والفقه، و بعد دراستها نال مرتبة سامية في مدة قليلة حتى

١ ـ ترجمه في روضات الجنات ٦: ١٠٤.

صار يشار اليه بالبنان.

أسفاره وأساتذته:

سافر العلامة الأنصاري بخدمة والده عام (١٢٣٢) وكان عمره يومذاك ثمانيةعشر سنة الى زيارة العتبات المقدسة في العراق، فلمّا وردا مدينة كربلاء وكانت في ذلك اليوم مركزاً علمياً مضاهياً للنجف الأشرف، تشرّف الشيخ مع والده لزيارة السيد المجاهد حيث كان زعيم الحوزة العلمية، وتعرّف السيد على الشيخ الأنصاري وقابليته واستعداده، طلب من والده أن يمضي الى وطنه و يدع ولده في كربلاء، امتثل والد الشيخ أمر السيد وترك ولده في كربلاء ليستفيد من درس السيد، فواظب الشيخ الأنصاري في كربلاء على درس السيد، وشريف العلماء مدة أربعة أعوام، ثمَّ سافر الى مسقط رأسه، و بقي هناك مايقرب من سنتين مشتغلاً بالتدريس والتحقيق.

وعاد مرة ثانية الى مدينة كربلاء ليكمل دروسه، فحضر درس شريف العلماء و بقي ملازماً الاستفادة منه مدة عام واحد. ثمَّ عزم على الذهاب الى النجف الأشرف وحضر درس الفقيه الشيخ موسى كاشف الغطاء، فوجده بحراً متلاطماً فاستفاد منه سنة كاملة.

ثمَّ عاد الى وطنه ثانية، وكانت الغاية من سفره هذه المرة التجوّل في أصقاع بلدان ايران العلمية والتعرّف بعلماءها حتى يطلع على الحركة العلمية في تلك البلاد، فكانت أول بلدة دخلها هي مدينة بروجرد، و بقي هناك شهراً واحداً، ثمَّ عزم على المغادرة قاصداً مدينة اصفهان، وكان فيها الزعيم الديني يومذاك السيد محمدباقر الشفتي، وحضر معهد درسه، فلمّا تعرّف السيد بالشيخ الأنصاري أخذه الى داره وأكرم ضيافته، و بقي هناك شهراً كاملاً، وكانت تجري بينهما محاورة و مناظرات علمية، وكان السيد معجباً بآراء الشيخ، وطول وسعة نظره.

ثمَّ خرج الشيخ من اصفهان قاصداً مدينة كاشان، ورد الشيخ الى بلدة كاشان، وحضر درس العلامة النراقي، الذي كان له في ذلك العصر الشهرة العظيمة في

الأوساط العلمية.

بقي الشيخ الأنصاري في كاشان أربعة أعوام مستفيداً من هذا العالم الجليل حتى استكمل حصيلة من علومه الغزيرة، بعد أن كان الشيخ الأنصاري حاضراً ومشتركاً في درس السيد المجاهد وشريف العلماء وكاشف الغطاء، وهذا يدلّ على أنَّ العلامة النراقي كان في غاية المكانة العلمية حيث يهتمّ به الأنصاري غاية الاهتمام وحضر عنده مدة أربعة أعوام.

ثمَّ عزم على مغادرة كاشان بعد بلوغه أرقى مراتب الاجتهاد. فاستجاز أستاذه للسفر والرحيل، فشقّ ذلك على العلامة النراقي لأنسه به، فأجاز لذلك.

واستجاز الأنصاري أستاذه النراقي في رواية الحديث، فأجازه النراقي باجازة مرموقة تدلّ على بُعد اهتمامه وأكباره بمكانة الشيخ الأنصاري عنده، وكان ذلك سنة (١٢٤٤).

ثمَّ غادر الشيخ مدينة كاشان بعد أن أتحفه النراقي بالاجازة الروائية، ثمَّ زار مشهد الامام علي بن موسى الرضا«ع» وعاد الى مسقط رأسه، وكان ذلك بعد أن تجوّل خمسة أعوام.

فاجتمع عنده هناك جماعة من أهل الفضل للاستفادة منه، وكان الشيخ الأنصاري يلقي عليهم الدرس، وذلك بالاضافة الى اشتغاله بالتأليف والتصنيف.

توطنه في النجف الأشرف:

ثمَّ عزم على مغادرة وطنه متوجّهاً الى العراق ـ وذلك عام (١٢٤٩) ـ لمجاورة مرقد الإمام أميرالمؤمنين«ع» في النجف الأشرف والاستفادة من مشايخها العظام.

دخل النجف الأشرف عام (١٢٤٩) وكان يومذاك يتزعّم الحوزة العلمية الشيخ علي كاشف الغطاء، والشيخ محمدحسن صاحب الجواهر النجفي.

وحضر بحث الشيخ علي كاشف الغطاء واختص به لتبحره في الفقه ومبانيه، وكانت مدة اشتغاله لديه خمسة أعوام من سنة (١٢٤٩) الى (١٢٥٤) حيث توفي في تلك السنة الشيخ علي كاشف الغطاء. وعند ذلك أصبح الشيخ غنياً عن

حضور الدرس.

زعامته العلمية والدينية:

استقلّ الشيخ الأنصاري بالتدريس بعد وفاة أستاذه الشيخ علي كاشف الغطاء، لكن الزعامة العلمية والتدريس كانت لصاحب الجواهر، و بعد وفاته أصبح الشيخ الأنصاري هو المدرّس الوحيد في جامعة النجف والحوزة العلمية، فأكبَّ على معهده الطلاب.

ولمّا قربت وفاة صاحب الجواهر اجتمع عدة من العلماء في بيته لترشيح شخصيّة تكون لها الزعامة والمرجعية بعد صاحب الجواهر.

هنا نظر صاحب الجواهر مع شدة مرضه وحاله الى تلك اللجنة وقال: أين بقية العلماء؟ فقالوا له: ليس غير هؤلاء من رجال الحلّ والعقد. وهنا صرّح صاحب الجواهر عن الشخص الذي يرى فيه الأهلية لقيادة الأمة، فقال: أين ملامرتضى ؟.

وقد كان هذا الاسم حتى ذلك الحين غريباً بالنسبة لبعض الحاضرين، فذهب جماعة فوجدوه في الحرم الشريف عند مرقد الامام أميرالمؤمنين «ع»، يدعو لشفاء صاحب الجواهر، فأخبروه عن طلب صاحب الجواهر إيّاه، فجاء وسلّم، وردَّ عليه المرحوم صاحب الجواهر السلام، وفرح عند رؤ يته للشيخ الأنصاري.

ثمّ قربه اليه وأجلسه عنده، وقال: الآن طاب لي الموت، ثمّ خاطب الحاضرين وقال: هذا مرجعكم من بعدي، وخاطب الشيخ الأنصاري وقال له: قلل من احتياطاتك ياشيخ، فانَّ الشريعة سمحة سهلة.

فلمّا انتقل صاحب الجواهر الى جوار ربّه، أصبح الشيخ الأنصاري زعيماً للطائفة بتعيين صاحب الجواهر له.

فألقت الزعامة مقاليدها اليه فصار الزعيم الديني للطائفة وكذلك الزعيم العلمي في التدريس في الحوزة العلمية، فقلّدته الطائفة في كلّ مكان و بلد، وأرسلوا اليه الحقوق الشرعية، فكان يصرف قسم منها لادارة الحوزة ومعيشة الطلبة، والقسم الآخر في سبل الخير والمشاريع اللازمة.

مناظراته وأبحاثه العلمية مع العلماء:

في هذا الفصل نذكر نبذاً من أبحاثه مع العلماء والأساتذة وهذه الأبحاث تدلّنا على مدى تطلّع هذا المحقق ونبوغه منذ نشأته الأولىٰ. حينما تشرّف الشيخ الأنصاري مع والده لأول مرة بزيارة كربلاء زارا مرجع الوقت فيها وهو السيد محمد المجاهدبن صاحب الرياض، بعد أن رحّب بهما دار بحث في مسألة صلوة الجمعة و وجوبها وحرمتها في عصر غيبة الامام المنتظر«ع»، ذكر السيد وجوهاً تدلّ على حرمة اقامة صلوة الجمعة، وكان الشيخ الأنصاري ساكتاً يصغى لكلام السيد و بعدما ذكر تلك الأدلة التي تدلّ على حرمة صلوة الجمعة في عصر الغيبة، أخذ الشيخ يذكر و يبيّن من الأدلة النقلية التي تدلّ على وجوب اقامة صلوة الجمعة في عصر الغيبة بحيث مال السيد الى الوجوب بعدما كان يتبنّى الحرمة، ثمّ أخذ الشيخ الأنصاري يُفنّد و يبطل الأدلة التي ذكرها هو أولاً لا ثبات وجوب صلوة الجمعة، فتعجّب السيد من تسلّط الشيخ وقوة باعه في الاستدلال والمناظرة، سأل من هذا الشاب؟ أجاب والد الشيخ الأنصاري: انّه ولدي، فرحّب به السيد.

ومن المسائل الجديرة بالذكر تلك التي وقعت للشيخ في اصفهان حيث كان يحضر بحث السيد الشفتي الزعيم الديني فيها، وفي أحد الأيّام دار البحث حول مسألة فقهية غامضة، وقدأثار السيد شبهة على مباني تلك المسألة، ثمّ طلب الجواب من الحاضرين، وقدكان في ذلك الوقت يجلس الى جنب الشيخ الأنصاري أحد الطلبة، فشرح الشيخ الأنصاري حلّ تلك الإشكالات لذلك الطالب، وانصرف من المجلس، فذهب الطالب الى السيد الشفتي ليجيبه عن المسألة، فتعجّب السيد من جوابه، غير انّه أدرك انّ هذا الطالب غير قادر على مثل هذا الجواب، فسأله عن مصدر هذا الجواب؟ فلمّاعرف حقيقة الأمر أخذ يبحث عن الشيخ الأنصاري، وقدقرر زيارته في بيته، إلاّ انّ الشيخ أبىٰ إلاّ أن يبدأ هو بزيارة السيد الشفتي باعتباره زعيم الأمة في ذلك الوقت، فقصد كلّ منهما الآخر، غير انّهما تلاقيا في الطريق، فأخذ السيد الشفتي الشيخ الى بيته

مكرماً معززاً فكث عنده شهراً.

ومنها انّه لمّاذهب الى كاشان وحضر درس العلاّمة النراقي وفي هذا الأثناء دار البحث حول مسألة فقهية يكتنفها بعض الغموض ممّاأدّى الى حصول مناقشة بين الشيخ الأنصاري والعلاّمة النراقي استمرّت ساعات، كان العلاّمة النراقي خلالها يغدق على الشيخ أدلته، والشيخ يتصدّى لمناقشتها، ومنذ ذلك الوقت وجد الشيخ في العلامة النراقي بغيته التي ينشدها في ترحاله في كاشان و واظب على حضور درسه.

نبذ من أحواله وأخلاقه الكريمة:

كان شيخنا الأنصاري جامعاً لأمور قلّما يتّفق وجودها في شخص واحد، فكان مدرساً ومربياً للفضلاء الذين كانوا يحضرون معهده الدراسي، فبرز من معهده جماعة كبيرة من المجتهدين والفضلاء المبرزين، ونشروا آراءه وأفكاره العلمية في أصقاع البلدان الاسلامية.

والى جنب ذلك كان مرجعاً دينياً متكفلاً لادارة الطلاب والقيام بالأمور التي تتعلّق بالأموال التي كانت ترسل اليه وصرفها في مواردها اللازمة.

وكان يجيب عن الاستفتاءآت التي تصل اليه من جميع البلدان الاسلامية.

ومن أخلاقه وسلوكه انّه كان زاهداً في العيش فلم تشغله الزعامة والرئاسة، فكان يعيش في بساطة من العيش.

أعطاه رجل من المخلصين له مبلغاً لشراء دار يسكنها، وسافر الى مكة المكرمة، أخذ الشيخ تلك الأموال و بنا بها مسجداً، وهو لايزال عامراً باقامة الجماعة والصلوات، و يُعدُّ أحد المراكز العلمية الحافلة بالبحث والدرس في النجف الأشرف، و يقع في محلة الحويش.

ولمّا رجع الباذل من سفره الى بيت الله الحرام سأل الشيخ عن الدار؟ فقال الشيخ: نعم اشتريت، فجاء به الى ذلك المسجد.

توفي المحقق الأنصاري عام (١٢٨١) ودفن في الصحن الشريف في النجف الأشرف.

آثاره العلمية:

لا تزال المعاهد العلمية كالنجف الأشرف وقم وغيرها تتغذّى من تراثه العلمي في الفقه والأصول.

انَّ البحوث العلمية التي تضمنتها كتب الفقه والأصول جاءت أفكارها مفككة مبعثرة، مع انَّ الذين كتبوها كانوا على قدر كبير من العلم والفضل، ومع انَّ تلك الأفكار كانت أفكاراً ثمينة ونافعة ونادرة، ومرجع ذلك الى انَّ أساليب الكتابة لم تبلغ بعد المستوى المطلوب من النضج، كما انَّه لم يكن هناك منهج واضح في البحث والاستدلال.

ثمَّ جاء شيخنا الأعظم الأنصاري، في مثل هذه الظروف فقدّر له أن يكرّس جهوده الجبّارة في نظم هذه الدفائن الثمينة و يرتّبها أحسن ترتيب، ويهذّبها أحسن تهذيب، و يفرّق بين غثّها وسمينها، ومن ثمَّ أصبح علم الأصول في عصر هذا المحقق كأنَّه الشيء المتولد من جديد، اذ أتى بفكره الصائب وعمق نظره الراسخ بما يبهر به العقول و يعجز عنه الفحول من أساطين علماء الفقه والأصول.

ولأجل ذلك يطلق على الشيخ الأنصاري كلمة «المؤسس»، وقدأصبح فهم مراده والوصول اليه دليلاً لتبحّر المحققين.

وامّا آثاره العلمية الخالدة منها:

«كتابا الرسائل والمكاسب» في هذين الكتابين يجد المحقق تأسيس قواعد جديدة، وعناو ين فقهية وأصولية في قوالب ألفاظ عذبة مناسبة لمعانيها الراقية، التي ولدت من فكره الوقّاد ولم تكن لها سابقة في عالم الوجود. فهذين الكتابين وحيدين في موضوعهما منذ خرجا من قلمه الشريف وهوعام (١٢٧٥) الى عصرنا هذا، وعكف عليهما العلماء والفضلاء، وازدهرت بهما الحوزات العلمية والمعاهد الدينية بحثاً وتدريساً.

وامتاز شيخنا الأنصاري بهذين الأثرين بكون آرائه ونظرياته في علمي الفقه

والأصول هو المتّبع، وكلماته هي المحور في الحلقات الدراسية، وصار عليهما مدار الاجتهاد ومناط الاستنباط، وأصبحا من الكتب الدراسية الرسمية يتناولها الطلاّب جيلاً بعد جيل بكلّ اعزاز واكرام، و يعتنون بهما عناية خاصة، وترى الطلاّب لايدرسونهما عند كل أحد، بل لدى أساتذة مختصّين بهما، عارفين برموزهما، عالمين بماحواه الكتابان، كيف ولايكون كذلك حيث انّ الكتابين يقربان الطالب للوصول الى مراتب الاجتهاد وانهما مفتاح بابه والمدخل الرئيسي الوحيد له.

قال العلاّمة النوري في وصف كتب الشيخ الأنصاري:

قد عكف على كتبه ومؤلفاته وتحقيقاته كلّ من نشأ بعده من العلماء الأعلام والفقهاء الكرام الذين صرفوا همّهم و بذلوا مجهودهم، وحبسوا أفكارهم فيها وعليها، وهم بعد ذلك معترفون بالعجز عن بلوغ مرامه فضلاً عن الوصول الى مقامه...[١].

تلامذة الشيخ والمتخرجين من مدرسته:

نذكر في هذا الفصل نفريسير من تلامذة الشيخ المبرزين، ولسنا بصدد الاستيفاء.

١ ـ السيد المجدد مرزا حسن الشيرازي:

الذي أصبح بعد وفاة الشيخ زعيم الطائفة ومرجعها الأعلى، فهو من أشهر تلامذة الشيخ.

ولد في مدينة شيراز عام (١٢٣٠) بدأ فيها بتعلّم مقدمات العلوم، ثمَّ درس الفقه والأصول هنالك.

ثمَّ سافر الى اصفهان سنة (١٢٤٨) لتكميل دراسته، وكانت اصفهان يومذاك من أكبر المعاهد الدينية والدراسية في ايران، ولازالت اليوم من مراكز العلم والفضل.

فحضر هناك درس الشيخ محمد تقي الاصفهاني صاحب هداية المسترشدين في شرح معالم الأصول، والسيد حسن البيدآبادي، والشيخ محمد ابراهيم الكرباسي

١ ـ مستدرك وسائل الشيعة ٣: ٣٩٢.

مؤلف كتاب الاشارات في الأصول.

ثمّ استقلّ بالتدريس في اصفهان، وحضر لديه جماعة من الطلاّب، وعزم بعد ذلك للسفر الى النجف الأشرف عام (١٢٥٩). و بعد أن جاء الى النجف الأشرف حضر درس الشيخ حسن كاشف الغطاء، والشيخ محمدحسن صاحب الجواهر النجفي.

و بعد أن توفى صاحب الجواهر تعرّف على الشيخ الأنصاري، وعرف بمقدرته العلمية وسعة اطلاعاته الوافية، فلازمه واختصّ به، ولم يفارقه الى أن ارتحل الى جوار ربّه عام (١٢٨١).

وكان في حياة أستاذه الشيخ الأنصاري موجهاً بين تلامذته مشاراً اليه، و يعظمه الشيخ كما انّه أشار الى اجتهاده غير مرة، ولمّاتوفي الشيخ توّجه الناس الى السيد، وأجمع زملاؤه من وجوه تلاميذ الشيخ على تقديمه للرئاسة، وإن كان للسيد مشاركين في المرجعية لكن لم يطل ذلك إلاّ وتوفي معاصريه فرجع الكلّ الى السيد وأصبح المرجع الوحيد للأمة في جميع الأقطار.

وفي سنة (١٢٩١) سافر من النجف الأشرف الى زيارة العسكريين في «سامراء» وعزم على الجوار، فبادر اليه تلامذته من النجف واجتمعوا حوله، فأصبحت هذه البلدة الصغيرة عاصمة للشيعة ومركزاً ثقافياً لها، ومن الذين التحقوا بأستاذهم: الميرزا حسين النوري مؤلف مستدرك الوسائل، والشيخ فضل الله النوري الشهيد، والسيد حسن الصدر مؤلف تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، والسيد اسماعيل الصدر، والسيد محمد كاظم اليزدي مؤلف عروةالوثقى، والسيد محمد الفشاركي، والمحقق الآخوند الخراساني مؤلف كفاية الأصول، والحاج أغارضا الهمداني مؤلف مصباح الفقيه، ومرزا محمد تقي الشيرازي.

كما انّه أخذ الناس يتردّدون الى سامراء لزيارة العسكريين ومرجعهم الديني.

فلمّا كثر الطلبة في سامراء عزم السيد على بناء مدرسة لسكنى الطلاّب فهي لا تزال عامرة، كما انّه بنى جسراً ليسهل العبور على الجسر، وغير ذلك من الآثار العمرانية.

وأخذ يعلو أمره، و يشتهر صيته في أجواء العالم الاسلامي، و يكفي للعلم بمدى

نفوذ حكمه وقوة سطوته على القلوب، واطاعة الشعوب له مسألة تحريم التنباك التي قلبها رأساً على عقب، فانّه بعدما حكم وأفتى تلك الفتوى التاريخية امتلأ السلطان القاجاري ناصرالدين شاه رهبة وخوفاً على حكمه وسلطانه، فألغى المعاهدة مع بريطانيا.

كما انَّ للسيد مواقف في أعلاء كلمة الدين وتعظيم الشعائر الإلهية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولم يخلف السيد الشيرازي من التصنيف والتأليف مع غزارة علمه وكثرة تحقيقاته، وقدسأل عن سبب ذلك؟ أجاب انَّه بعد كتابي الرسائل والمكاسب للشيخ الأنصاري لاينبغي أن اكتسب شيئاً في الفقه والأصول. لكن له تقريرات لدروسه التي كان يلقيها على تلامذته ذكرقسم منها في مقدمة كتاب المكاسب/١٤١.

فكان أكثر اشتغاله العلمي بتدريس الطلاب وتربية التلاميذ، بجانب مرجعيته العظمى، فلم تترك له فرصة وفراغ للتأليف ومع ذلك له رسائل وحواشي وتقريرات ماأفاده أستاذه العلامة الأنصاري.

توفي عام (١٣١٢) وحمل على الأعناق من سامراء الى النجف الأشرف ودفن بمقبرة خاصة له في جنب الصحن الشريف.

٢ ــ مرزا أبوالقاسم كلانتر النوري الطهراني:

ولد في طهران عام (١٢٣٦) ونشأ بها، وتعلّم القراءة ومقدمات العلوم، ثمَّ توجّه الى اصفهان فقرأ الفقه والأصول فيها، بعد ذلك توجه الى النجف الأشرف وحضر بحث العلامة الأنصاري، ولازم أبحاثه العلمية حتى أصبح من أعلام تلامذته ومشاهير مقرري أبحاثه.

غادر العراق الى بلده طهران، وحلّ بها عام (١٢٧٧)، وأصبح فيها من أكبر المدرسين، وكان يحضر معهد درسه الأفاضل من الطلاب، و يلقي اليهم ممّاتلقّاه من أستاذه العظيم الأنصاري.

وألّف كتاب «مطارح الأنظار» في تقريرات أبحاث أستاذه الأصولية، استوعب

فيها نظريات العلامة الأنصاري، و يعدّ هذا الكتاب من أنفس التراث العلمي في هذا الباب.

فهو من الذين أتيح لهم المجال لأن ينشر أفكار العلامة الأنصاري في مجالي الفقه والأصول، وان يبيّن مقاصد أستاذه المغلقة.

وكتابه مطارح الأنظار حوى على معظم مباحث الألفاظ، فهو يكمّل الدورة الأصولية للشيخ الأنصاري بجانب الرسائل التي صنّفها في مباحث الأصول العقلية والعملية.

ارتحل الى جوار ربّه عام (١٢٩٢) ودفن في صحن السيد عبدالعظيم الحسني بري.

٣ ـ مرزا حبيب الله الرشتي:

حبيب الله بن محمدعلي الرشتي ولد عام (١٢٣٤) تعلّم العربية ومقدمات العلوم في بلده، ثمّ جاء الى بلدة قزوين فتعلّم الفقه والأصول فيها. ثمّ هاجر الى النجف الأشرف مدينة العلم والمعهد الكبير، فدخلها قبل وفاة صاحب الجواهر بثلاث سنين.

وعندما كان يحضر بحث صاحب الجواهر حدثت له شبهة ولم يسمع جواباً لها، فتكلّم فيها مع بعض التلاميذ المشاركين له في مجلس الدرس، فقالوا له: انّ كشف شبهتك وحلّ معضلتك عند الشيخ المرتضى الأنصاري، فتعرّف عليه عندما سأله مشكلته وهي: مسألة تعارض الأخبار في موضوع واحد، وسر تقديم بعضها على بعض؟ أجاب عنها الشيخ الأنصاري: ان التقديم من باب الحكومة، و بيّن له المسألة بصورة موجزة، وشرح له الحكومة والورود والفرق الموجود بينهما، فبهت الرشتي واستغرب من هذا المصطلح، حيث لم يسمع به الى ذلك الحين، وأراد تفصيل ذلك، فقال له الشيخ الأنصاري. ان اشكالك لايرتفع إلاّ بالحضور عندي مدة أقلّها شهرين، وهنا عرف الرشتي مكانة الشيخ العلمية، وحصلت العلاقة بينهما، وكان العلامة الرشتي إذ ذاك عازماً على الرجوع لايران، لتصوره انّه أكمل المباحث الأصولية والفقهية.

فأعرض عن السفر، وحضر بحث الشيخ الأنصاري، فرآه بحراً لايبلغ قعره ولاينال

دركه، فعزم البقاء والاستفادة، فبقي ملازماً ومقتبساً لأبحاث الشيخ الأصولية والفقهية، مغترفاً من بحار علومه.

وممّا يؤثر عنه انّه قال: مافاتني بحث من أبحاث الشيخ منذ حضرت بحثه الى يوم تشييعه، مع انّي كنت مستغنياً عن الحضور قبل وفاته بسبع سنين.

و بعد وفاة الشيخ انتهى أمر التدريس اليه، فكانت حوزته تعدّ بمئآت من شيوخ العلماء وأفاضل المشتغلين، وتربّى في معهده جمّ غفير من العلماء.

كان وحيد عصره في ابتكار الأفكار الحسنة، والتحقيقات العلمية، وكانت له القدرة القوية لبيان المطالب المشكلة، مع حلاوة التعبير ورشاقة البيان.

ابتعد عن المرجعية والتزم بالدراسة للطلاّب، وتأليف الكتب المفيدة في بابي الفقه والأصول، ولأجل ذلك ترك لطلاب العلم تراثاً ثميناً وتصانيف كثيرة نافعة منها: تقريرات بحث أستاذه الأنصاري فقهاً وأصولاً في مجلدات، و بدائع الأصول، وغيرها.

ولم يرض أن يقلّده أحد لكثرة تورّعه في الفتوى، وشدة احتياطه فيها، توفي في شهر جمادي الثانية عام (١٣١٢)[١].

٤ ـ محمد حسن الآشتياني:

محمد حسن بن جعفر الآشتياني الطهراني، عالم كبير ورئيس جليل وأشهر مشاهير علماء طهران وأعلمهم في عصره.

ولد في آشتيان حدود عام (١٢٤٨)، ونشأ بها فتعلّم القراءة والكتابة، ثمّ هاجر الى بروجرد وعمره (١٣) عاماً وكانت يومذاك دار العلم، و بقي فيها أربع سنين وتعلّم الفقه والأصول.

ثمّ توجّه الى النجف الأشرف وحضر هناك مجلس درس العلامة الأنصاري، واختصّ به حتى عدّ من أجلاء تلاميذه، وكان يقرر أبحاث الشيخ الأنصاري في حياته.

١ ـ ترجم في نقباء البشر القسم الأول /٣٥٧ـ٣٥٨.

وبعد ارتحال الشيخ الأنصاري في عام (١٢٨١) غادر العراق وهبط طهران العاصمة، وأصبح الزعيم الديني بها، واشتهر أمره فاجتمع حوله الطلبة من جميع البلدان للدراسة وعلّم مباني أستاذه في الأصول والفقه التي تلقّاها منه، وكان يؤديها ببيان وافٍ لاسيّما في حلّ مشكلات «الرسائل». وقال المحقق الطهراني: ثنيت له الوسادة، وسمت مكانته، وهو أول ناشر لتحقيقات الشيخ الأنصاري في ايران، ولذا شدّت اليه الرحال من كلّ ناحية، وعكف عليه طلبة العلم أيّما عكوف، وكان حسن التقرير، لطيف التعبير، عظم شأنه في ايران، وانحصرت به الزعامة، وحصل له تفوّق على علماء سائر البلاد الايرانية.

وفي عام الدخانية التي أعطى فيها السلطان ناصرالدين شاه القاجاري امتياز الدخانيات لانگلترا، خالفه المترجم فيها، فزادت سطوته في نظر الأشراف والأعيان، وحجّ البيت في (١٣١١) في غاية التجليل والإعظام، وقضى عمره الشريف بالكرامة والاكبار مشغولاً بالتدريس والتأليف والقيام بسائر وظائف الشرع في طهران الى أن توفي بها، وحمل الى النجف الأشرف، فدفن في مقبرة الشيخ جعفر التستري في (١٣١٩)، وقال في وصف كتابه بحرالفوائد: له حاشية كبيرة على كتاب الرسائل لأستاذه سمّاها بحرالفوائد، ألّفها في النجف، ولمّا عاد الى طهران هذّبها ونقّحها وطبعها، وألّف على الرسائل مايقارب أربعين حاشية أغزرها مادة وأكثرها نفعاً حاشية المترجم[١].

من مواقف علمائنا (قدّس الله أسرارهم) الجبّارة في وجه الحكّام موقف المرزا الشيرازي في تحريم التنباك، ولمّا ثار الشعب بقيادة رجال الدين وعلماء البلاد متأثرين بفتوى مرجع الشيعة التي لم تكن أكثر من سطر واحد، فأوجب هذا القيام العام لإلغاء تلك المعاهدة، وشارك شيخنا الآشتياني المجدد الشيرازي وعاضده في توعية الشعب، فأبعد عن طهران بتصوّر من الحكومة انّ القبض على أمثال شيخنا المترجم توجب ايقاف ثورة الشعب المسلم، لكن أصبح الأمر على عكس ماكانت

١ ـ نقباء البشر ق ١/ ٣٩٠ من طبقات أعلام الشيعة.

تتصوره الحكومة، ولمّاسمع أهالي طهران بابعاد الشيخ اغلقوا الدكاكين واعترضوا على هذا العمل الفظيع، فالتجأت الحكومة الى ارجاعه و الاعتذار منه.

وهذا الموقف من شيخنا أوجب ارتفاع مكانته آكثر من قبل في الأوساط الايرانية.

٥ ـ الآخوند الخراساني:

المحقق ملاّمحمد كاظم الآخوند الخراساني، ولد في مدينة خراسان عام (١٢٥٥) واشتغل فيها بتعلّم العلم، وفي عام (١٢٧٧) توجّه الى سبزوار لأخذ الفلسفة الإلهية من الحكيم والفيلسوف الإلهي الحاج ملاّهادي السبزواري.

ثمَّ هاجر الى النجف الأشرف وحضر مايقارب أربع سنين درس العلامة الأنصاري، ثمَّ واصل دراساته على المجدد الشيرازي.

ثمَّ اشتغل بعد وفاة الشيرازي بالتدريس، فاجتمع حوله جماعة من أهل الفضل والعلم، حتى انَّه وصل عدد تلامذته أكثر من ألف طالب بين مجتهد أو قريب من الاجتهاد، تربّى في مدرسته المحققون وأعاظم المجتهدين في القرن الرابع عشر.

اشتهر المحقق الخراساني بدراسة علم الأصول، وكتابه «كفاية الأصول». فكان من أثر مواقف هذا العالم الجليل تشكيل القانون الأساسي في ايران، لكن من المؤسف انَّ عملاء الاستعمار الذين كانوا في الحكم والمسيطرين على الأوضاع استغلّوا الدستور، وأخرجوا العلماء عن ساحة الحكم، وظلّوا يسيطرون على الأمور باسم القانون.

الى أن جاء العميل رضا پهلوي فأحدث أموراً في القانون، وظلّ يتحكّم بأشد ممّا كان يعمل أسلافه من قبل، فقتل العلماء، وغيّر الأحكام، وهتك نواميس المسلمين، ثمَّ جاء ابنه وخلفه السيّء فكان في شدة محاربته للاسلام أسوأ من أبيه، أراد القضاء على الاسلام وتغيير القوانين الاسلامية الى قوانين الكفر، كما انَّه غيّر التاريخ الهجري الى تاريخ الملوكية لبغضه وعداوته للرسول الأعظم«ص»، لكن الله تعالى منَّ على الأمة الاسلامية في ايران أن أتاح لهم رجلاً من ذرّية نبيّهم فقام في وجه

الطغاة، ودعا الناس للثورة الاسلامية، وتشكيل نظام اسلامي في ايران، فنجحت الثورة بقيادة المرجع الديني الأعلى الامام الخميني عام (١٣٩٩) وأطاح بالملوكية في ايران المسلمة، فشكراً لله على مساعي علمائنا الأبرار ومواقفهم المشكورة.

ارتحل المحقّق الخراساني الى جوار ربّه عام (١٣٢٩) ودفن في مقبرة الصحن الشريف في النجف الأشرف بجوار مولانا أميرالمؤمنين علي«ع».

آثاره العلمية:

الأثر الخالد له هو كفاية الأصول، وهو على قسمين: القسم الأول يشتمل على مباحث الألفاظ، والقسم الثاني يشتمل على مباحث الأدلة العقلية والأصول العملية.

استقبلت الأوساط العلمية هذا الكتاب استقبالاً منقط النضير، وأصبح من الكتب الدراسية، و يقرؤه الطلاّب في المعاهد الدينية في نهاية دراساتهم في السطوح العالية.

كما انَّ الكتاب أصبح محوراً أساسياً لإلقاء الدرس الخارج الذي يلقيه أكبر أساتذة المعاهد العلمية الدينية.

ولشدّة اهتمام العلماء بهذا الكتاب كتبوا عليه شروحاً، وعلّقوا عليه الحواشي الكثيرة.

موقف المحقق الخراساني في تشكيل الحكومة الدستورية في ايران:

كانت الحكومة الايرانية والبلاط الملكي وأسرته يحكمون الشعب المسلم في ايران بكلّ قساوة، وليس هناك قانون يحدد سيطرة الحكومة على الشعب، لأجل ذلك ثار الشعب في وجه الحكومة وفي طليعتهم العلماء ورجال الدين، وقاد الشعب ونضالهم المحقق الخراساني، فكان يرغّبهم في تشكيل نظام اسلامي لكي تحدد فيها تصرفات الحكومة وتمنعهم من الجور على الشعب المسلم، وتهيئة الظروف لاجراء حكم الله في ايران المسلمة.

مروّجوا مدرسة الأنصاري:

الغرض من انعقاد هذا الفصل ذكر أفراد كان لهم السهم الأوفى في تبسيط أفكار الشيخ الأنصاري وترويج مبانيه العلمية في مجالي الفقه والأصول في المعاهد الدينية و بالأخص النجف الأشرف، حيث قدّر لهم أن يعقدوا مجالس الدرس، وان يلتف حولهم الطلبة للتعليم، ولأجل نبوغهم العلمي وطريقتهم التحقيقية تمكّنوا من تربية علماء ومحققين، حتى انَّ تلامذتهم صاروا أصحاب معاهد وحوزات يربُو عددهم على المئآت فكان في مقدمتهم:

المرزا حسين النائيني:

محمد حسين بن عبدالرحيم النائيني النجفي من أعاظم علماء الشيعة ومحقّقيهم، ولد في بلدة نائين عام (١٢٧٧)، ونشأ بها وتعلّم مبادىء العلوم والمقدمات، ثمّ هاجر الى اصفهان، وقرأ الفقه والأصول لدى أعلامها.

كما انّه أخذ الفلسفة الشرقية من معلم الفلسفة الحكيم الشهير جهانگير القشقائي، وفي عام (١٣٠٣) هاجر الى العراق ونزل سامراء، وكان يحضر درس السيد محمد الفشاركي وسيد اسماعيل الصدر، والمجدد الشيرازي، الى عام (١٣١٤) جاء الى النجف الأشرف وتصاحب مع الآخوند الخراساني وصار من أعوانه وزملائه في مهام الأمور السياسية والاجتماعية والدينية، كما انّه صار أحد أعضاء جلسة استفتاء الآخوند.

واشترك مع الآخوند في تبديل الحكومة الاستبدادية الى الدستورية، وألّف رسالة «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» في الدعوة الى تشكيل الحكومة الدستورية والنظام القائم على أسس اسلامية، وقد كتب الآخوند مقدمة لهذا الكتاب.

فكان في عهد الآخوند يعدّ من العلماء المبرزين، و بعد وفاة الآخوند عام (١٣٢٩) أخذ يعلو أمره و يتّسع مجلس تدريسه، و بعد وفاة شيخ الشريعة الاصفهاني أصبح من

مراجع الشيعة.

و بعد غزو العراق على يد القوات البريطانية والاستيلاء عليها أرادوا فتح مجلس نيابي وتعيين وزراء للحكم، كماعارض وزميله ومعاصره أبوالحسن الاصفهاني لهذه الخطة الاستعمارية، مهاجراً من العراق استنكاراً لتدخل الانكليز في شؤون البلد الاسلامي العراقي.

فغادرا البلاد واستقبلهما الشعب الايراني بكلّ اجلال وإكبار، وأقاما في بلدة قم الى أن أتيحت لهما فرصة العودة الى العراق.

و بعد عودتهما الى النجف الأشرف فكان هو وزميله السيد أبوالحسن الاصفهاني يتزعّما مرجعية الشيعة.

فكان يمارس شيخنا تدريس الفقه والأصول، واشتهر في علم الأصول حتى عدّ مجدداً لهذا العلم ومظاهياً للآخوند الخراساني، وكان يحضر مجلس درسه الفضلاء الذين أصبحوا بعده قادة الحركة العلمية والفكرية والمدرسين في النجف وقم وغيرها من المعاهد العلمية.

وطبع تلامذته تقريرات أبحاثه الأصولية باسم فوائد الأصول وأجود التقريرات، توفي عام (١٣٥٥) ودفن في الصحن الشريف بجوار مولانا أميرالمؤمنين علي«ع» [١].

أغاضياء العراقي:

ضياء الدين بن محمد العراقي النجفي، من أكبر علماء العصر الأخير، ولد في سلطان آباد العراق بسنة (١٢٧٨)، وقرأ مقدمات العلوم هناك ، ثمّ هاجر الى النجف الأشرف، وحضر بحث السيد محمد الفشاركي وبحث ميرزا حسين الخليلي النجفي، والآخوند الخراساني، وسيد كاظم اليزدي وشيخ الشريعة الاصفهاني.

عرف منذ أوائل أمره بالذكاء المفرط والنبوغ المبكر، اشتغل بالتدريس فالتفّ حوله كثيرمن طلاّب العلم لحسن إلقائه الدروس وعذوبة منطقه.

١ ـ ترجم في نقباء البشر/٥٩٣ـ٥٩٦.

استقلّ بالتدريس بعد وفاة أستاذه الآخوند الخراساني، وذاع اسمه في الأوساط العلمية العالية، وعدّ من أكبر المدرسين، وعرف بالتحقيق والتدقيق في علم الأصول.

وكان مدرساً كبيراً وقداستمرّ يدرّس مدة ثلاثين سنة، وتخرّج عليه خلالها عدد كبير من المجتهدين والعلماء، حتى انَّ قسماً منهم صاروا من مراجع الدين وذوي حوزات علمية.

كان يمثّل الحريّة الفكرية، يقبل كلّ مناقشة من تلامذته مهما كانت بسيطة أو متطرفة، حين كان يلقي الدرس.

وألّف في علم الأصول «المقالات الأصولية» في جزئين، كما انَّ تلامذته دوّنوا دروسه وطبعوها بعده.

توفي في النجف الأشرف عام (١٣٦١)[١].

الشيخ محمد حسين الاصفهاني الكمپاني:

محمد حسين بن محمد حسن الاصفهاني النجفي الشهير بالكمپاني من أعاظم العلماء وأجلاء الفلاسفة.

ولد في عام (١٢٩٦)، قرأ المقدمات والسطوح اللازمة في النجف الأشرف، ثمَّ تخرّج في الفقه والأصول على السيد محمد الفشاركي، والشيخ أغارضا الهمداني، وحضر عند الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني ثلاث عشرة سنة.

كما انّه أخذ الفلسفة الشرقية من الحكيم مرزا محمدباقر الاصطهباناتي، و برز بشكل خاص بعد وفاة أستاذه الآخوند الخراساني، وحفّ به جمع من الطلاّب فاستقلّ بالتدريس في الفقه والأصول.

كان جامعاً متقناً شارك في الكلام والتفسير والحكمة والتاريخ والعرفان والأدب، وكان له القدح المعلّى في النظم والنثر.

فهو من نوابغ الدهر الذين امتازوا بالعبقرية، و بالملكات والمؤهلات، فكانت

١ ـ ترجم في نقباء البشر/٩٥٦ـ٩٥٩.

مدرسته تشمل أهل الفضل والكمال، تخرّج من معهده العلمي جماعة من العلماء، استمرّ على نشر العلم وتثقيف الطلاّب المؤهلين.

ولأجل اتقانه الفلسفة العالية كانت أبحاثه الأصولية مشبعة بها؛ ترك آثاراً تدلّ على عظمته ومدى تبحّره منها نهاية الدراية في شرح كفاية الأصول .

توفي في النجف الأشرف عام (١٣٦١)[١].

المبحث الثاني أهم الكتب الأصولية في هذه المدرسة:

قوانين الأصول:

للمحقق المرزا أبي القاسم القمي الجيلاني المتوفى سنة (١٢٣١)، مرتب على مقدمة وأبواب وخاتمة، فرغ منه سنة (١٢٠٥).

مفاتيح الأصول:

للسيد المجاهد محمد بن علي الطباطبائي الحائري المتوفى سنة (١٢٤٢) كتبه أيّام اشتغاله باصفهان.

الفوائد الحائرية الأصولية:

للأستاذ الأكبر المولى محمدباقر بن محمد أكمل المعروف بـ«الوحيد البهبهاني» المتوفى سنة (١٢٠٥)، ولخّصه وسمّاه «ملخّص الفوائد السنية ومنتخب الحسينية».

تشتمل الفوائد الحائرية على ثمانين فائدة، وفرغ من التلخيص سنة (١٢٠٢).

١ ـ الذريعة ٦: ١٨٧.

هداية المسترشدين في شرح معالم الدين:

للشيخ محمد تقي بن محمد رحيم الاصفهاني المتوفى سنة (١٢٤٨)؛ شرح مبسوط لكنه يعرف بالحاشية لأنّه شرح بالقول.

الفصول الغروية في الأصول الفقهية:

للشيخ محمد حسين بن محمدرحيم الاصفهاني المتوفى سنة (١٢٥٠)؛ أكثر فيه من الاعتراض والنقاش على المحقق القمّي صاحب القوانين، وهو كتاب متداول بين الطلبة، فرغ منه سنة (١٢٣٢).

اشارات الأصول:

للعلامة الشهير محمد ابراهيم بن محمدحسن الكاخكي الخراساني الاصفهاني المتوفى سنة (١٢٦١) في مجلدين القسم الأوّل يبحث فيه عن المبادىء اللغوية ومباحث الألفاظ، والقسم الثاني يبحث فيه عن الأدلة العقلية والشرعية.

ضوابط الأصول:

للسيد ابراهيم بن محمد باقر الموسوي القزويني الحائري المتوفى سنة (١٢٦٣)؛ انتهت اليه رئاسة التدريس في الأصول في كربلاء.

نتائج الأصول:

أيضاً للسيد ابراهيم القزويني، وهو ملخّص من كتابه ضوابط الأصول.

فرائد الأصول:

المعروف بـ«الرسائل» للمحقق الشهير الشيخ مرتضى بن محمد أمين الأنصاري المتوفى سنة (١٢٨١) وأصبح هذا الكتاب من أشهر الكتب المدونة في هذا العلم، يحتوي على خمسة رسائل القطع والظن والبراءة والاستصحاب والتعادل والتراجيح، أسس في هذه المباحث تأسيساً نسخ به الأصول الدراسية التي نهج عليها السالفون، نسج على منوال مانهج عليه العلامة الأنصاري المتأخّرون عنه حتى صار الفخر بين العلماء في فهم مراده، وكتبوا عليه شروحاً وحواشي وأصبح هذا السفر الجليل من كتب التدريس والبحث والنظر فيه من عصر المؤلف الى هذا اليوم، وتعدّ دراسة متنه من أعلى السطوح في المعاهد العلمية.

مطارح الأنظار:

للعلامة المرزا أبي القاسم كلانتر بن محمد علي النوري المتوفى عام (١٢٩٢) في أصول الفقه من مباحث الألفاظ والأدلة العقلية، من تقرير بحث العلامة الأنصاري.

بدايع الأفكار:

لمرزا حبيب الله بن محمد علي الرشتي المتوفى (١٣١٢)؛ مجلد كبير حاوٍ لمهمّات مباحث الأصول.

بحر الفوائد في شرح الفرائد:

للعلامة مرزا محمد حسن الآشتياني الطهراني المتوفى سنة (١٣١٩)؛ كان من أعظم تلاميذ المحقق الأنصاري، ومقرر درسه في عصره، وقد كتب هذا الشرح أوان تشرّفه بالنجف الأشرف، ولـمّا رجع الى طهران هذّبه ونقّحه عند القائه الدرس

لتلاميذه الأفاضل الأعلام الذين كانوا يشدّون اليه الرحال من أقاصي البلاد، وهو أحسن شرح كتب على رسائل أستاذه، فشرح مراده وحلّ معضلاته، وكتب ذلك كلّه بصورة مبسوطة.

كفاية الأصول:

للمحقق الآخوند محمد كاظم بن الحسين الخراساني النجفي المتوفى سنة (١٣٢٩) متن جامع يقع في قسمين: الأول منه يشتمل على مباحث الألفاظ، والثاني منه يشمل المباحث العقلية والأصول العملية.

قد أشرب مباحث الأصول المسائل الفلسفية أكثر من غير ممّن عمل ذلك قبله كالشيخ الأنصاري في كتاب الرسائل وصاحب الفصول والقمي في القوانين.

أصبح من الكتب الدراسية في الجامعات العلمية كالنجف وقم وسائر المعاهد العلمية، وعكف على فهمه ودرايته الفضلاء، وكثر الشرح والحاشية عليه.

درر الفوائد:

للشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي المتوفى عام (١٣٥٥) مؤسس الحوزة العلمية بعد اندراسها، وهذا الكتاب حاوٍ للمسائل الأصولية عدا مباحث الاجتهاد والتقليد، وقداستخرجه من تقريرات بحث أستاذه السيد محمد الفشاركي.

نهاية الدراية في شرح الكفاية:

للمحقق الشيخ محمد حسين بن محمدحسن الاصفهاني الكمپاني النجفي المتوفى عام (١٣٦١)؛ وهذا الشرح وإن كان مشحوناً بالتحقيق والتدقيق لكن من المؤسف انّه لم يوفّق المصنّف لتنقيحه وتحريره، وكتب قسماً من الشرح أيّام حياة أستاذه الآخوند.

وفي أخريات حياته عزم على تنقيح مباحث أصول الفقه، وأخرج قسماً منه، وسمّاه «الأصول على النهج الحديث» إلاّ انّ الأجل لم يسمح له باخراج بقية المباحث

وتتميمها.

فرائد الأصول:

للشيخ محمد علي الكاظمي الخراساني المتوفى سنة (١٣٦٥)؛ وهذا الكتاب من أحسن ما كتب في موضوعه، يشتمل على دورة كاملة من تقريرات أبحاث المحقق النائيني.

قال في حقّه أستاذه النائيني: فقدأودع في هذه الصحائف الغرّ مانقّحناه في أبحاثنا، مجداً في تنقيحه، مجيداً في توضيحه، ببيان رائق وترتيب فائق...

عكف عليه الطلاّب في المعاهد العلمية عند حضورهم درس الخارج، فصار هذا السفر الثمين محوراً للبحث والمطالعة.

نهاية الأفكار:

للشيخ محمد تقي البروجردي تقريراً لأبحاث أستاذه المحقق العراقي، وهي دورة كاملة، طبع منها حتى الآن مبحث القطع والظنّ والأصول العملية، وفرغ منها سنة (١٣٥٢).

هو أحسن تقرير كتب لأبحاث العراقي، وجددت طبعه مؤسسة «دفتر انتشارات اسلامي» المرتبطة بجامعة المدرسين في جامعة قم المقدسة، وهذه المؤسسة مشغولة بطبع القسم الأول من هذا الكتاب.

الرسائل:

للمحقق الأكبر مؤسس الجمهورية الاسلامية في ايران الامام القائد المرجع الديني الأعلى للطائفة زعيم المسلمين و أمل المستضعفين الامام آيةالله العظمى السيد روح الله الموسوي الخميني أدام الله ظلّه على رؤوس المسلمين.

يشتمل هذا الكتاب على مباحث: اللاضرر، والاستصحاب، والتعادل

والترجيح، والاجتهاد والتقليد، ومسألة التقيّة، وطبعت تقريرات درس الامام باسم «تهذيب الأصول»، وهي دورة كاملة بقلم العلاّمة الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني، وهو اليوم من مدرّسي الحوزة العلمية بقم المقدسة.

أجود التقريرات:

للسيد أبوالقاسم الخوئي النجفي وهو آخر تقريرات بحث استاذه المحقق النائني.

عكف عليه طلاّب العلم بالاستفادة في دروس البحث الخارج، إلاّ إنّ القسم الأول منه وقع مورد العناية للمعاهد العلميه، وعلى عكس ذلك تقريرات المرحوم الكاظميني «فوائد الأصول» فانّه أقبل عليه روّاد العلم في القسم الثاني، وهي مباحث القطع والأصول العملية.

وطبع تقريرألدروس السيد الخوئي «مصباح الأصول» وهي تشمل أمّهات مسائل علم الأصول.

نهاية الأصول:

للشيخ حسينعلي المنتظري النجف آبادي، تقريراً لأبحاث أستاذه الفقيد الراحل السيد البروجردي (قدّس سرّه).

وسماحة آية الله العظمى المنتظري أشهر من عاضد الامام الخميني في نضاله وكفاحه ضدّ الشاه العميل، وشارك معه في تأسيس الجمهورية الاسلامية في ايران، ووقف معه جنباً الى جنب في محاربة الاستكبار العالمي، والغزاة الصهاينة، وقدانعكست فيه الصفات العالية التي يتحلّى بها الامام القائد الخميني، ونأمل من الباري جلّ ذكره بأن يحفظهما للاسلام و يعزّبهم المسلمين آمين.

أصول الاستنباط:

للسيد علي نقي بن أحمد الحيدري الكاظمي، لخّص فيه مباحث الألفاظ والأدلة العقلية، وإتخذفي البحث والكتابة الأسلوب الحديث، وذكر في مقدمة الكتاب موجزاً لتاريخ علم الأصول.

أصول الفقه:

للشيخ محمد رضا المظفر النجفي، يحتوي الكتاب على دورة كاملة لعلم الأصول من مباحث الألفاظ والأدلة العقلية على الأسلوب الحديث والمنهج الدراسي، ولذلك أصبح من الكتب الدراسية، و يقرأه قسم من الطلاّب في المعاهد العلمية بدل القوانين.

دروس في علم الأصول:

وهو كتاب يقع في ثلاث حلقات، وضعه الشهيد المفكر الاسلامي الكبير آية الله العظمى السيد محمدباقر الصدر «قدّس سرّه».

وتشتمل كلّ حلقة من هذه الحلقات على دورة كاملة من علم الأصول، حيث انَّ الحلقة الأولى يدرسها المبتدئون، وامّا الحلقة الثانية فهي للدراسة المتوسطة، وتقع الحلقة الثالثة في مجلدين، وقدهيئت لدراسة السطوح العالية. وقدكتبت بأسلوب مدرسي حديث، وكانت مورد عناية الدّارسين والمدرّسين.

المبحث الثالث أهم المعاهد العلمية في هذه المدرسة:

مدرسة كربلاء:

ازدهرت مدرسة كربلاء في عصر الوحيد البهبهاني بالفقهاء والنوابغ، فكانت هذه المدرسة بفضل مواقف المؤسس الأكبر الوحيد البهبهاني واحيائه للفكر العلمي و بثّ الحركة فيها، من المدارس الكبيرة في تاريخ العلوم الاسلامية والشيعية، فأصبحت إحدى المدن العلمية الشيعية الشهيرة، تضاهي في ذلك العصر مدرسة النجف الأشرف في تقدّمها العلمي، وسيرها الدراسي، فكان رائد الحركة فيها رجل كالوحيد البهبهاني، والشيخ يوسف البحراني، وصاحب الرياض، وصاحب الضوابط، والسيد المجاهد، وشريف العلماء، والشيخ محمدحسين الاصفهاني، وأمثال هؤلاء الأساطين الذين ازدهر بهم الدهر.

انتجت هذه المدرسة للتراث الامامي الشيء الكثير كموسوعة «الحدائق الناظرة» وكتاب رياض المسائل وعشرات الكتب الأخرى.

كما انّه تخرّج من هذه المدرسة المفكّرين والقادة في العلوم الاسلامية، وانَّ مثل الشيخ المرتضى الأنصاري قدتخرّج من مدرسة شريف العلماء في هذه البلدة الطيبة.

مدرسة اصفهان:

المدرسة العلمية في اصفهان عظمت منزلتها في عهد الدولة الصفوية، ففي هذا العصر أصبحت مدرسة اصفهان مركزاً ثقافياً وعلمياً، لم يسبق له نظير في تاريخها.

فصارت مدرسة اصفهان معهداً عظيماً، وكان لها الدور الخاص في بسط المذهب الامامي في القطر الايراني، وكانت ملجأ لجميع العلماء في الأقطار الأخرى، فكما كانت عاصمة للدولة أيضاً كانت العاصمة للفكر الامامي.

كما نرى في هذاالعصرقد توجّه اليها علماء جبل عامل كالشيخ البهائي، والمحقق

الكركي، والميسي، حتى كان علماء جبل عامل يتزعمون هذه المدرسة في بعض العصور.

فمدرسة اصفهان كان يقطنها أكبر علماء الشيعة كالمجلسي الأول، وابنه العلامة المجلسي، وملاعبدالله التستري، والسيد الشفتي، كما انَّه تمتاز هذه المدرسة بوجود الحركة الفلسفية فيها على يد المحقق ميرداماد أستاذ ملاَّصدرا.

فاسهمت مدرسة اصفهان بالحظ العظيم في التفكّر وتطوير العلوم الاسلامية، وانتجت من الموسوعات والكتب العلمية الشيء الكثير كـ«بحار الأنوار» من الأخبار الواردة عن النبي والأئمة«ع»، وهذه الموسوعة الامامية تعدّ من أعظم الكتب المدوّنة والحاوية لشتّى الجوانب الاسلامية.



الخاتمة

فوائد عامة

أصول الفقه:

ألّف أصحابنا الامامية في علم أصول الفقه كتباً ورسائل لاتحصى عدداً،ولاسيّما من أوائل عصر الأستاذ الأكبر الوحيد البهبهاني حتى اليوم، وجملة منها عنوان خاص واسم تختصّ به.

وجملة منها كتبت بصورة حاشية أو شرحاً لأحد الكتب الأصولية، مثل الحواشي والشروح التي كتبت على تهذيب الأصول للعلامة الحلّي، ورسائل الشيخ الأنصاري، وكتاب الفصول وكتاب قوانين الأصول، والكفاية للآخوند والمعالم والوافية....

وجملة منها كتبت تقريراً لأبحاث الأساتذة التي يلقونها في معاهدهم العلمية لتلامذتهم، فهذه الأبحاث يكتبها التلاميذ بتصرّف منهم في أسلوب الترتيب والتحرير. وذكر العلامة الطهراني من الكتب الأصولية المدونة في علم الأصول لأصحابنا التي ليس لها عنوان واسم خاص (٥٥) كتاباً[1].

أضف الى ذلك انَّ كثيراً من العلماء كابن زهرة من المتقدّمين وكاشف الغطاء من المتأخّرين وغيرهم كتبوا مسائل الأصول المهمة في مقدمة كتبهم الفقهية وطرحوا

١ ـ الذريعة ٢:٢٠١-٢١١.

ذلك ببحوث مستقلة.

الحاشية:

وهي مايكتب في أطراف الكتب من الزيادات والإلحاقات والشروح، والحاشية: من الحشو، بمعنى الزائد، أو من الحاشية، بمعنى الطرف، من باب تسمية الحال باسم المحل.

و يرجع تاريخ كتابة الحواشي والتعليق على الكتب في الثقافة الاسلامية الى عهد انتشار الكتب نفسها.

فانَّ من قرأ شيئاً من العلوم وكان عارفاً بالكتابة لميفته هذا النوع من التأليف، لأن ابداء الرأي أمر طبيعي لكلّ فرد يمكنه ذلك.

لقد كانت كتابة الحواشي والتعليقات قبل القرن العاشر تنحصر لكشف بعض الغوامض والمشكلات من المسائل العلمية والأدبية، وشرح بعض العبارات المعقّدة، وتمتاز عن الحواشي بعد هذا التاريخ بكونها أوضح من المتون التي علّقت عليها للتوضيح.

وامّا في العهد الصفوي والقاجاري فنرى الحواشي والتعليقات على الكتب قدازدادت عدداً، وزادت عباراتها اغلاقاً وتعقيداً، وكلّما نتقدّم في هذا العصر نرى هذا الأثر يشتدّ و يتّضح أكثر من قبل.

ثمّ انّه قدتدوّن الحاشية وتكتب مستقلة خارج الكتاب المحشّى عليه، وقد تبقى على حالها في الهامش، وليس كلّ مالميدوّن غير مفيدٍ ولاقابل للذكر في عداد التصانيف، كما انّه ليس كلّ مادوّن فهو مفيد[1].

١ ـ الذريعة ٦: ٧ـ٨.

التقريرات:

التقريرات عنوان عام لبعض الكتب المؤلفة من أواخر القرن الثاني عشر و بعده حتى اليوم، وهذه العملية تشبه «الأمالي» في كتب الحديث عند المتقدمين، وانَّ الفارق بينهما انَّ الأمالي كانت تكتب في مجلس الإملاء للشيخ عن كتابه أو عن ظهر قلبه، وكان السامع يصدر الكتاب بعد مايتمّه باسم شيخه.

بخلاف «التقريرات» فانَّها مباحث علمية يلقيها الأستاذ على تلامذته عن ظهر القلب و يعيها التلاميذ في حفظهم، أو يكتبون مهام الدرس بصورة اشارة، ثمَّ ينقلونها و ينقحونها و يرتبونها الى الكتابة في مجلس آخر وتعدّ من تصانيفهم.

وكتب التقريرات كثرت في عصر الوحيد البهبهاني، والسيد بحرالعلوم، وكاشف الغطاء، وشريف العلماء، وصاحب الضوابط، وصاحب الفصول والقوانين وصاحب الجواهر.

وأخذت تعلو في تنسيقه في عصر العلامة الأنصاري، ومن بعده في النجف وسامراء في عصر المجدد الشيرازي، وقم في عصرنا الحاضر التي هي أكبر معاهد الشيعة الامامية، وغيرها من المعاهد الشيعية.

كلمة الختام

هذا آخر ما أردنا استعراضه من دراسة تطوّر علم الأصول في المدارس الأصولية ضمن الحدود التي وضعناها لهذه الحلقة.

وبذلك تكتمل في ذهن الدارس لتطور علم الأصول، صورة عنها، ونوّد من المولى سبحانه أن يوفقنا لكتابة الحلقة الثانية وهي الغاية النهائية لاستعراضنا للحلقة الأولى، وهي دراسة تطوّر المباني لعلم الأصول، وكان الغرض من دراسة الحلقة الأولى أن يتمهّد لنا الطريق للحلقة الثانية.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ونسأل المولى التوفيق لما يحب ويرضى، انّه وليّ الإحسان وهو على كلّ شيء قدير.

اسماء المصادر

ادب المرتضى	عبدالرزاق محى الدين	ط بغداد
ادوارعلم الفقه	كاشف الغطاء	ط بيروت
الاستبصار	الطوسى	طبع النجف سنة ١٣٧٦
اصول الكافى	الكلينى	دارالكتب الاسلامية
اعيان الشيعة	سيد محسن الامين العاملى	مطبعة ابن زيدون دمشق
امل الآمل	الحرالعاملى	ط الاداب النجف الاشرف
الانوارالنعمانية	نعمة اللّه الجزائري	ط تبريزشركت چاپ
بحارالانوار	العلامة المجلسى	ط الجديدة
تاريخ حصرالاجتهاد	آغابزرگ الطهرانى	ط الخيام قم
تاريخ الكوفة	البراقى	ط الحيدرية النجف الاشرف
تأسيس الشيعة	حسن الصدر	ط شركة النشروالطباعة بغداد
تصحيح الاعتقاد	للصدوق	ط تبريزسنه ١٣٧١
تقريرات اصول	محمودشهابى	ط محمدعلى علمى سنة ١٣٤٤ ش
تنقيح المقال	المامقانى	ط الحيدرية
جامع الرواة	الاردبيلى	ط مكتبة محمدى قم
الحدائق	يوسف البحرانى	ط النجف الاشرف
دروس فى علم الاصول	الشهيد الصدر	ط دارالكتاب اللبنانى
الذريعة	السيدالمرتضى	ط جامعة طهران

الذريعة	آغا بزرگ الطهرانی	ط النجف الاشرف
رجال العلامة	العلامة الحلی	ط الحيدرية النجف الاشرف سنه ١٣٨١
رجال الكشی	الكشی	ط جامعة مشهد سنة ١٣٤٨ ش
رجال النجاشی	النجاشی	ط بمبئی سنة ١٣١٧
رسائل الاصول	العلامة الانصاری	ط قم مكتبة المحمدية سنة ١٣٧٣
روضات الجنات	الخوانساری	ط مهر استوارقم
سفينة البحار	عباس القمی	ط انتشارات سنائی
سيرة الائمة الا ثنی عشر	معروف الحسينی	ط دارالتعارف بيروت سنة ١٣٩٧
شخصيت شيخ انصاری	مرتضی الانصاری	ط اتحاد سنة ١٣٣٩ ش
شرح اللمعة	الشهيدين	ط النجف الجديدة
شرح نهج البلاغة	ابن ابی الحديد	ط داراحياء الكتب العربية بمصر
صحيح مسلم	الامام مسلم القشيری	ط دارالفكر بيروت
طبقات اعلام الشيعه	آغا بزرگ الطهرانی	ط النجف وبيروت
فهرست ابن النديم	ابن النديم	ط الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨
كفاية الاصول	الاخوند الخراسانی	ط العلمية الاسلامية
الكنی والالقاب	عباس القمی	ط العرفان صيدا سنة ١٣٥٨
المبسوط	الطوسی	ط الجديدة النجف الاشرف
مصباح الاصول	سيد سرور	ط النجف فی النجف الاشرف سنه ١٣٨٦
المعالم الجديده	الشهيد الصدر	ط النجف الاشرف
من لايحضره الفقيه	الصدوق	ط النجف الاشرف
هزاره شيخ طوسی	الدوانی	ط دارالتبليغ اسلامی
وسائل الشيعه	الحر العاملی	ط الاسلامية